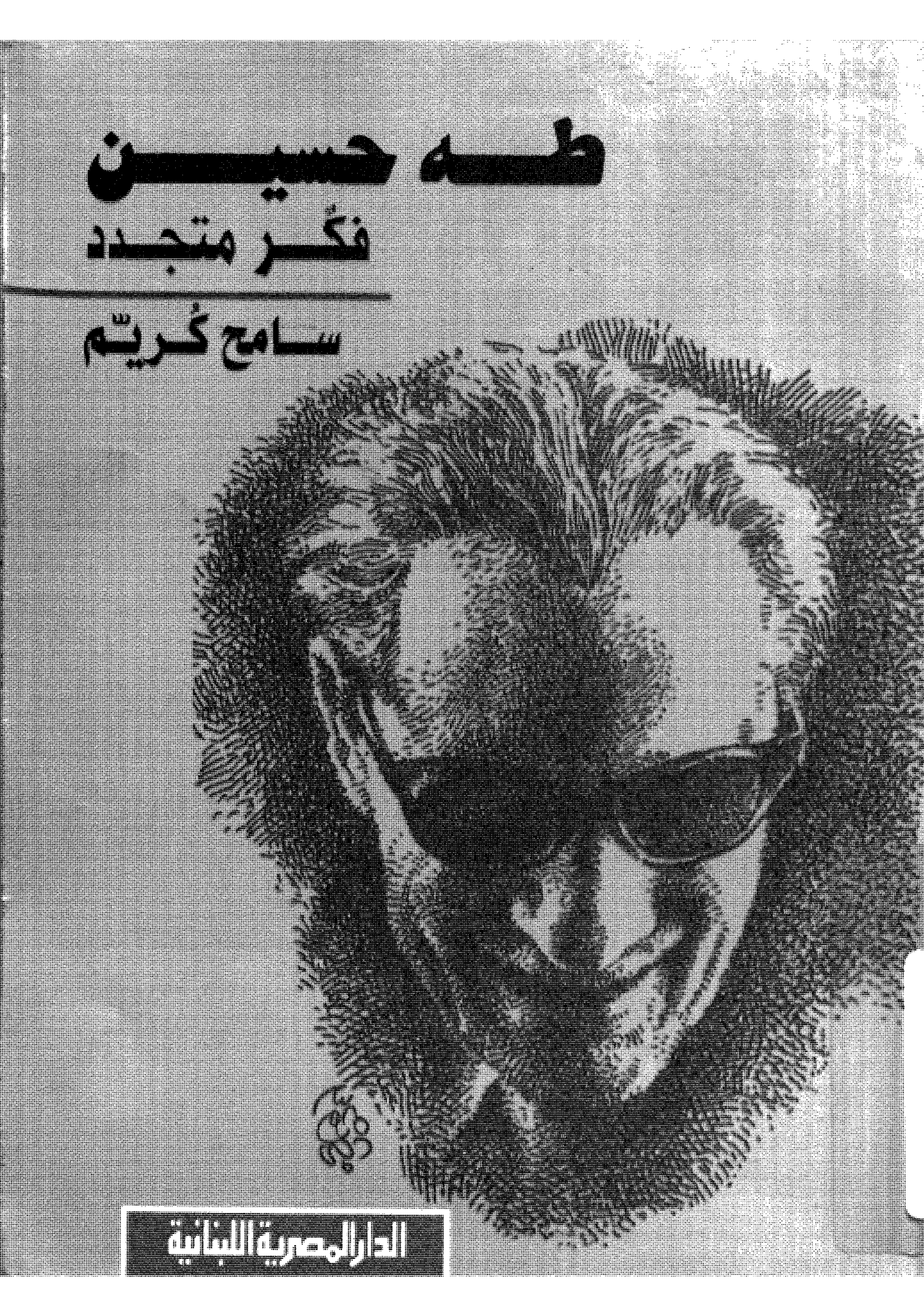

طه حسين
فكر متجدد
سامح كريّم
الدار المصرية اللبنانية

طـه حسين

فكرٌ متجدد

الدار المصرية اللبنانية

16 شارع عبد الخالق ثروت . تليفون : 3910250

. فاكس : 3909618 - ص.ب 2022 . برقيا دار شادو . القاهرة

E - mail:info @ almasriah. com

WWW . almasriah . com

رقم الإيداع : 2004 / 3227

الترقيم الدولي : 9 - 832 - 270 - 977

الطبعة الأولى : ذو القعدة 1424 هـ - يناير 2004م

طه حسين

فكرٌ متجدد

سامح كُريّم

الدار المصرية اللبنانية



على سبيل التقديم
طه حسين كما عرفته

لعل معرفتى الشخصية بعميد الأدب العربى الدكتور طه حسين كانت فى منتصف الستينيات، منذ أول لقاء لى معه بعد أن أصبحت صحفيا، يجرى الأحاديث مع الأعلام والمشاهير، وما تبع ذلك من أحاديث ومقالات ودراسات.. تكاد تمثل وجودا أسبوعيا على الصفحات، إلى جانب اهتمام مكثف مثلته مؤلفاتى عن طه حسين، هذه الاهتمامات جميعها إلى جانب الاهتمام بما كنت أسمع وأقرأ لطه حسين وعنه، كل هذا يمكن أن يندرج تحت عنوان: "طه حسين كما عرفته".

وفيما يخص معرفتى بالدكتور طه حسين التى أنشرها لأول مرة على الرغم مما نشرت عنه من كتابات، أرجو ألاّ أتزيد فيما أقول، فأسبغ على نفسى شيئا ليس من حقها، أو أبخس هذه النفس الحق فى اهتمامها الملحوظ بطه حسين، الذى استمر لأكثر من خمسين عاما، منذ أن سمعت عنه، حتى لحظات كتابة هذه الصفحات.

وفى هذا الإطار أقول إننى سمعت بالدكتور طه حسين كواحد من عشرات الملايين فى ريف مصر وحضرها.

نعم لقد سمعت بالدكتور طه حسين كواحد من عشرات الملايين بمصر والعالم العربى التى سمعت به كمعجزة يتحدث عنها الجميع حين يقرنون اسمه بمجانية التعليم، وأنه صاحب فكرة "التعليم كالماء والهواء حق لكل مواطن"، وتصميمه على تنفيذ هذه الفكرة عندما عرض عليه الوفد وزارة المعارف العمومية، جعل قبوله للوزارة مقترنا بتنفيذ هذه الفكرة إلى درجة أن معارضيه كانوا يتندرون عليه بعبارة "وزير الماء والهواء".

هذا إلى جانب أننى كواحد من أبناء المنيا الذين يعتزون بانتساب طه حسين لهذا

الإقليم من أقاليم مصر، ويضاعف هذا الاعتزاز عندى أن مسقط رأسه فى حى الكيلو بمدينة مغاغة لا يبعد كثيرا عن قريتى. أمرا كان يشوقنى إلى سماع أخباره من أهلى وعشيرتى، الذين كانوا يتحدثون عنه بفخر ليس له حدود. وهو ما يخطف انتباه الذى يريد أن يتعلم ليصبح من بعد صحفيا وأديبا، أو باختصار كاتبا له رأى.. فهذا هو النموذج والمثل.

وقرأت للدكتور طه حسين، و لم أزل صبيا بين العاشرة والخامسة عشرة. فى القراءة ازددت تعلقا بهذا الذى يتحدثون عنه خاصة عندما قرأت رائعته الأيام، وعشت مع هذا الطفل الكفيف فى مأساته، وكانت دهشتى أنه يفعل ما يفعل وهو يستطيع بغيره وليس بنفسه كالمبصرين مثلى. وتمثلت لى البطولة معانيها فى شخص هذا الكفيف الضعيف. وهو أمر طبيعى يشوّق من كان فى مثل سنى وقتئذٍ.

ورأيت الدكتور طه حسين من بعيد، أو بالتحديد أمام مجمع الخالدين القديم بالجيزة. كان وقتها قد تجاوز السبعين من عمره، وكان يتوكأ بذراعه الأيمن على عصاه، فى حين يستند ذراعه الأيسر على ذراع سكرتيره فريد شحاتة، لكن على الرغم من هذا الوهن والضعف كان يبدو شامخا قويا والناس من حوله أقزام صغارا حتى يصل إلى مركبته والكل حوله مودعون. هذه الصورة لم تفارقنى إلى اليوم. ولعل ما زاد من إحساسى بهذا المشهد المهيب ما سمعته من تعليقات الحاضرين بعد أن غادرهم، والتى كنت أسمعها بفضول الصحفى المبتدئ، فما سمعت منهم إلا احتراما وإجلالا لهذا الرجل الذى يبدو للجميع ضعيفا، ولكنه فى الحقيقة هو من أقوى الرجال!

والتقيت بالدكتور طه حسين فى منزله بالهرم. ورأيته عن قرب، بعد أن تحدد لى موعدا لإجراء أول حديث صحفى معه لمجلة الإذاعة والتليفزيون التى كنت أعمل بها محررا، وكان ذلك فى منتصف عام ١٩٦٦ بمناسبة هجومه على واحد من كتب العقاد بعد رحيله، فى ندوة تليفزيونية أعدها الأستاذ أنيس منصور، وجمعت عددا من تلاميذ طه حسين من كبار الكتّاب والأدباء. وقد كان هجوم طه حسين على بعض صفحات وردت بكتاب عبقرية عمر للعقاد المقرر على تلاميذ المدارس الثانوية.

وازداد إعجابى بالدكتور طه حسين، حين تحدث عن الأستاذ العقاد باحترام وتقدير شديدين. وهو ما انزعج له الأستاذ أنيس منصور إلى درجة أنه حاول بشتى الطرق أن يمنع نشر هذا الحديث حتى يظل ما قاله الدكتور طه حسين عن الأستاذ العقاد مادة شهية للتعليق فى وسائل النشر المختلفة.

لقد قال الدكتور طه حسين ما أنقله الآن من حديثه: "إننى أعرف بالعقاد من غيرى. وأنه لا يقلل من مكانة العقاد عندى أو عند غيرى أن أقول رأيا فى بعض صفحات فى كتاب من كتبه التى زادت عن المائة، وأن أرى فى هذه الصفحات صعوبة بالنسبة لطلاب المدارس الثانوية، ولا أريد أن يتخذ البعض من هذا الرأى ذريعة للهجوم على فكر العقاد، أو العمل على الوقيعة بينى وبينه وهو فى رحاب الله. فلا يمكن أن ينسى أحد جهود العقاد فى الثقافة المصرية.. رحم الله العقاد رحمة واسعة، وجزاه عما أعطى وبذل خير الجزاء..".

وكان ما كان بعد نشر هذا الحديث من تصحيح لموقف طه حسين من الأستاذ العقاد. لكن الذى لا أنساه فى هذا الحديث وهو ما لم ينشر، ما حدث لى لحظة أول لقاء بطه حسين. فقد اعترتنى رهبة مفاجأة. لعلها من هيبة الرجل، أو لعلها من هيبة أساطين الأدب والفكر الذين كانوا حوله والذين شهدوا وقائع هذا الحديث فى أثناء تواجدهم حول طه حسين، أو لعلها رهبة الصحفى المبتدئ الذى يُقبل على عمل يجر عليه بعض المتاعب.

مثلا بدأت أسأل طه حسين عن التراث حيث قلت: "كان فى تقييمكم لتراث الشعر الجاهلى دوىّ هائل". وقبل أن أستمر فى طرح بقية السؤال لاحظت امتعاضا على وجه الدكتور طه حسين وبعض الحاضرين. فسرته لحظتها بأننى أخطأت فى نطق المفردات، وأننى لم أنطق الثاء كما يجب فأعدت على مسمعه العبارة من جديد مع الحرص على نطق الثاء فى كلمة التراث بشكل صحيح. فقلت: كان فى تقييمكم فاتحا "الميم" بعد الحرف فى، وقبل أن أستطرد فى أخطائى استوقفنى لكى يصلح الخطأ الذى وقعت فيه فى المرة السابقة وحرصت عليه فى المرة التالية، وهو عدم الاهتمام بحرف

الجر الذى يسبق كلمة "تقييمكم".. استوقفنى قائلا: "حرف الجر" فى "يجر بلد. ألا تلاحظه"؟! قالها برفق شديد كمربى وأستاذ. مما جعلنى أتجرأ فى الوقت نفسه وأقول: إن أبناءك وأحفادك يخطئون دائما فى نحو اللغة وصرفها.. ولعل هذه العبارة الأخيرة استفزته حيث سألنى: ما هى ثقافتك؟ فقلت: "خريج فلسفة عين شمس". قال: "لماذا لم يعلمك بدوى - يقصد الدكتور عبد الرحمن بدوى - نطق اللغة مع الفلسفة؟". فرددت بجرأة - لعلنى أحسد نفسى عليها الآن - حين يحرم المرء من نعمة اسمها الكسوف أو الخجل قائلا: "سنوات الجامعة لم تيسر لنا مع دراسة الفلسفة واللغات الأجنبيه التى نتعامل بها مع الفلسفة كاللاتينية، واليونانية القديمة، والألمانية، والفرنسية، والإنجليزية.. مجالا للحفاظ على سلامة اللغة العربية". وبدلا من أن ينهرنى على هذه الجرأة رأيته يبتسم فى حزن وأسى قائلا: "هذه هى المأساة أن تقرر الجامعة كل شىء ولا تدع لطلابها إتقان أى شىء بها؟!".

وكان اللقاء الثانى مع الدكتور طه حسين بتاريخ ٤فبراير ١٩٦٧ لإجراء حديث نشر بمجلة الإذاعة والتليفزيون. يومئذٍ بادرنى قائلا: لعلك تكون قد أتقنت شيئا من نحو اللغة وصرفها فى عام مضى"، فرددت عليه: "دى مسألة صعبة".. فضحك ضحكته الطويلة التى كانت تبدأ بابتسامة وتنتهى بقهقهة، وقال: "الجواب بدأ من عنوانه. أليس من الأفضل أن تقول هذه مسألة بدلا من قولك دى مسألة"..؟! وصحب ذلك لحظة صمت وكأنه كان يسترجع شيئا ما، وقال: "لغة العامية لا تنتج أدبا راقيا". وهنا بادرته قائلا: "ولكنها لغة الشعب"، فقال معترضا برفق وكأنه تعود على جهلى مستسلما، ولكنه مع ذلك لم يقتنع أن يكون سلبيا تجاه ما يسمع من أخطاء فانبرى قائلا: "من الإهانة للشعب أن تنسب إليه العامية فى وجود الفصحى.. الشعب يسمع القرآن الكريم ويعجب بما يسمع ويستمتع، وهناك الجاهل الذى يحفظه ويفهمه. فهل القرآن مكتوب بالعامية حتى يحفظه الجاهل ويفهمه؟! ولتعلم أن المصلى إذا قرأ بعضا من السور القرآنية القصيرة فى صلاته، فإنه موقن تماما بأنه إذا لم يفهمها، فلا صلاة له.. لا تظلموا الشعب خيرا لكم أن ترقوا بلغته فهذه رسالتكم".

لكن الذى غفر لى أخطائى عند الدكتور طه حسين أن ما وجهته إليه من أسئلة نالت بعض رضاه مما جعله يواصل هذا الحديث، ومن ضمن هذه الأسئلة سؤال كان يدور حول زيارة الفيلسوف الفرنسى جان بول سارتر لمصر ومنطقة الشرق الأوسط. وكم كانت الدولة فى مصر ممثلة فى أجهزتها الإعلامية والثقافية تنتظر الكثير من وراء زيارة هذا الفيلسوف لتأييدنا فى صراعنا مع إسرائيل. وقد أعجب الدكتور طه حسين بنغمة حديثى عن سارتر المغايرة تماما لهذا الحشد الإعلامى والثقافى المصاحب لزيارة سارتر. وبتوقعاتى بأن سارتر لن يكون معنا ضد إسرائيل. وقد تحقق ذلك حين زار إسرائيل بعد زيارته لمصر. وقال عنها بأنها دولة متحضرة وأن شعبها هو شعب الله المختار وهو ما لم يقله عن مصر، على الرغم مما قوبل به من حفاوة بالغة على المستويين الرسمى والشعبى.

لقد وصفت سارتر فى أسئلتى المنشورة فى هذا الحديث بأنه ثائر أقوال وشعارات أكثر منه ثائر قضايا وأفعال. ليرد طه حسين قائلا: "لأن سارتر لا يريد أن يتحمل تبعات ما يقول. وهذه طبيعته حتى اليسار الذى ينتمى إليه لا يريد أن يتحمل تبعاته، مع أنه يدعى بأنه يسارى".

وكم كانت مفاجأة للأوساط الثقافية والإعلامية بمصر وقتئذٍ أن يعلن طه حسين فى هذا الحديث تناقض سارتر كفيلسوف للالتزام حين يرفض بشهادة عميد الأدب العربى طه حسين أن يكون ملتزما، أو متحملا لتبعات ما يؤمن به كموقفه من اليسار. ولهذا كان ينبغى ألاّ ننتظر منه تأييدا لقضايانا.. وهو ما حدث بالفعل فى زيارته لإسرائيل.

أقول كان هذا الحديث مفاجأة للأوساط الثقافية والإعلامية، إلى درجة أن الكاتب الكبير كامل زهيرى رئيس مجلة الهلال وقتئذٍ، والناقد الأستاذ رجاء النقاش اتصلا بى معا، وكانت مكالمتهما التليفونية خير مشجع لى ومعين، فلا أنسى عبارة الأستاذ رجاء النقاش حين قال لى: هل تقبل أن أكون صديقا لك؟ و لم أجد ما أرد به عليه وقد ملأت شهرته سماء المنطقة العربية، إلا أن أقول: "ومن الذى يرفض صداقة رجاء النقاش التى يعرضها عليه فيرفضها".

باختصار نال هذا الحديث الذى أجريته مع الدكتور طه حسين فى ٤ فبراير عام ١٩٦٧ بمجلة الإذاعة والتليفزيون اهتماما واسعا من الأوساط الصحفية والثقافية إلى جانب الرأى العام.

وتتكرر لقاءاتى بالدكتور طه حسين، وطبيعى أن تجد هذه اللقاءات مكانا لها فى النشر. وفى واحد من هذه اللقاءات المنشورة فاجأنى سكرتيره فريد شحاتة بالاتصال بى تليفونيا مبلغا إياى بأن الباشا حدد موعدا لى لأمر مهم. وقبل أن أتوجه إليه قرأت ما كتبته فى هذا اللقاء مرات علنى أجد الخطأ الذى يمكن أن يغضب له الدكتور طه حسين ويزوإر، إن تحديده هو للقاء وموعده أمر غير طبيعى. لا ينبئ عنه سوى القلق.

وفى هذا اللقاء أدركت رضاءه. إلا أنه طلب من الأستاذ فريد شحاتة أن يقرأ عليه عبارة وردت فى سياق تقديمى له وهى: "وكان يحدثنى دون أن يلتفت إلىّ، فهكذا تعود طوال السنوات الماضية أن يتحدث إلى اللاشخص.. إلى الجميع. وكأن بحثه عن اليقين فى رحاب الشك يرتبط دائما بنظرته إلى اللاشخص".

إن كلمة "اللاشخص" استوقفته، فقد رأى فيها تجاوز ما كان ينبغى أن يكون. إذ كيف يعقل أن يتكلم الإنسان إلى اللاشخص؟ هل يتكلم مع نفسه فرددت مدافعا عن نفسى: "إننى أردفت وراء كلمة اللاشخص إلى الجميع..". وهنا علق قائلا: "إنكم معشر الصحفيين تتلاعبون بالألفاظ. ويبدو أن ذلك أصبح من مكونات حرفتكم ولعلكم تبغون بذلك لغة جديدة تنتسب إلى الصحافة" وانتهت المقابلة بنصح أفادنى فى الكثير من حياتى العملية بعد ذلك.

وفى عام ١٩٧٠ طلبت كالعادة مقابلة الدكتور طه حسين لإجراء حديث معه وإذ بسكرتيره فريد شحاتة يفاجأنى بما لم أتوقعه قائلا: "الباشا قرر طلب أجر لأحاديثه"! هكذا قال السكرتير بأسلوب مقتضب مما دفعنى إلى القول: هل بلغته أن الحديث لمجلة الإذاعة والتليفزيون وليس لإحدى محطات الإذاعة أو قنوات التليفزيون؟ ورد السكرتير قائلا: "الباشا يعرف ذلك جيدا، كما يعرف أنك أنت الذى ستجرى معه الحديث. . ولا مجال للمناقشة فى هذا القرار"!

بلغت إدارة المجلة وكان يشرف عليها وقتئذٍ الأستاذ منير حافظ وكيل وزارة الإعلام وأحد رجال المخابرات البارزين.. فكان عجبهم أكثر منى. وأصبحت المشكلة التى تواجهنا هى فى تقدير المقابل المادى الذى يقبله طه حسين فى نظير إجراء هذا الحديث. وكيف يتناسب مع قيمة طه حسين الأدبية.. مع حقيقة أن المجلة محكومة بلوائح وقوانين حكومية قد لا تعترف بمقابل للأحاديث الصحفية. وكان الرأى أن أسأل طه حسين بشكل غير مباشر عن الرقم الذى يطلبه حتى نحرر له شيكا. وبالفعل اتصلت فى وقت معين كنت أعرف بأنه هو الذى سيرد على التليفون دون غيره وطلبت مقابلته. فحدد لى موعدا. وبنوع من الاحتياط أعددت بعض الأسئلة فربما يسمح الوقت للإجابة عليها بعد الاتفاق على قيمة المقابل المادى.

وبالفعل ذهبت إليه فى الموعد المحدد، وكم كانت دهشتى حين فاجأنى قائلا: "هل أعددت نفسك لإجراء الحديث"؟ قلت مترددا حيث لم أتوقع ذلك: "نعم". قال: "إذن فلنبدأ"، وبالفعل أجريت مع الدكتور طه حسين أطول حديث صحفى. مما أرهقه كثيرا، حتى أُقنع إدارة المجلة بما يطلبه بعد ذلك من مقابل مادى يليق بهذا الحديث الطويل، حتى إذا انتهى حديثى معه سألته على حياء وخجل عن الرقم الذى يأمر به لنحرر به شيكا، وكم كانت دهشتى حين سألنى: "أى شيك وأى رقم هذا الذى تسأل عنه"؟ فقلت: "الرقم الذى تودون أن نكتبه فى نظير إجراء هذا الحديث"، فقال: "لاشيء" وصمت لحظة، ثم قال: "لا عليك فهذه مداعبات وحيل فريد – يقصد سكرتيره الخاص فريد شحاتة – يبتدعها، حتى يقلل من طلب إجراء الأحاديث معى"، وأضاف: "إن ما يرهقنى هذه الأيام فى الأسئلة التى توجه إلىّ بأنها تكاد تكون واحدة. موضوعها لا يخرج عن النكسة وكيف نواجهها، والصراع مع إسرائيل، ودور الأدب والفكر فى هذا الصراع. لقد ضقت بهذه الأسئلة المعادة المكررة. ولذلك ابتدع فريد هذه الحيلة التى لم تنجح معك، والدليل إصرارك على الحضور وإجراء الحديث".

وقبل أن أقول شيئا، طلب من فريد شحاتة أن يحضر الكتاب الذى كان يقرأه له فى الصباح ليبدأ العمل. وكأنه ينبهنى بطريق غير مباشر بانتهاء الزيارة. فاستأذنت

شاكرا. وبلغت المجلة بما تم. وأنه لا أساس لما قاله فريد شحاتة حول المقابل المادى لإجراء الأحاديث مع طه حسين.

وتتوطد صلتى بالدكتور طه حسين وبيته، حتى أصبحت كما وصفنى صهره الدكتور محمد حسن الزيات فى كتابه "ما بعد الأيام" واحدا من أفراد الأسرة. ويدب الخلاف بين الدكتور طه وسكرتيره الخاص فريد شحاتة، ويكون السبب هو مطالبة فريد بمضاعفة أجره، خاصة وأنه يبذل جهدا مع الدكتور العميد نظرا لظروف شيخوخته، ولا توافق السيدة سوزان قرينة طه حسين على الزيادة. وترى أنها فرصة للتخلص من فريد ومتاعبه، خاصة أنها لا تستسيغ تصرفاته. وينتهى هذا الخلاف بامتناع فريد عن العمل أياما وكأنه يقوم بعملية ضغط غير كريمة على الدكتور طه حتى يقبل شروطه، وأولها زيادة الأجر إلى الضعف متوقعا تنفيذها، ولكن خابت توقعاته حين تولى العمل بدلا منه الدكتور محمد الدسوقى.. وهنا غضب فريد وثار، وبدأ يشيع فى الأوساط الثقافية أنه يقوم بإعداد مذكرات عن عمله مع طه حسين للنشر. وأن هذه المذكرات تحوى أسرار أربعين عاما تنشر لأول مرة، وزيادة فى استقطاب دور النشر أردف قائلا: "إن هذه الأسرار خاصة جدا عن طه حسين وبيئته". وطبيعى أن تتهافت عليه بعض دور النشر العربية خاصة اللبنانية تريد شراءها بأى ثمن.. على حد قوله.

وبدورى اتصلت بفريد شحاتة لمعرفة ما ينوى. فأخبرنى مصمما على نشر ما لم يعرفه أحد عن حياة طه حسين الخاصة، واتفقت معه بعد جهد كبير أن يقتصر النشر على مصر وحدها حتى لا يخرج الأشقاء العرب فى الإساءة إلى عميد أدبهم.

كما وصلت فى إقناع فريد شحاتة إلى نشر هذه المذكرات بمجلة الإذاعة، وكان يرأس تحريرها رجاء النقاش. الذى أبدى من جانبه استعدادا طيبا لنشر هذه المذكرات كطبيعة رجاء المعروفة فى الحماس للعمل الصحفى الناجح، خاصة لو كان يتعلق بقيمة من القيم الثقافية، مع تحفظ واحد ووحيد هو عدم المساس بشخص طه حسين أو أسرته، وأنه – أى رجاء النقاش – ييسر لفريد ما يطلبه من مقابل مادى.

وعلى ضوء ذلك اتفقت مع فريد شحاتة ولم يبق سوى المقابل المادى، حيث

غالى فيه إلى درجة أنه طلب مائة جنيه مقابلا للحلقة الواحدة. ومجموع حلقات المذكرات يصل إلى أكثر من ثلاثين حلقة، أى يصل قيمة ما يتقاضاه بمفرده إلى أكثر من ثلاثة آلاف جنيه. هذا المبلغ عام ١٩٧٠ كان يساوى عشرة أضعافه الآن. وهو أمر تنوء به مجلة حكومية مثل مجلة الإذاعة، والأهم من ذلك أننا لا نعرف النغمة التى يعزف عليها فريد شحاتة فى مذكراته حتى نلتزم بسداد هذا المبلغ قبل التعرف على المذكرات. فقد تكون غير صالحة للنشر فى مصر عامة، ولمجلة حكومية خاصة. عندئذٍ طلبت منه نموذجا لحلقة أو حلقتين، وأن يتواضع فى قيمة الحلقة لتصبح خمسين جنيها بدلا من المائة، ووافق على شرط أن أقرأ ما أريد فى بيته. ومن جانبى وافقت على ما أراد. وقرأت بعضا من هذه المذكرات فى بيت فريد شحاتة. وتظاهرت بالرضا عنها والاستحسان. حتى أقرأ منها أكبر عدد من الصفحات. وكم كانت دهشتى حين اكتشفت أن مسار الحلقات قائم على هدم طه حسين هدما تاما، وتشويه أسرته تشويها مسفًا، وكانت هذه هى المأساة التى لم يشغلنى عنها سوى رحيل الزعيم جمال عبد الناصر، وهى كارثة على الأمة كلها.

وتوالت الأحداث، وتغيرت السياسات، واستبعد رجاء النقاش من رئاسة التحرير، وأصبح نشر هذه المذكرات بمجلة الإذاعة والتليفزيون أمراً مستحيلا، أو على الأقل محفوفا بالمخاطر.

وفى الجانب الآخر أخذ فريد شحاتة يعد المذكرات للنشر بعد أن اتفق مع ناشر عربى يملك دارا صحفية فى لبنان، لينشرها أسبوعيا تمهيدا لجمعها فى كتاب، وأصبح الاتصال بالأستاذ فريد شحاتة مستحيلا بعد اتفاقه مع هذا الناشر العربى. وحتى لا يسبق السيف العزل كما يقولون، رأيت أن أنشر ما أتذكره من هذه المذكرات حيث كنت قد سجلته بعد قراءتى لها فى بيت فريد شحاتة مستفيدا بما كنت أتمتع به وقتئذٍ من ذاكرة صحفية لا بأس بها، ولعلنى وقتها قدرت أننى لو فعلت ذلك فعلى الأقل أجعل فريد يخرس فيما يقول عن طه حسين فى غير مصر. وقبل أن أفعل رأيت أنه من باب اللياقة بل والاحتياط أن أعرض الأمر كله على طه حسين، فإذا وافق كان

النشر، وإذا لم يوافق فقد قمنا برسالتنا. ولكن كيف يتم عرض هذا الأمر المؤسف على الدكتور العميد. والحق أشهد أن الدكتور محمد الدسوقى. الذى كان يعمل سكرتيرا لطه حسين بعد فريد شحاتة قد عاونني معاونة فعالة لا أنساها. حيث كان مقتنعا بحس العالم والمثقف بأن هدم طه حسين على هذا النحو، وفى هذه الظروف التى تمر بها مصر، ليس فى صالحنا.

والتقيت بالدكتور طه حسين وسألته - برفق - إن كان قد سمع بما يشيعه فريد شحاتة من أنه سوف ينشر مذكرات عن العمل معه، فأجابني بأنه بالفعل قد سمع ذلك. وأعيد على عميد الأدب شيئا مخففا مما قرأت بالمذكرات. وعلى الرغم من هذا التخفيف كان كل ما ذكرته له مما كتبه فريد قاسيا، إلا أنه أجابني قائلا: "قبل الإجابة على ما جئت من أجله.. لى أن أذكر.. أنه كان من الأكرم لى، وللقارئ الكريم. وللمجلة التى تقوم بالنشر. ألاّ أجيب على ما يدعيه هذا الشيء الذى اسمه فريد شحاتة. لولا أنه ملأ الدنيا وشغل الناس بأحاديثه، والتى لا أشك أنها وجدت آذانا مصغية حين يزعم بأن لديه مذكرات مثيرة عن عمله معى".

"أقول: كان من الأكرم لنا جميعا عدم الاهتمام، فذلك الحديث عن فريد ومذكراته سوف يسبغ عليه نوعا من الأهمية، ما كانت لمثله، ولكن لعل القارئ الكريم يسمح لى بهذا الحديث قبل أن يأتى الوقت الذى يتعجله فريد ولا أستطيع أن أقول كلمتى الأخيرة عن حقيقة فريد ومذكراته المزعومة".

ويستطرد عميد الأدب العربى فى حديثه عن حقيقة هذا السكرتير، وهو ما نشرناه كاملا بمجلة الإذاعة والتليفزيون فى عددها الصادر فى ١٩٧٢/٤/٢٢ تحت عنوان: "ادعاءات فريد شحاتة وردود عميد الأدب العربى" فى أربع صفحات. تكاد تكون مجللة بالسواد لفداحة الحديث وقسوته إذ بعد النشر قامت الدنيا و لم تقعد، فقد انتقلت المسألة من مجرد أحاديث بين فريد وبعض من يعرف، إلى عمل منشور فى مجلة تدخل كل البيوت، وبالطبع كان لذلك صداه ونتائجه التى أذكر منها:

* احتاج الدكتور محمد حسن الزيات وزير الدولة للإعلام وزوج بنت طه حسين

"أمينة" فى اجتماع مجلس الوزراء الذى كان يرأسه - وقتئذٍ - الدكتور محمد عبد القادر حاتم نائب رئيس الوزراء ووزير الإعلام متسائلا: لمصلحة مَنْ هدم قيمة ثقافية فى تاريخنا مثل طه حسين. بهذا الذى نشر فى مجلة رسمية تابعة لوزارة الإعلام؟

* تهديد الكاتب الكبير المرحوم يوسف السباعى رئيس مجلس إدارة دار الهلال - وهى الدار التى تطبع مجلة الإذاعة - بأنه لن يسمح بطبع هذه المجلة فى مؤسسة، يرأسها إذا ما هى أقدمت على نشر أى شىء يمس طه حسين من قريب أو من بعيد.

* إدانة الجمعية الأدبية برياسة الدكتورة سهير القلماوى للمجلة بأنها تقصد هدم طه حسين فى هذه السن المتأخرة، وأن هذه الجمعية وغيرها من الجمعيات الأدبية والثقافية بمصر سوف تتصدى لهذا العمل غير المسئول من المجلة، وبالطبع طالبت هذه الجمعيات بإيقاف محرر الموضوع - الذى هو كاتب هذه السطور - عن العمل الصحفى نظرا لكذبه واجترائه، ومساءلة رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير الأستاذ سعيد عثمان قانونيا على موافقته نشر هذا الموضوع.

* وصول عشرات الردود من المثقفين والأدباء والنقاد من مصر وخارجها، وكلها تدين هذا العمل غير الأخلاقى من فريد شحاتة. ولا بأس من إلقاء اللوم على محرر الموضوع حيث أجهد نفسه، وأجهد عميد الأدب العربى فى هذه السن، وشغل القارئ بما يردده فريد شحاتة من أكاذيب.

وباختصار أصبح موقف المجلة ورئيس تحريرها وبالطبع المحرر فى خطر، ولم يكن هناك أحد مطمئن خالى البال سوى المحرر الذى هو كاتب هذه السطور مع أنه كان أقرب الجميع إلى الخطر، لأنه لم يدع شيئا ولم يفتعل معركة تنال من مكانة عميد الأدب. بل على العكس كل ما كان يريده منع ما قد ينال من هذه المكانة أو التقليل من قدرها. يضاعف من الهدوء وتلك الثقة لدى محرر الموضوع اطمئنانه إلى موقف الدكتور طه حسين الذى يعرفه جيدا من قراءاته ومن لقاءاته حيث لن يتخلى عنه، ولن يتنكر لما قال، بل إنه سيدافع بشرف عن موقفه إذا تطلب الأمر.. وهذه سمة بارزة فى شخصية طه حسين يعرفها الذين اقتربوا منه وعرفوا مبادئه.

ولعل رئيس تحرير المجلة وقتئذٍ استند إلى اطمئنان المحرر ليقوى من موقفه أمام وزارة الإعلام، والرأى العام. واقترح أن نلتقى معا بالدكتور طه حسين لمعرفة رأيه فيما نشر على لسانه بالمجلة، وبالفعل طلبت لقاء الدكتور طه حسين موضحا أن يكون رئيس تحرير مجلة الإذاعة موجودا فى هذا اللقاء، ولا أنسى حين اتصلت بالدكتور طه حسين لأبلغه ذلك وتحديد الموعد، وكأنه أدرك أننى فى أزمة فقال: أى وقت تختارونه من الخامسة حتى الثامنة مساء اليوم. بلّغ رئيس تحريرك بذلك!

والتقينا مع الدكتور طه حسين، وكم كانت دهشة الحاضرين من تودده إلىّ. وكأنه يريد أن يبلغ الحاضرين عمق معرفته بى، وكان حرصه على شخصى أمرا لم يصدقه حتى رئيس التحرير الأستاذ سعيد عثمان، الذى أراد أن يتأكد منه على طريقته الخاصة، حيث فاجأنى رئيس التحرير بسؤال عن اسمى: هل هو سامح كُريِّم! (بضم الكاف وتشديد الياء)، أم أنه سامح كَرِيم (بفتح الكاف وكسر الياء). ولما أدركت سبب سؤاله الغريب! إذ لا يعقل أن يتعرف فى هذا الوقت على اسم محرر عمل معه أكثر من عام، ويعرفه من كتاباته بهذا الشكل، إلا إذا كان يريد تنبيه طه حسين بوجودى فرددت عليه فى اقتضاب: "بضم الكاف وتشديد الياء". فكرر سؤاله حتى ينبه عميد الأدب بوجودى، وأننى الذى التقيت به وأجريت معه الحديث قائلا: وما وجه الخلاف بين الاسمين؟ فرددت عليه، فى حين كان عميد الأدب صامتا أو لعله كان مندهشا لهذا الحوار الغريب العجيب بين رئيس ومرؤوس. ولكنه من المؤكد أنه كان يدرك ما وراء هذه الأسئلة فى وجوده. وقلت: "لا يفتى ومالك فى المدينة الباشا أقدر منى على الإجابة". فابتسم الدكتور طه حسين وقال: اسمه كُريِّم بضم الكاف وتشديد الياء، وكُريِّم هو تصغير للكريم، وهو اسم الذات الإلهية". فرددت بحماسة الشباب واندفاعه وقلت: "ولكننى أستأذن معالى الباشا فى أن يكون تواضعا وليس تصغيرا" فتمتم بكلمات قائلا: "على أى حال هو اسمك الذى أعرفك به والذى تحمله فوق ظهرك إلى آخر العمر". وكانت هذه الإجابة كافية لأن يسأل الأستاذ سعيد عثمان الدكتور طه حسين عما جاء من أجله أصلا قائلا: "بهذه المناسبة يا معالى الباشا، هل قرأت ما نشرناه بمجلة الإذاعة"؟ فرد على الفور بالإيجاب فسأله رئيس

التحرير: "وهل أنت راض عنه"؟ رد: تمام الرضا لأن المحرر بذل جهدا كبيرا، وكان على مستوى المسئولية. واستأذنا فى الانصراف، وقد تأكدت لنا عظمة طه حسين وإحساسه المرهف بالآخرين. لقد أدرك أننا جميعا فى أزمة، وكان عليه أن يكون خير معين لنا على اجتياز هذه الأزمة. وهكذا كان طه حسين، وكتبت عنه بروح الود الذى لا ترفضه موضوعية المنهج العلمى بعد وفاته. فكان أول عمل تنفيذا لرغبته أن يسجل أحد الدارسين المعارك الفكرية والأدبية التى كان طرفا فيها ليتدارسها الجيل بعد الجيل، وقد فعلت فيما كتبته عن هذه المعارك بكتاب "معارك طه حسين الأدبية والفكرية".

واقترح علىّ فى واحد من أحاديثى معه أن يخصص أحد الدارسين اهتمامه إلى ما كتبه هو وجيله من "إسلاميات" كإضافة للتفكير الإسلامى قائلا: لا يليق أن نجهد أنفسنا أنا وزملائى فى الكتابة عن الإسلام، ولا نجد صدى لدى الأجيال التالية لنا، وقد نفذت هذه الرغبة حين أصدرت مجلدا يضم أجزاء عن إسلاميات: "طه حسين والعقاد وأحمد أمين ومحمد حسين هيكل وتوفيق الحكيم".

وهكذا كانت كتاباتى ومازالت امتدادا لتعاليم طه حسين ودروسه حتى هذه اللحظة كلمسة وفاء لرجل عاش ومات نصيرا لكل فكرة جديدة، متبنيا كل عمل يقوم به واحد من الأجيال التالية، مدركا أن هذه الأجيال ينبغى الأخذ بأيدى أفرادها من أجل اقتحام المستقبل بكل تحدياته.

صفحات هذا الكتاب التى بين يدى القارئ الكريم لا تعدو أن تكون امتدادا لما قلت أو كتبت بعد معرفتى بطه حسين، أقول: امتداد لما كتبت، ولكن امتداد يختلف. ولعلنى بذلك أطمح أن يكون من وراء هذا الامتداد.. إثبات كيف كانت كتابات وممارسات، أعمال ومواقف.. طه حسين فكرا متجددا على مر السنين وتعاقب الأجيال.. أرجو أن أوفق.

سامح كريّم

أولا : طه حسين مؤرخا إسلاميا

ومشروع إعادة كتابة التاريخ الإسلامى

طه حسين.. مؤرخا إسلاميا
ومشروع إعادة كتابة التاريخ الإسلامى

فى لقاء مع الدكتور طه حسين، وجه إليه كاتب هذه الصفحات سؤالا دار حول كتابه "الفتنة الكبرى"، وضمه حديثا طويلا نشر بمجلة الإذاعة والتليفزيون فى ٤ فبراير ١٩٦٧، وكان السؤال: "هل سيتيح للقارئ العربى أن يقرأ الفتنة الكبرى فى جزئها الثالث الذى وعد به، خاصة وأن هذه الفتنة لم تقتصر نتائجها على مقتل خليفتى رسول الله ﷺ، "عثمان" و "على" رضى الله عنهما، ولا على النهاية الحزينة لحفيدى رسول الله "الحسن" مسموما، و"الحسين" شهيدا رضى الله عنهما.

وإنما أصابت المسلمين فى مقتل حين فرقتهم إلى شيع وأحزاب لا تزال آثارها باقية إلى اليوم من انتسابات أبرزها السنة والشيعة؟!

ولم يكتف عميد الأدب العربى بإجابته المختصرة على هذا السؤال: "بأنه يرجو ذلك ويتمناه". ولكن أضاف إلى ذلك قائلا: "وما الذى فعله الجيل التالى مع الذين كتبوا فى الإسلام، واهتموا بالتأريخ له، والتفكير فيه؟ هل قام أحدهم بعملية الرصد الواجبة لما جاء فى إسلاميات العقاد أو هيكل أو أحمد أمين أو الحكيم من آراء وأفكار؟ هل تنبه باحث أو دارس من هذا الجيل بأن ما كتبه السابقون يعتبر إضافة إلى التفكير الإسلامى فى العصر الحديث؟ وما هى مكانة هذه الكتابات الإسلامية التى قمنا بها فى تفكيرنا العربى بوجه عام؟".

ويستطرد عميد الأدب العربى فى تساؤلاته قائلا: "هل ما أنجزناه من الكتابة فى الإسلام كتبت لتبقى هكذا فوق أرفف المكتبة حتى يأتيها مستشرق يخصص الكثير من عنايته لدراستها، والله وحده هو الذى يعلم ما تنطوى عليه هذه الدراسة؟!".

ولم أجد ما أرد به على تساؤلات عميد الأدب العربى سوى القول بأن بعض الأفلام العربية تتناول ما كتبه جيل الرواد عن الإسلام بين حين وآخر.

وهنا رد قائلا: "إن ما يفعلونه لا يتعدى العرض أو التعليق، أو تلخيص ما جاء فى واحد من هذه الكتب التى عنيت بالتأريخ للإسلام، ولكن ما أقصد إليه هو أن تكون هناك دراسات شاملة للكتابات التى قام بها بعض الأدباء والمفكرين المعاصرين، وهل كانت على مستوى يؤهلها لأن تكون إضافة للتفكير فى الإسلام؟!".

ولعل هذا الحديث الذى جرى بين عميد الأدب العربى، وكاتب هذه الصفحات كان سببا مباشرا لاهتمام مكثف "منى" بدراسة ما كتبه فى الإسلام "هو" ونفر من أبناء جيله يتقدمهم الأساتذة: "عباس محمود العقاد" و "الدكتور محمد حسين هيكل" و "أحمد أمين" و "توفيق الحكيم" فى فصول وكتب نشرت فيما بعد بالقاهرة وبيروت.. مع الاعتراف بفضل العميد فى توجيه نظرى إلى جانب مهم من تفكير الرواد، وهو جانب التأريخ للإسلام. وتلك واحدة من مآثر الدكتور طه حسين، وهى توجيه الأجيال التالية إلى نوعيات الدراسات الأدبية والنقديه المطلوبة.

وقبل التعرض لمنهج الدكتور طه حسين فى التأريخ يطل سؤال: وما الذى دعى هؤلاء الأدباء والمفكرين - وهم غير متخصصين فى الدراسات الإسلامية - للكتابة عن الإسلام فى ثلاثينيات هذا القرن بالذات؟

إن لذلك أسبابا منها:

١ - دخول بعض الكتابات الأجنبية عن الإسلام إلى البلاد العربية، ونعنى بهذه الكتابات تلك التى صاحبت حركة الاستشراق العالمية، والتى بدأت فى أوروبا فى أوائل القرن الثامن عشر أو قبل ذلك بقليل.. يوم بدأت أوروبا تراجع معتقداتها، وتتصل بالعالم الخارجى، اتصال استكشاف، بحيث تعيش كل ما كانت تعرفه على الواقع والحقيقة، وكان التراث الإسلامى هدفا من أهداف بحث المستشرقين. وهنا ظهرت بعض الكتابات التى تسيىء إلى الإسلام ونبيه ﷺ، وهذه الكتابات إن سلمت من غرض تشويه الإسلام كهدف، فلابد أن تقع فريسة أخطاء أخرى..

كان من نتيجتها تشويه الإسلام مثل عدم توافر الأمانة العلمية الواجبة، أو عدم الإحاطة بالإسلام دينا ونظاما وعقيدة، أو عدم التمكن من اللغة العربية، فضلا عن التعصب الدينى والقومى.

وعلى الرغم من أن هذه الكتابات مضى عليها زمن طويل. إلا أنها وقعت فى أيدى كتّاب الثلاثينيات من أدباء مفكرين أصبحوا يقرأون باللغات الأجنبية، ولا يجدون فى المؤلفات العربية ما يستطيع الوقوف أمام افتراءات وأباطيل هذه الكتابات الأجنبية.

٢ - خلو الميدان من الكتابات الإسلامية المقنعة لسببين أولهما: عدم وجود مفكرين أفذاذ مثل: جمال الدين الأفغانى أو الإمام محمد عبده أو غيرهما ممن يستطيعون الصمود أمام هذه الهجمة الضارية التى استهدفت الإسلام، والدفاع عنه بالحجة والمنطق، خاصة وأن القائمين على أمر هذه الكتابات المغرضة كانوا فى الأصل مفكرين وسياسيين يخدمون السياسة الغالبة على أممهم".

وثانيهما: انصراف الأدباء والمفكرين بمصر إلى الكتابات السياسية والأدبية. فمن الناحية السياسية أن هذه الفترة بالذات - عشرينيات وثلاثينيات هذا القرن - اجتاحها أزمة شاملة أطاحت بالدستور وفرضت على الناس دكتاتورية الأقليات السياسية، وعطلت الصحف، وضيقت على الحريات. فضلا عما كانت تعانيه البلاد وقتئذٍ من أزمات اقتصادية مما جعل كتّاب هذه الفترة ينصرفون إلى السياسة. أما من الناحية الأدبية فقد انصرف أغلب كتّاب هذه الفترة إلى النقد والأدب وما يدور حولهما من معارك، طلبا لإحياء الآداب العربية أسوة بما حدث للآداب الأوروبية، وهو ما عبر عنه الدكتور طه حسين فى تقديمه لكتاب "فجر الإسلام" للأستاذ أحمد أمين من انصراف أغلب الأدباء والمفكرين عن الكتابة الإسلامية.

٣ - تحدى الحركة المحافظة، تلك التى كانت تعادى كل ما هو جديد فى الفكر - فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر، والسنوات الأولى من القرن العشرين - حين كانت مصر تجتاز مرحلة المخاض العسير لولادة فكر مصرى متميز. وهنا

تمثلت قلة من أبناء مصر الموجة الغربية، وبدأت تعمل على تطوير الحياة المصرية، يدفعها إلى ذلك التحدى لملاقاة هذه الحركة المحافظة التى أسفرت عن وجهها، وهى تجتاز صحوة الموت عن جمود اتسم بالعنف فى مواجهة كتابات وأفكار الإمام محمد عبده فى دفاعه عن الإسلام، ودعوة قاسم أمين لتحرير المرأة، وفى موقفها المتشدد من كتابى: "فى الشعر الجاهلى" للدكتور طه حسين، و"الإسلام وأصول الحكم" للشيخ على عبد الرازق.

٤ – رغبة الأدباء والمفكرين من جيل الرواد فى إيجاد وسيلة لربط حاضر الأمة بماضيها، وفكروا فى ذلك كثيرا، فاتجهوا إلى الفرعونية يلتمسون فيها الامتداد إلى الحاضر، فلما لم يجدوا ذلك ممكنا.. اقتنعوا بأن الإسلام هو الأفضل من ناحية الامتداد إلى الحاضر، ويؤكد هذا الرأى قول الدكتور محمد حسين هيكل فى مقدمة كتاب "حياة محمد": "خُيّل إلىّ كما خُيِّل إلى أصحابى أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية سبيلنا إلى هذا النهوض، ولكن ما فى الغرب غير صالح لأن ننقله. فتاريخنا الروحى غير تاريخ الغرب، وثقافتنا الروحية غير ثقافة الغرب".

إلى أن يقول: "وانقلبت ألتمس فى تاريخنا البعيد فى عهد الفراعنة موئلا لوحى هذا العصر. ينشئ فيه نشأة جديدة فإذا الزمن، وغذا والركود العقلى.. قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد لا يصلح بذرا لنهضة جديدة فرأيت أن تاريخنا الإسلامى هو وحده البذر الذى ينبت ويثمر، ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو..".

٥ – اللياذ بالعقيدة الدينية خوفا من المذاهب المادية التى لم تأت بحلول حاسمه للكثير من مشكلات عالمنا العربى. وفى ذلك يقول الأستاذ العقاد فى مقالة له بمجله روز اليوسف عام ١٩٣٥: "إن السبب العالمى الأكبر لهذه الظاهرة – اللياذ بالعقيدة الدينية – هو فشل الفلسفة المادية فى إقناع العقول وإرضاء النفوس وطمأنة الضمائر بعد اجتياحها العالم زهاء قرن كامل، واعتزاز الناس بها فى غير طائل أو انتظارهم منها التعليلات والتفسيرات التى تعبوا فى البحث عنها والرجوع بها إلى الذين لا يفقهون بما يجيبون، ولا يبيحون للناس أن يفقهوا ما يجهلون".

ويستمر الأستاذ العقاد فى مقاله إلى أن يصل إلى قوله: "يحيط بهذه الأسباب جميعا سبب شامل، ذلك هو الفزع من الشيوعية والاعتصام منها بالعقائد الروحية التى لا تسيغ المذاهب المادية".

٦ - وجود هذا الجيل من الرواد الذى يمثل بعض أفراده معالـــم فكرنا العربى، فقد وجد فى وقت واحد طه حسين والعقاد وهيكل وأحمد أمين وتوفيق الحكيم وغيرهم ممن تشبعوا بالحضارة الغربية، سواء مباشره فى مهدها أو بالاطلاع عليها من خلال الكتب.. ووجودهم فى وقت واحد يسّر للتجربة أكبر قدر من النجاح. وأعنى بالتجربة إعادة كتابة التاريخ الإسلامى وفقا للمناهج العلميه الحديثة.

لهذه الأسباب وغيرها فكر نفر من جيل الرواد، تفكيرا جديا فى إعادة كتابة التاريخ الإسلامى مستخدمين فى ذلك المناهج الحديثه فى البحث. وكانت الخطوة الأولى تقريبا فى هذا المشروع عندما اتفق الدكتور طه حسين مع الأستاذ أحمد أمين والأستاذ عبد الحميد العبادى على كتابة التاريخ الإسلامى منذ فجر الإسلام حتى آخر عصر الدولة الأموية. بحيث يختص كل منهم بجانب من هذا البحث. فاختص طه حسين بالحياة الأدبية فى الإسلام، وأحمد أمين بالحياة العقلية، وعبد الحميد العبادى بالحياة السياسية.

وفى هذه الفترة تقريبا فكر الدكتور محمد حسين هيكل فى الكتابة الإسلامية، كما يشير إلى ذلك فى كتابه" حياة محمد" قائلا: "كان من أثر هذه الحركة التبشيرية وموقفى منها أن دفعنى للتفكير فى مقاومتها بالطريقة المثلى، التى توجب علىّ أن أبحث حياة صاحب الرسالة الإسلامية ومبادئه بحثا علميا، وأن أعرضه على الناس عرضا يشترك فى تقديره الجميع..".

كذلك نرى العقاد يحدثنا عن اللحظة التى بدأ فيها التفكير فى الكتابة الإسلامية، فيسجل فى مقدمة كتابه "عبقرية محمد" فيذكر واقعة حدثت فى أثناء مناقشة قامت بينه وبين عدد من أصدقائه لما كتبه "توماس كارليل" عن النبى ﷺ فى كتابه "الأبطال"، وكيف أن أحدهم تطاول بالحديث على شخص النبى الكريم، فأساء إلى مشاعر الحاضرين مما جعلهم يطردونه من مجلسهم حتى يقول: "ما بالنا نقنع بتمجيد كارليل

للنبى ﷺ. وكارليل كاتب غربى لا يفهمه كما نفهمه، ولا يعرف الإسلام كما نعرفه. ثم سألنى – الحديث للعقاد – بعض الإخوان: ما بالك أنت يافلان لا تضع لقراء العربية كتابا عن محمد ﷺ على النمط الحديث؟ قلت: أفعل وأرجو أن يتم ذلك فى وقت قريب".

كذلك نجد توفيق الحكيم، إذ تبدأ إهتماماته بهذا الجانب حين كان فى باريس، وكان يطلع على العديد من كتب الإسلام بأقلام غير المسلمين. وكانت هذه الكتب مليئة بالهجوم على الإسلام ونبيه. وهنا فكر فى الرد على هذه الكتابات مختارا أكثرها انتشارا وهو كتاب "محمد" لفولتير فكتب بحثا كبيرا فى شكل تمثيلى بمجلة الرسالة بمناسبة ذكرى الهجرة. سرعان ما تحول إلى مسرحية بعنوان: "محمد الرسول البشر" رد بها على افتراءات فولتير بنفس الأسلوب الذى انتهجه فولتير فى الكتابة.

يبقى بعد هذه الإشارة السريعة إلى الدوافع التى جعلت جيل الرواد يهتمون بإعادة كتابة التاريخ الإسلامى. إشارتنا إلى المنهج الذى اتبعه الدكتور طه حسين فى الكتابة الإسلامية. بشكل يمكن اعتباره تأريخا للإسلام. فى جانبه الأدبى الذى كان قد اتفق عليه – من قبل – مع كل من زميليه أحمد أمين وعبد الحميد العبادى، فنسجل أنه منذ البداية نلاحظ أن الدكتور طه حسين لم يحدد منهجه فى تناول المادة الإسلامية. على عادة ما يفعل المؤرخون فى كتاباتهم. ومن هنا أصبح استنباط منهج لهذه الكتابات الإسلامية، سواء من كتاباته أو مما كُتب عنه من دراسات.. عملا واجبا.

كلنا نعرف أن شخصية الدكتور طه حسين قد تميزت بسمتين واضحتين. فهو أديب فنان إلى جانب كونه ناقدا حساسا، ومعنى هذا أن شخصيته تجمع بين فنية الأدب ودقة الأحكام النقدية.

ولما كان التاريخ حسب التعريف القديم الصحيح هو فى مجموعه علم من العلوم أو بالأحرى نوع من النقد والفن. فمن الواضح أن جانبا كبيرا لا يستهان به من إنتاج الدكتور طه حسين الأدبى يدخل فى نطاق التاريخ.

يؤكد ذلك أن ما كتبه الدكتور طه حسين فى شبابه عن الشعر العربى الجاهلى أو

الإسلامى، أو ما كتبه بعد نضوجه وخصصه لأصول الأدب العربى القديم وتطوره، أو ما كتبه عن قضايا التعليم والثقافه فى العالم العربى.. يعتبر فى جوهره نوعا من التاريخ.

حتى ما جادت به قريحته من إبداع فى ذكرياته الحميمة، والتى ضمها كتابه "الأيام" يعتبر نوعا من التاريخ بالرغم من أن إبداعه الفنى فى كتابتها يجعل القارئ ينسى أنه يقرأ صفحات من التاريخ.

والدكتور طه حسين اختار جانب الحياة الأدبية فى الإسلام، وهو الجانب الأثير إلى نفسه. ولكنه بالرغم من ذلك كان مؤرخا حين تناول بالدراسة السيرة النبوية فى كتاب "على هامش السيرة"، وكان مؤرخا فى ترجمته للخلفاء الراشدين الأربعة "أبو بكر وعمر وعثمان وعلى" رضى الله عنهم. وكان مؤرخا حين تناول بالدرس المجتمع الإسلامى بعد الرسول ﷺ فى كل من كتابيه "مرآة الإسلام" و "الوعد الحق".

وإذا توصلنا إلى أن الدكتور طه حسين كان مؤرخا فلا يبقى أمامنا إلا البحث فى تفاصيل أسلوبه فى التأريخ. فهو حين اختار الحياة الأدبية فى الإسلام، فمعنى ذلك أنه يريد أن ينظر إلى المادة الإسلامية نظرة الأديب الفنان الذى تجذبه وتؤثر فيه الصورة الجميلة. ولعل هذا ما أراد قوله صراحة حين قدم الجزء الأول من كتابه "على هامش السيرة "، حيث يقول: "إلى هذا النحو من إحياء الأدب القديم، ومن إحياء ذكر العرب الأولين.. قصدت حين أمليت هذا الكتاب. ولست أريد أن أخدع القراء عن نفسى، ولا عن هذا الكتاب! فإنى لم أفكر فيه تفكيرا، ولا قدرته تقديرا، ولا تعمدت تأليفه وتصنيفه كما يتعمد المؤلفون، إنما دفعت إلى ذلك دفعا، أكرهت عليه إكراها. ورأيتنى أقرأ السيرة، فتمتلئ بها نفسى، ويفيض بها قلبى، وينطق بها لسانى، وإذا أنا أملى هذه الفصول وفصولا أخرى أرجو أن تنشر بعد حين.

فليس فى هذا الكتاب إذًا تكلف ولا تصنع، ولا محاولة للإجادة، ولا اجتناب التعقيد، وإنما هو صورة لسيرة طبيعية صادقة لبعض ما أجد من الشعور حين أقرأ هذه الكتب، التى لا أعدل بها كتبا أخرى مهما تكن، والتى لا أملّ قراءتها والأنس إليها، والتى لا ينقضى حبى لها، وإعجابى بها، وحرصى على أن يقرأها الناس..".

بهذه العبارة تبدو ضمنيا بعض ملامح منهج الدكتور طه حسين فى البحث التاريخى. فمن يقرأه يدرك على الفور أنه أمام أديب مؤرخ. يحس فيتصور مما يحس صورة.. هى من جوهر التاريخ لامن تفصيله، وهى لب ما فى التاريخ الذى نحب أن نتمثله جميعا، ليكون لنا فيه الصورة المشتركة. أما ما بعد ذلك مما تزخر به كتب التاريخ العامة فهو للخاصة. ولمن أراد مزيدا من علم ومزيدا من رأى.

والدكتور طه حسين كفنان مؤرخ لديه مقياس يقف بتاريخ الأدب ودراساته بين العلم والفن. بحيث لا يغرق مؤرخ الأدب فى العلم إغراقا من شأنه أن يصيب بحوثه التاريخية الأدبية بالجفاف، وبحيث لا يغرق فى الفن إغراقا من شأنه أن يفنى الشخصيات فى ذاته وشخصيته. بل هو يتخذ فى تناوله المادة الإسلاميه طريقا وسطا بين العلم والفن، بين التاريخ والأدب طريقا تتفق فيه علوم اللغة، ومناهج البحث الأدبى فى استكشاف حقائق النصوص الأدبية، مع ما ينبغى له من الحس المرهف الرقيق والذوق، بحيث تتجلى شخصيته فيما يطرح من أحكام وآراء، أو فيما يصوّر من مواطن الجمال الفنى فى الآثار الأدبية والتاريخية المختلفة.

وعلى هذا الأساس وضع الدكتور طه حسين لنفسه ولمدرسته الأصول التى تبنى عليها دراساتهم. وهى أصول ترد إلى جانبين:

١ – **جانب علمى** يتصل بفحص المادة التاريخية، وتحقيقها، واستنباط دلالتها مع دقة التفسير والتعليل والتحليل، ومعرفة الظروف التى أحاطت بها، والمؤثرات المختلفة التى أثرت فى منشئيها، وبيان الصلات بينهم وبين محيطهم وبيئاتهم وعصورهم.

٢ – **جانب فنى** يتصل بنقد هذه المادة التاريخية وتصوير شخصيات أصحابها، وما تحدث فى نفس قارئيها من إمتاع ولذة، وهو الجانب الذى يحيل التاريخ إلى عمل أدبى ممتع يلذ العقل والشعور، إذ نرى من خلاله خصائص المؤرخ التسجيلى. فشخصيته كأديب تبدو من خلال كتاباته للتاريخ حين ينفث فيه من روحه ونظرته وفكرته، ويجمّله بأسلوبه، ويلتقط جوانب يطويها سرد المؤرخ التسجيلى.

وإلى جانب فحص المادة التاريخية، ثم نقدها. تبدأ عملية صياغتها من جديد.

وهو حين يقوم بصياغة مادته يستخدم المنهج الاجتماعى، وخاصة إذا كانت هذه المادة التاريخية حول أشخاص.

ونستطيع أن نستدل على هذه الخطوة من المنهج فى عبارة للدكتور طه حسين كتبها فى مقدمة كتابه "قادة الفكر"، حيث قال: "الفرد ظاهرة اجتماعية، وليس من البحث الجاد القيم العلمى فى شىء، أن تجعل الفرد كل شىء، وتمحو الجماعة التى أنشأته وكوّنته محوا، إنما السبيل أن تقدر الجماعة، وأن تقدر الفرد، وأن تجتهد ما استطعت فى تحديد الصلة بينهما، وفى تعيين ما نطلبه من أثر فى الآداب، والآراء الفلسفية، والنظم الاجتماعية والسياسية المختلفة".

* * *

وبهذا المنهج الذى حاولت هذه الصفحات تبينه من كتابات الدكتور طه حسين، ومما كُتب عنه. أرّخ لنا فى الإسلام من خلال أعمال، هى: "على هامش السيرة" فى ثلاثة أجزاء، "الفتنة الكبرى" فى جزءين، "الشيخان"، و"الوعد الحق"، و "مرآة الإسلام".

* * *

ثانيا : أعمال فى ميدان الثقافة

١ - شك طه حسين.. منهج عربى أصيل.

٢ - تصور مستقبل للثقافة فى مصر.

٣ - مجلة الكاتب المصرى وأسرار توقفها.

٤ - تسمية ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

٥ - نواة وزارة الثقافة.

٦ - تنوير طه حسين.

١ - شك طه حسين فى الشعر الجاهلى

منهج عربى أصيل

كلما قرأت اتهاما ظالما، موجها إلى الدكتور طه حسين حيا كان أو ميتا، فإن عجبى لا ينتهى، ومصدر العجب هنا أن هذه الاتهامات لا تقوم على أساس علمى، بما فيه من أدلة وبراهين.. وآخر هذه الاتهامات الظالمة الموجهة إلى الدكتور طه حسين وكتابه الأشهر "فى الشعر الجاهلى" ما قرأته من كتب ومقالات لبعض الأشقاء السعوديين، حيث تتهمه هذه الكتابات حينا بأنه تأثر فى نظريته عن الشعر الجاهلى بمقالة المستشرق الإنجليزى دافيد صمويل مرجليوث، وحينا آخر تستكثر هذه الكتابات على طه حسين تأثره بالشك الديكارتى نسبة إلى الفيلسوف الفرنسى رينيه ديكارت، ويرى الذى تولى كبر هذا الاتهام بأن شك طه حسين فى الشعر الجاهلى لا علاقة له بشك ديكارت، وحينا ثالثا يعمم البعض اتهاماتهم فيقول الواحد منهم إن عمل طه حسين لا يعدو أن يكون مجرد سطو على عدد من المستشرقين فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وطبعا لم يحدد من هم هؤلاء المستشرقين؟!

ولو أن أصحاب هذه الاتهامات أجهدوا أنفسهم فى البحث والتقصى، وقرأوا ملابسات قضية الشعر الجاهلى بعد تطور البحث فيها، لاكتشفوا أن طه حسين برىء من كل هذه الاتهامات، والأكثر والأهم لاكتشفوا أن شك طه حسين فى صحة الشعر الجاهلى منهج عربى إسلامى أصيل سبق منهج مرجليوث (١٨٥٨ - ١٩٤٠) إن كان له منهج، وغيره من المستشرقين الإنجليز أو الألمان كما سبق منهج ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) فى الشك بمئات السنين، حيث كان الأدباء والعلماء والعرب أسبق من ديكارت، بل وكان لهم دور فى تفكير هذا الفيلسوف وغيره من فلاسفة وأدباء عصر النهضة الأوروبية الحديثة.

ولهذا أقول: إن ما يحزن المرء ويؤسفه هو أن ننسب فى حواراتنا الثقافية العربية جهود أجدادنا العرب الأقدمين إلى غيرهم من الأجانب والمستشرقين، سواء كان هذا المرجليوث - الذى يريد البعض أن يصنع منه شيئا مذكورا فى تاريخنا الثقافى، أو حين يتهم بعضنا البعض دون برهان أو دليل، مع أن أبسط مراجعة لتاريخنا الثقافى تدلنا على أن الشك عامة، والشك فى صحة الشعر الجاهلى خاصة، منهج عرفه العرب الأقدمون قبل أن يعرفه الأوروبيون بما فيهم ديكارت نفسه بمئات السنين معرفة علم ودراسة.

فمثلا فى الأدب، الشعر منه خاصة، شك علماؤه ونقاده فى صحة هذا الشعر الجاهلى، وكان أبرز هؤلاء العلماء والنقاد محمد بن سلام الجمحى (١٣٤ - ٢٣١هـ)، وهو ما سجله فى كتابه "طبقات فحول الشعراء" العلامة الراحل محمود محمد شاكر عام ١٩٧٤، فنجده أى ابن سلام.. يقول فى جزئه الأول ص (٤) السطر الأول: "وفى الشعر مصنوع مفتعل، وموضوع كثير لا خير فيه".

وهنا قمة الشك فى الشعر الجاهلى إذ قرر ابن سلام أن فى هذا الشعر الكثير الموضوع المصنوع المفتعل.

كما يقول فى ص (٧، ٨) من الجزء الأول: "وكان ممن أفسد الشعر وهجنه، وعمل كل غثاء فيه: محمد بن إسحق بن يسار. فقبل الناس عنه الأشعار، وكان يعتذر عنها قائلا: لا علم لى بالشعر، آتينا به فأحمله، ولم يكن له عذر، فكتب فى السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود فكتب لهم أشعارا كثيرة".

وهنا يشير ابن سلام إلى واحد زيف الشعر الجاهلى وأفسده، ووضع فيه ما لم يقله أصحابه من الرجال أو ما لم تقله عاد أو ثمود.

ويقول ابن سلام فى ص ٤٦: "فلما راجعت العرب رواية الشعر، وذكر أيامها ومآثرها، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم، وما ذهب من ذكر وقائعهم، وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم، فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار، فقالوا على ألسنة شعرائهم شعرا، ثم كانت الرواة فى الأشعار التى قيلت".

ويقول ابن سلام فى ص ٤٨: "وكان أول من جمع أشعار العرب، وساق أحاديثها

حماد الراوية، وكان غير موثوق به، وكان ينحل شعر الرجل غيره، وينحله غير شعره ويزيد فى الأشعار".

وهنا يضرب ابن سلام مثلا آخر لرواية أخرى لراوٍ غير موثوق به هو حماد الراوية.

ويقول ابن سلام فى ص ٢١٥: "وكان أشعرهم - يقصد شعراء المدينة المنورة - حسان بن ثابت، وهو كثير الشعر جيده، وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد، لما تعاضهت قريش - أى لما أتت قريش بالشتائم واستبّت، وضعوا عليه - أى على حسان بن ثابت - أشعارا كثيرة لا تنقى - أى يصعب تمييز الصحيح فيها عن الزائف المنحول عليه".

ويقول ابن سلام ص ٢٤٤: "وكان أبو طالب شاعرا جيد الكلام، أبرع ما قال (قصيدته) التى مدح فيها النبى ﷺ.. وقد زيد فيها وطولت..".

إلى آخر هذه الأقوال لابن سلام التى تؤكد شكه فى الشعر الجاهلى قبل غيره من أجانب أو مستشرقين بمئات السنين. ويذكر أسباب تزييف الشعر فى كتابه قائلا: "أسباب عديدة لانتحال الشعر والتزيد من الزائف فيه، ومن هذه الأسباب: كذب الرواة للتكسب بالرواية، ومنها وضع الشعر على ألسنة الشعراء الكبار مدحا فى الأجداد، وتملقا لذوى السلطان من المعاصرين طمعا فى نيل عطاياهم. ومنها انتحال القصائد للتفاخر بين القبائل، أو انتحالهم لأسباب دينية، كما رأينا عند حسان بن ثابت وأبو طالب".

ومن هنا نرى اتفاقا مع الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوى فى كتابه "دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلى" - أن طه حسين فى شكه فى صحة الشعر الجاهلى قد تأثر بعلماء الأدب ونقاده العرب، وفى مقدمتهم ابن سلام الجمحى، هؤلاء العلماء والنقاد العرب الذين وضعوا قواعد للنقد الفيلولوجى السليم للشعر الجاهلى قبل ألف عام من ظهور مرجليوث أو غيره.

وعن الشك نفسه فى تناول الروايات والأخبار ما أورده الجاحظ (٧٧٥ - ٨٦٨) فى

واحد من حكاياته وأخباره حيث خاطب القارئ لكتابه "الحيوان" قائلا: "ولم أكتب هذا - يقصد الخبر - لتقربه - أى لتسربه - ولكنها رواية أحببت أن تسمعها، ولا يعجبنى الإقرار بهذا الخبر، وكذلك لا يعجبنى الإنكار له. ولكن ليكن قلبك إلى إنكاره أميل، وبعد هذا فأعرفِ مواضع الشك وحالاتها الموجبة له، لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له، وتعلم أيها القارئ الشك فى المشكوك فيه تعلما، فلو لم يكن فى ذلك إلا تعرف التوقف ثم التثبت، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه".

ومعنى ذلك تنبيه الجاحظ لقارئه أن يشك فيما يعرض عليه من أخبار وروايات قيلت من قبل حتى يصل إلى حالة من اليقين لا يكون بعدها أى شك. أو كما قال الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد فى كتابه: "نحن والعصر مفاهيم ومصطلحات إسلامية" تعليقا على قول الجاحظ:" إن يعنى الشك فى الأمور إلى أن يقوم عليها الدليل".

وفى العلم كان العرب الأقدمون لا يسلمون بصحة ما كتبه السابقون، إلى بعد نظر وفحص وتثبت وتمحيص نتيجة للشك عندهم فيما قاله السابقون. حتى يصلوا إلى حالة من اليقين لا يكون بعدها أى شك، أو كما قال الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد: "حتى يمكن التثبت من الآراء الواردة فيها حتى يستبين صوابها أو بطلانها بالحجة والبرهان".

ومن أوضح ما قيل فى هذا الصدد عن العرب الأقدمين ما عبر عنه الحسن بن الهيثم (٩٦٥ - ١٠٦٩) فى مجال شكوكه فى كتابات بطليموس فى كتاب بعنوان: "الشكوك على بطليموس" لابن الهيثم تحقيق الدكتور عبد الحميد صبره والدكتور نبيل الشهابى، حيث قال: "فالحق مطلوب لذاته، وكل مطلوب لذاته فليس يعنى طالبه غير وجوده، ووجود الحق صعب، والطريق إليه وعر، والحقائق منغمسة فى الشبهات، وحسن الظن بالعلماء فى اتباع جميع الناس، وما عصم الله العلماء من الزلل، ولا حمى علمهم من التقصير والخلل، ولو كان ذلك كذلك، لما اختلف العلماء فى شىء من العلوم، ولا تفرقت آراؤهم فى شىء من حقائق الأمور، فطالب الحق ليس هو الناظر

فى كتب الأقدمين، المسترسل مع طبعه فى حسن الظن بهم، بل طالب الحق هو المتهم لظنه فيهم، المتوقف فيما يفهمه عنهم المتبع الحجة والبرهان، لا قول القائل الذى هو إنسان، المخصوص فى جبلته بضروب الخلل والنقصان" إلى أن يقول: "فإنه إذا سلك هذه الطريقة انكشفت له الحقائق، وظهر ما عساه وقع فى كلام من تقدمه من التقصير والشبه".

ويعلق على ذلك الدكتور ناصر الدين الأسد قائلا: "إن ما قاله ابن الهيثم طبّقه فى كتبه، وطبّقه غيره من علماء العرب، حين لم يكتفوا بقراءة كتب الأقدمين والتسليم بصحة ما فيها وتكراره، وإنما نظروا فيها بعين الفحص والتمحيص، ونقدوها، وردوا على كل ما يحتاج منها إلى رد، وقبلوا منها ما رجحت أو ثبتت عندهم صحته.. وهو بعينه الشك فيما قاله السابقون".

وهكذا نجد الأدباء والعلماء من العرب الأقدمين كانوا أسبق من الأوروبيين، ومنهم المستشرقون فى الشك. ولهذا نقول إن المعين الذى استقى منه طه حسين نظريته فى الشك فى الشعر الجاهلى كان عربيا أصيلا وليس أجنبيا دخيلا، بل إن هؤلاء الأوروبيين بمن فيهم المستشرقون استقوا معلوماتهم من الشك فى الشعر الجاهلى من العرب.

* * *

٢ - تصور مستقبل للثقافة فى مصر

على الرغم من الاتهامات الظالمة التى استهدفت فكر طه حسين، منذ نشر كتاب "فى الشعر الجاهلى"، والتى أثبت تطور البحث العلمى بطلانها، إلا أنه أصبح من المؤكد وجود منهج علمى خاص بطه حسين، على ضوئه يمكن تقييم الآثار الأدبية داخل الجامعة أو خارجها، فى مصر أو فى غيرها من البلاد العربية. والغريب أن أصحاب هذه الأتهامات.. وهم أشد الناس خصومة لطه حسين، هم أكثرهم تأثرا بمنهجه، وكأنهم لا يستطيعون الخروج من عباءته حتى وإن شاءوا تمزيقها، لأنهم يستخدمون فى تقييم أصالته الأدبية نفس منهجه، الذى يدعوك إلى عدم أخذ الأشياء مأخذ التسليم، بل عليك أن تشك لتصل إلى حالة من اليقين لا يكون بعدها أى شك.. حتى يمكن القول بأن طه حسين لو كان حيا وسئل فيما يدور حول فكره من معارك لأجاب بطريقته المعروفة بأنه: "راضٍ عنها كل الرضا، مغتبط لها أشد الاغتباط". وهذه لعمرى أكبر النتائج التى كان يطمح إليها تفكيره. ألا يؤخذ أى إنتاج للفكر البشرى مهما كان مأخذ التسليم. وهكذا آن للبذرة التى غرسها طه حسين فى منتصف الثلاثينيات أن تنبت وتزدهر وتثمر وتنضج.

إلا أن ما حدث مع كتاب "فى الشعر الجاهلى" لطه حسين، نراه يحدث أيضا مع كتابه "مستقبل الثقافة فى مصر" بعد ثلاثة عشر عاما، حيث استخدم البعض معه الأسلوب نفسه "المعرفة بالسماع والنقل بغير عقل"، ووجهت إليه العديد من الاتهامات التى أقلها الاتهام بتغريب مصر وسلخها من عروبتها وعقيدتها.

والمرء يندهش حين يكون الدكتور زكى مبارك رحمه الله فى طليعة الذين تولوا الهجوم على طه حسين وكتابه "مستقبل الثقافة" الصادر فى أواخر عام ١٩٣٨، خاصة وأن زكى مبارك كان من تلاميذ طه حسين النابهين وأصدقائه المعدودين الذين وقفوا

إلى جانبه فى أزمته بعد نشر كتاب "فى الشعر الجاهلى" والذى قال عنه: "طه حسين هذا يزعم فريق أنه ملحد، ويزعم آخر أنه يدعو إلى الفسق والمجون. وأقسم بالله صادقا. ما رأيت من هذا الرجل وقد صاحبته اثنى عشر عاما إلا القلب الطيب والأدب البارع والخلق المتين"..

لكن سرعان ما تزول الدهشة حين نتأمل بعض الأسباب التى منها ما هو خاص بطبيعة كل منهما، فإن كان طه حسين محارب حصنه فى نفسه، فإن زكى مبارك مقاتل رماحه على ظهره.. ومنها ما هو خاص بالتكوين الثقافى لكل منهما، فصحيح أن ثقافتهما واحدة فهى مزاج قوى بين حضارتين متغايرتين الشرقية والغربية وعصارة طيبة لمعهدين مختلفين الأزهر الشريف وجامعة باريس، إلا أن لكل منهما نظرته الخاصة إلى الأشياء. ومنها ما هو خاص بطبيعة الحياة الثقافية فى النصف الأول من هذا القرن وما فيها من مناوشات ومساجلات ومعارك كان القصد منها تحريك الحياة الأدبية. ومنها ما هو خاص بطبيعة البعض من ذوى النفوس الضعيفة التى تلجأ إلى الدس والوقيعة بين الأطراف المتعاونة استنفادا لقواها لتحقيق أغراض ليست شريفة.

ولذلك أصبح المناخ ملائما لتوسيع شقة الخلاف بين الأستاذ وتلميذه لأى سبب. مثلا كان ينشر زكى مبارك كتابه "النثر الفنى" ويضمنه رأيا فى فكر طه حسين يثير حفيظته ليعلق قائلا: "أخرج كاتب من الكتّاب كتابا من الكتب"، فيثير هذا التعليق زكى مبارك لأنه يرى أن طه حسين يريد بذلك أن يطوى اسم الكتاب واسم صاحبه فى زوايا النسيان. ولذلك يرد قائلا: إن الدكتور طه حسين يعلم علم اليقين أن كل نسخة توزع من كتاب النثر الفنى هى سهم مسموم يصوب إلى صدره، وهو لذلك يتجاهل اسم الكتاب واسم صاحبه".

ولعل هذه العبارة التى جاءت على لسان زكى مبارك وسجلها الأستاذ أنور الجندى فى كتابه "المعارك الأدبية" تكشف لنا الكثير من طبيعة العلاقة بين الأديبين الكبيرين ومستقبلها، حيث يقول التلميذ عن أستاذه:

أما طه حسين فما أدرى ما ذنبه حتى يهاجم أعنف هجوم فى النثر الفنى. إن هذا الرجل تربطنى به ألوف الذكريات، يرجع بعضها إلى العهد الذى كنت فيه طالبا

بالجامعة المصرية القديمة، يوم كان يصطنع العدل الذى يلبس ثوب الظلم فى امتحان الطلاب، فقد ساعد مرة على إسقاطى، وأسقطنى مرة ثانية فى امتحان تاريخ الشرق القديم. والسقوط فى الامتحان مما يحفظه الطالب المخلص لأستاذه المنصف. وأدق ما يتصل بيننا من الذكريات ما وقع فى ربيع ١٩٢٦ يوم ظهر كتابه "فى الشعر الجاهلى"، وثارت الأمة والحكومة والبرلمان، وكان أصدقاؤه وزملاؤه بين خائف يترقب وحاسد يتربص. وكنت وحدى صديقه الذى لا يهاب وزميله الذى لا يخون.. لكن حماستى للفكرة التى أدافع عنها وغرام الدكتور طه حسين بنقضها، كان مما حملنى على مقاومته بعنف وقوة حتى يحسب القارئ أننا بيننا عداوة سقيت لأجلها القلم قطرات من السم الزعاف".

يضاف إلى ذلك استبعاد الدكتور زكى مبارك من عمله بكلية الآداب فى وقت كان طه حسين يستطيع منع ذلك. حتى ظن زكى مبارك أن طه حسين وراء استبعاده، ويومها احتد فى هجومه على طه حسين إلى درجة أنه قال: "لو جاع أطفالى لشويت طه حسين وأطعمهم من لحمه".. وهكذا اتخذ الخلاف بين الاثنين مظاهر عدة وصفها بعض النقاد بأنها مسفة من جانب الدكتور زكى مبارك.

وفى هذه الظروف ظهر كتاب "مستقبل الثقافة" للدكتور طه حسين. ونشط البعض من إياهم فى الدس والوقيعة، وزينوا للدكتور زكى مبارك، وقد كان يتسم بطيبة القلب، أن فى الكتاب ما فيه من مخاطر، وأيقظوا فى الرجل نوازع هى أبعد ما تكون عن نفس العالم المدقق والأديب المرهف. فشرع قلمه مهاجما كالعادة بعض ما جاء فى هذا الكتاب دون بحث أو تمحيص يُنتظر ممن فى علمه وأدبه. ومن جملة ما قاله الدكتور زكى مبارك: "إن الكتاب يرجع العقلية المصرية إلى العقلية الأوروبية اليونانية". وفتح عليه النيران من كل حدب وصوب.. ونيران ليته كان بمفرده مشعلها ولكن معه آخرون دخلاء. وقد عنى ذلك فى مقالة بمجلة الرسالة يناير ١٩٣٩ بدأها بأنه يرد هدية طه حسين لكتابه "مستقبل الثقافة" بالهجوم عليه، ثم أنهى هذه المقالة الهجومية بعبارة: "أقول هذا وأنا أشعر بأنى لم أزحزحك تماما عن موقفك. ولكنى موقن بأنى عرضت صدرك لشبهات تستوجب عليك الحذر".

وبالفعل عرض زكى مبارك فكر الدكتور طه حسين وشخصه للعديد من الشبهات حول ما جاء فى كتاب "مستقبل الثقافة". و لم تخفف مقالات الأستاذ ساطع الحصرى الهادئة الموضوعية من لهيب الكلمات الساخنة للدكتور زكى مبارك. الأمر الذى جعل غيره يصنع ما صنع فى الهجوم على طه حسين وكتابه متهمين إياه بتغريب مصر. وفى مقدمة هؤلاء الذين تولوا كبر هذا الهجوم الصريح الدكتور محمد محمد حسين الذى شن هجوما على الكتاب مرجعا محتواه إلى ثلاثة أصول نشرها بكتابه "الاتجاهات الوطنية فى الأدب العربى" هى: قطع ما يربط مصر بقديمها، أى الحضارة العربية الإسلامية، وحملها على الحضارة الغربية دفع مصر إلى طريق ينتهى بها إلى الحكم على أساس مدنى لا دخل للدين فيه، وأخيرا جعل اللغة العربية لغة دينية فحسب. وبالطبع نقل عن الدكتور محمد محمد حسين هذه الأفكار الانتقادية لكتاب "مستقبل الثقافة" عديد من الكتّاب والدارسين دون بحث أو تمحيص أو إمعان للتفكير. وأصبح طه حسين أمام هؤلاء جميعا متهما بتغريب مصر، مع أن النظرة المتأنية لما جاء فى هذا الكتاب تقول غير ذلك. فإلى جانب أنه كتاب تعليمى ممتاز باعتراف الدكتور زكى مبارك، فإنه فى رأى البحث الموضوعى المحايد يقدم نظرية متكاملة للثقافة العربية يبدأها بالتأكيد على الثقة بأنفسنا كعرب، وأن نؤمن بأننا لسنا أقل شأنا من الأوروبيين، وأن نعرف بأنه كان لأجدادنا العرب فضل على بلاد الحضارة الحديثة فى أوروبا. وأننا شركاء فى حضارة البحر الأبيض المتوسط، ويقتضيه ذلك أن يبحث فى كون مصر من الشرق الثقافى أم الغربى الثقافى. فيرى أن الشرق الذى لا تنتسب إليه مصر هو الشرق الأدنى، أى الهند واليابان والصين. وأما الشرق الذى تنتسب إليه هو الشرق القريب أو الأدنى بما فيه من بلدان الأمة العربية. وبالطبع يقصد الشرق الثقافى وليس الشرق الجغرافى، ولذلك فنحن أقرب إليه من عقلية الفرنسى أو اليونانى أكثر من قربنا لعقلية الصينى أو اليابانى، وهذا ما قصد به أننا أكثر تأثرا بحضارة الغرب.

وتراوده آمال كبار منها رعاية الدول لجهود المثقفين الذين يسهمون بنصيب فى التراث الإنسانى، من خلال إنتاجهم الفكرى الذى يعبر عن شخصيتنا العربية المعاصرة، ولا ينسى ماضينا ويستشرف آفاق المستقبل. ومنها أيضا أنه يرى شجرة

الثقافة وقد ثبتت أصولها فى أرض مصر وارتفعت فروعها فى سمائها وامتدت أعضاؤها فى كل وجه، فأظلت ما حول مصر من البلاد العربية وحملت إلى أهلها ثمرات العلم والمعرفة.

ويبقى بعد ذلك سؤال هو: هل الذى يفكر بهذه الصورة يتهم بالشعوبية أو بالتغريب؟ أم أن المسألة أولا وأخيرا هى الرغبة فى الاتهام والهجوم لا أكثر ولا أقل؟!

* * *

٣ - مجلة الكاتب المصرى وأسرار توقفها

فى الكلمة الأخيرة للعدد الأخير، من مجلة الكاتب المصرى، أملى رئيس تحريرها ومنشئها الدكتور طه حسين هذه الكلمة قائلا: "لقد أرجف المرجفون، والذين يسرهم الطعن فى طه حسين، والذين لا يعملون، ويؤذى نفوسهم أن يعمل الناس، وقالوا إن مجلة الكاتب المصرى قد صدرت لنشر الصهيونية، والآن وقد انتهى عمر هذه المجلة، فإن أعدادها بين أيدى القراء، فهم لا يرون فيها إلا دفاعا عن مصر والعروبة، وخدمة لهما بقدر الوسع والطاقة".

وهذه الكلمة القصيرة لعميد الأدب العربى تخفى وراءها الكثير من الأحداث، كما تطرح الكثير أيضا من التساؤلات التى منها: وما السبب الذى جعل هذه المجلة تتوقف؟ ولماذا كثف توقفها الهجوم على طه حسين؟ ولماذا لم يدرس المهاجمون ما نشرته المجلة؟ وقبل ذلك كله كيف أنشئت؟ ولماذا صدرت؟ وما هى أفكارها وأهدافها الحقيقية؟ ومن هم كتّابها؟ وهل كانوا يروجون حقا فى كتاباتهم للصهيونية؟ وأسئلة أخرى تكشف لأول مرة عن الكثير من أسرار إصدار هذه المجلة والهجوم عليها وعلى منشئها طه حسين، وأسباب احتجابها وهى فى كامل تألقها؟

تبدأ قصة هذه المجلة فى غضون عام ١٩٤٥ حين فكر طه حسين فى إصدار مجلة أدبية شهرية رفيعة المستوى. وكانت فى القاهرة - وقتئذ - مجلتان شهريتان يصدرهما لبنانيان: إحداهما "المقتطف" التى أصدرها فى بيروت يعقوب صروف وانتقلت نهائيا إلى القاهرة عام ١٨٨٥، والثانية مجلة "الهلال" التى أصدرها جورجى زيدان عام ١٨٩٢. وقد كانت مسألة تمويل هذه المجلة هى العقبة الكئود التى تواجه طه حسين أو أى مصرى يفكر فى إصدار هذا النوع المتخصص من المجلات. وهنا تولى أصحاب الكاتب - وهى منشأة اقتصادية يملكها أولاد هرارى، وتعنى بشئون الطباعة والأدوات

الكتابية -. حل مشكلة تمويل هذه المجلة التى سميت أيضا بـــ "الكاتب المصرى"، وهؤلاء الممولون كانوا فى الأصل يهودا. و لم يكن فى ذلك الوقت ما يشين أى مصرى أن يتعامل مع هؤلاء الممولين. فقد كان لهم الكثير من المنشآت الاقتصادية الضخمة التى ألغيت وأممت فيما بعد على أرض مصر. وطبيعى أن يوافق طه حسين على هذا التمويل شرط ألا يتدخل الممول فى السياسة التحريرية للمجلة.

والحق أن مسألة تغلغل اليهود فى ماديات الحياة المصرية.. أمر يتطلب الكثير من التأمل والدراسة، خصوصا إذا افترضنا أنه لم يكن خالصا لوجه مصر والعرب. وهو ما لم يتنبه إليه طه حسين أو غيره، إلا بعد الاعتداء على فلسطين عام ١٩٤٨. فقد كانت الأمور تسير سيرا طبيعيا. فمن ذلك الذى يطعن مثلا فى وجود محالهم التجارية مثل: شيكوريل أو نواديهم الرياضية كنادى مكابى، أو مشروعاتهم الإعلانية كشركة الإعلانات الشرقية؟، ومن كان يطعن فى اشتراك أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد فى افتتاح الجامعة العبرية أو بعثة الدارسين المصريين إلى هذه الجامعة لتعلم العربية وعودتهم ليكونوا ضمن هيئة التدريس بالجامعة كالدكتور حسن ظاظا؟ بل من الذى كان يطعن من قبل فى اختيار وزير يهودى ليكون ضمن أحد أعضاء الوزارة فى مصر؟.. فى ظل هذا الوضع الطبيعى وافق طه حسين على تمويل المجلة. وعلى أساس هذا التمويل بدأ العمل فيها، موجها كل جهده إلى تقديم ما ينفع الناس، وما لا يكون إلا مصريا عربيا فى لحمته وسداه. وهو ما تلمح له إشارة فى تقدمته للعدد الأول حيث يقول: "هذه المجلة لا تريــد إلا أن تكــون أداة من أدوات مصر؟"، أو ما تلمحه من حديثه عن خطتها حيث يقول: "وستأخذ هذه المجلة نفسها بقانونين لن تحيد عنهما. أحدهما الشدة على نفسها وعلى كتّابها وقرائها فيما تنشر، وما تنقل فلن تقدم إلا هذا الأدب الذى ينفق صاحبه فى إنتاجه الجهد العنيف. والقانون الثانى هو الحرية الكاملة السمحة فيما تنشره من آثار الشرقيين والغربيين. وما يحقق التعارف والتواصل بين الذين يمثلون هذه الثقافة من رجال الأدب والعمل والفن". وما نستشعره من حديثه عن منهاجها، حيث يقول: "وهى تنظر إلى أمس، وتنظر إلى اليوم، وتنظر كذلك إلى غد. فتنشر ما يحيى الأدب القديم وما يقرب من

الحديث، وستعنى فى الوقت نفسه بهؤلاء الشباب الذين يجربون أنفسهم فتفسح لهم صفحاتها".

وهكذا تصدر المجلة وتتوالى أعدادها ثلاث سنوات، واضعة بين أيدى القراء العرب قيما عظيمة فى الترجمة وأمانتها فى التحقيق ودقته.. فى التأليف وجودته. وتختط لنفسها أسلوبا جديدا فى معاملة كتّابها معاملة كريمة، واحترام قرائها بصورة ملحوظة. ويصبح من جملة أهدافها أن تتحول إلى دار لنشر الكتب. فتتسع النافذة التى يطل منها الأدباء والعلماء والدارسون الشباب. فتترجم عن الفرنسية لاندريه موروا كتاب "وازن الأرواح" يقوم بترجمته الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود. وعن الألمانية كتاب "العقيدة والشريعة فى الإسلام" لجولد تسيهر يترجمه الدكتور محمد يوسف موسى. وتحقق أمهات الكتب العربية فى مقدمتها بخلاء الجاحظ، وتاريخ قضاء الأندلس. وتقدم كتبا مؤلفة منها "قطوف" للشيخ عبد العزيز البشرى، و"لقيطة" لمحمد عبد الحليم عبد الله، و"على باب زويلة" لسعيد العريان. وتعرّف القارئ العربى إلى كتّاب عالميين من الطبقة الأولى فى مقدمتهم: أوسكار وايلد، وأميل لودفيج، ودستوفسكى، وإيفان ترجنيف، وهنرى برجسون، وأندرية جيد، وأولد هكسلى، وانطوان تشيكونف، وفرانسوامورياك، وجان بول سارتر، والبيركامى وغيرهم. وتربط القارئ بشهرياتها التى تتابع أحدث ما وصل إليه التفكير البشرى فى العلم والفن والأدب والسياسة والتشكيل، كما يكون من بين موضوعاتها تنوير العقول. ففى التفكير الاجتماعى: "المعذبون فى الأرض "لطه حسين، وفى الأدب والنقد "اتجاهات معاصرة" للشيخ سيد قطب، وفى الفقه "موسوعة جوستنيان القانونية" لعبد العزيز باشا فهمى.. وموضوعات أخرى تحق لرئيس تحريرها طه حسين أن يقول: "لقد التزمنا بما عاهدنا عليه قراء العربية فوصلناهم بعصورنا العربية الإسلامية الزاهية، وهذا العصر الحديث الذى نعيش فيه".

ويكون من بين كتّابها: محمود تيمور، ومحمد عوض محمد، والشيخ مصطفى عبد الرازق، ومحمد كامل حسين، وسليم حسن، وسهير القلماوى، وطه الحاجرى.

هذه إشارة سريعة لمضمون مجلة الكاتب المصرى، وهى كما نرى لا يدنو منها أى

شك. فما الذى حدث حتى تتهم بالصهيونية؟ مجرد شائعات وأقاويل. نعم شائعات وأقاويل من تلك التى اصطلحنا على تسميتها بالمعرفة السماعية. والتى يطيب لها النيل من طه حسين، مستغلة ذلك المناخ السياسى المضطرب الذى كان فى الثلث الثانى من عام ١٩٤٨ وما فيه من غليان بسبب الاعتداء على فلسطين. وتجد هذه الشائعات والأقاويل سندا لها فى مقال صغير كتبه الكاتب الأستاذ عبد المنعم شميس بمجلة السوادى عنوانه: "الكاتب المصرى بمجلة صهيونية". وعلى الرغم من أن المقال لا يشير إلى مسألة ترويج طه حسين للصهيونية، إلا أن سيل الهجوم قد تركز على طه حسين وحده.

وفى مواجهة للأستاذ شميس – وهو رحمة الله كان مستودعا حيا للكثير من الأسرار الثقافية – أكد أنه لم يكن يقصد اتهام أستاذه طه حسين أو المجلة. لكن كان يريد تنبيه أستاذه لما يقال عن هذه المجلة، فقال: "لم يكن يدور فى خلدى من قريب أو من بعيد أن يكون لأستاذى طه حسين أى علاقة بالصهيونية حتى يروّج لأفكارها. لقد كان كل مقصدى أن أنبهه كأستاذ نحترمه ونقدره ونجله.. إلى ما يقال عن هذه المجلة بسبب التمويل اليهودى. وقد وفقت فى توصيل ما كنت أريد وهو تجنيب طه حسين عن أحد المواطن التى ربما يشتبه فى أمرها. حيث لم يمض على كتابة هذا المقال أيام إلا وقد احتجبت الكاتب".

* * *

٤ - تسمية ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢

على صفحات الأهرام، وفى دفتر الجيب رقم ٤٥، تساءل كبيرنا الراحل الأستاذ توفيق الحكيم منذ عدة سنوات (٨٦/٩/٢٩) قائلا: "عندما قامت ٢٣ يوليو ١٩٥٢.. تلك الحركة التى غيّرت نظام الحكم فى مصر، دار جدال بين الباحثين المنظرين حول وصف وتصنيف هذه الحركة، أهى انقلاب عسكرى أم هى ثورة؟". والحق أن هذه الملاحظة من كبيرنا الحكيم جديرة بالتقدير والتأمل. فقد مضى على هذا الذى حدث فى مصر - وكانت أولى نتائجه أن أصبحت إرادتنا وتسيير أمورنا منا وإلينا - أكثر من خمسين عاما، وكلمة "ثورة" تنطقها ألسنتنا وتجرى بها أقلامنا ولا يعرف الكثيرون من هو صاحب هذه التسمية؟

والحق أن أول من أطلق هذه التسمية بعد شهور من قيام الثورة هو طه حسين، وعلى هذا فلنا أن نتساءل: هل جاءت هذه التسمية من فراغ استجابة لمقتضيات الحال أم كان لصاحبها طه حسين ما يبرر له أن يعلنها؟ بمعنى آخر.. هل كان تاريخ طه حسين قبل الثورة يسمح له بتأييدها وتوصيفها كثورة من الثورات الاجتماعية دون إحراج له أو إحراج لغيره؟

بادئ ذى بدء نقرر أن هذه الإجابة تحتاج إلى دراسات متكاملة.. لكن فى حدود هذه السطور يمكن أن نقول: صحيح أن طه حسين كان من مفكرى ما قبل الثورة. ولكنه مع ذلك ليس ككل المفكرين، فهو لم يكن مجرد رمز لأصحاب الجباه العالية من المثقفين المترفين، وإنما كان رمزا للمثقفين من أبناء الطبقة المتوسطة، وأنه لم يمثّل كرامة الجامعة التى انتسبت إليه، وإنما أيضا مثّل كرامة العلم فى هذه البلاد طولا وعرضا، وأنه لم يمثّل حرية البحث فحسب، وإنما مثّل حرية الجماهير بحقها فى الحياة. وصحيح أن طه حسين كان من باشوات ورجال الحكم قبل الثورة. إلا أنه الباشا

الوحيد الذى علق قبوله للوزارة بشرط تمكينه من أن ينفذ سياسة التعليم ليكون حقا لكل مواطن كحقه فى الماء والهواء. وهو مدرك أن هذا الذى يطلبه من الصعب قبوله من الملك أو من المستعمر. وصحيح أيضا أن طه حسين – ككل – كان يمثل بالنسبة للقائمين بالثورة عهدا بائدا. لكن تأمل مواقفه وقراءة أعماله تذيب الحدود والسدود والقيود بين الطرفين. فمن مواقفه على سبيل المثال ذلك الموقف الذى اتخذه إلى جانب الوطنيين ممن شغلتهم القضية الوطنية فى غضون عامى ١٩٤٦، ١٩٤٧، حيث اجتمعوا فى منزله وكانوا يمثلون يسار الفكر ويمينه إلا أنهم كانوا متفقين على أمر واحد هو القضية الوطنية.. وها هو أحدهم أمين العالم سجّل ما سمعه وما سمعوه من طه حسين ونشره لنقرأه فى مجلة الهلال فى العدد الخاص عن طه حسين.

ترى ماذا قال لهم طه حسين قبل الثورة بخمس أو ست سنوات؟ لقد قال: إنكم تتحدثون كثيرا عن الثورة، وتكتبون عن ضرورة الثورة، ولكنكم لا تعرفون ولا تتقنون فن العمل الثورى. ما أحوجكم إلى دراسة التكتيك الثورى، والاستراتيجية الثورية".. أو أعماله ومنها "المعذبون فى الأرض" الذى نشره عام ١٩٤٩ فى لبنان بعد أن سحبت الحكومة نسخه من المطبعة بمصر، أو كما يقول فى مقدمة الطبعة الثانية: "صدر الأمر بأن يحال بين هذا الكتاب وبين الناس، وبأن تؤخذ نسخه من المطبعة حيث يصنع بها السلطان ما يشاء يحرقها أو يخرقها أو يغرقها.. وصودر فيما صودر من كتب أخرى كانت تريد أن تبصّر المصريين بحقائق أمورهم، وتعظ منهم الطغاة والبغاة، وتعرى فيهم البائسين واليائسين". لكن ماذا تقول صفحات هذا الكتاب الذى عاد إلى مصر متخفيا عن أعين الرقباء وبسببه اتهم صاحبه بتهمة التحريض؟ يستوقفنا منه فصل بعنوان: "مصر المريضة" من جملة ما قال فيه: "كان الحزن على هذا البلد – مصر – الذى كنا نراه خليقا بالسعادة والذى أفنينا شبابنا وكهولتنا وجهودنا وقوانا لنرقى به إلى بعض هذه السعادة.. ثم هنا نحن نرى أولاء الشقاء يصب عليه صبا، والبلاء يأخذه من جميع أقطاره. والحزن على هذا البلد الذى كنا نراه أهلا للحرية والأمن.. ثم ها نحن أولاء ننظر فنراه مغلولا لا يقدر علىأن يتحرك، معقود اللسان لا يقدر أن ينطق، مقفل القلب لا يقدر على أن يشعر بأية كرامة للإنسان،

والحزن بعد ذلك على هذا البلد الذى كنا نراه أهلا للاستقلال.. ثم نحن ننظر فإذا هو يرد على حقه أعنف الرد وأقساه.. والحزن بعد ذلك وذاك لهذا البلد الذى صرفت عنه ضروب الخير فى السياسة والثقافة والاقتصاد.

وهذا البلد منحه الله مع ذلك إقليما معتدلا وأرضا خصبة وسماء صافية ونهرا يفيض بالنعيم.. وإذا العلل والآفات تهبط عليه من سمائه الصافية وتخرج له من أرضه الخصبة وتسعى إليه مع نهره الفياض".

إلى آخر ما قاله فى هذا الكتاب أو غيره من كتب تبلور موقف طه حسين من القضية الوطنية. وهو ما لا يوجد خلافا بينه وبين القائمين بالثورة بعد ذلك. وكيف يكون الخلاف بين أديب ومفكر التزم بدوره الحقيقى؟ فهل هناك من يستطيع تصوير واقع المجتمع أكثر من المفكر أو الأديب؟ هل هناك من يستطيع أن يلهم أبناء المجتمع بما استوحاه من المجتمع أكثر من المفكر أو الأديب؟ هل هناك من يستطيع أن يصور ما هو حاصل فى حياة الناس وما يجب أن يحصل أكثر من الأديب أو المفكر الحقيقى الذى يمثله طه حسين؟.. إن التاريخ يحدثنا عن مفكرين وأدباء غير طه حسين قاموا بمسئولية هذا الدور فى التمهيد للثورات الكبرى، حيث لا يغفل عن حقيقة مؤداها: أنه إذا كان قد قام بالثورات رجالها، فإن الذين أوقدوا نارها هم هؤلاء الأدباء والمفكرون. وعلى سبيل المثال قام "دانتون" و "روبسير" و "ميرابو" بالثورة الاشتراكية فى روسيا بعد أن مهد لهم الطريق "تولستوى" و دوستويفسكى" و "جوجول" و "تشيكوف" و"جوركى". وقام جورج واشنطن" فى أمريكا بالثورة على الاستعمار الإنجليزى بعد أن مهد له طريق النجاح "توم بين" و "فرانكلين".. وطه حسين وعدد قليل من أبناء عصره منهم عباس محمود العقاد ومعه كبيرنا توفيق الحكيم، كانت لهم أدوارهم فى التمهيد للثورة المصرية. وعلى هذا، فليس غريبا والأمر كذلك أن يبارك طه حسين ثورة يوليو بعد قيامها بعشرة أيام فى برقية يرسلها من فرنسا وتنشرها الأهرام بعد ذلك لصديقه الحكيم يقول فيها: "كم كنت أحب أن أكون معك فى مصر، أو أن تكون معى فى أوروبا أثناء هذه الأيام التى تنشر فيها مصر عن تاريخها كتابا وتطوى كتابا.. ولو قدر أن كنت معك لكانت بيننا أحاديث لا تخلو من متعة ونفع، فقد يخيل إلىّ أن

للأدب حقه فى هذه الثورة الرائعة. هيأها قبل أن تكون، وسيصورها بعد أن كانت".. إلى آخر ما جاء فى هذه الرسالة.

ولم يكن عجيبا أن تقدمه صحيفة "مومنتوسيرا" الإيطالية فى مقال بتاريخ ٢٧ سبتمبر ١٩٥٢ أعادت نشره بعد ترجمته بعض الكتابات العربية، وفى مقدمتها كتاب "مع طه حسين" للكاتب السورى الراحل سامى الكيالى. ومن جملة ما جاء فى هذا المقال: "الكاتب الضرير والأب الروحى لمصر الحديثة طه حسين.. باعث الثورة الاجتماعية فى مصر التى كافح من أجلها منذ حداثة سنه.. إذ يذكر بصره يصيح من أعماق سجنه إلى شعبه بالثورة.. وقد استجاب المصريون لصيحته".

ولهذا ولغيره انبرى طه حسن مؤيدا رجال الثورة مسميا ما حدث ليلة ثورة ٢٣ يوليو بأنه ثورة وليس حركة، وذلك فى مقال عنوانه: "روح الثورة" بمجلة التحرير بتاريخ أول ديسمبر ١٩٥٢ وهو ما اعترف به وأكده بخط يده أحد رجال الثورة الدكتور ثروت عكاشة فى مذكراته – التى تم الاطلاع عليها – مرتين فى المقدمة وفى صلب المذكرات. وحين نقرأ مقال طه حسين بمجلة التحرير نجده يستهله قائلا: "لم أفهم إلى الآن لماذا أظهر رئيس الوزراء وقائد الجيش – يقصد اللواء محمد نجيب – فى بعض خطبه كرهه لكلمة ثورة وإيثاره كلمة أخرى يسمى بها ما نحن فيه منذ كانت الأحداث الكبرى التى شهدتها مصر فى أواخر يوليو الماضى.. فليعذرنى الرئيس القائد إذا لم أقبل كلمة النهضة هذه عنوانا لما نحن فيه، وإذا استبقيت كلمة ثورة، لأنها أدق معنى وأصدق دلالة وأجود تصويرا للحياة التى نحياها منذ شهور".

ومن يومها إلى الآن وقد أطلق على الذى حدث فى الثالث والعشرين من يوليو اسم ثورة.. تلك التى نادى بها طه حسين وتداولتها الألسنة وجرت بها الأقلام.

* * *

٥ - نواة وزارة الثقافة

حلم بعيد، وأمل جديد.. أما الحلم فهو الذى راود عميد الأدب بعد أن حققت مصر شيئا من استقلالها بمعاهدة ١٩٣٦.. فقد كانت رعاية الدول لجهود المثقفين الذين يقدمون أعمالا إبداعية تجعلنا نسهم بنصيب فى التراث الإنسانى، وذلك بإنتاج فكرى وأدبى وفنى يعبر عن شخصيتنا المعاصرة، كما يعبر عن ماضينا ويستشرف آفاق مستقبلنا. حتى تأخذ مصر مكانها المشروع بين الثقافات العالمية.. وهكذا كان حلم العميد أن تشمل الدولة برعايتها شجرة الثقافة.

وأما الأمل الجديد فهو الذى يراود المثقفين الآن فى استمرار تجدد رسالة الثقافة.

ولقد أشار عميد الأدب العربى إلى شىء من ذلك فى كتاب "مستقبل الثقافة فى مصر"، حيث كان يرى شجرة الثقافة باسقة، قد ثبتت أصولها فى أرض مصر، وارتفعت فروعها فى سمائها، وامتدت أغصانها فى كل وجه. فأظلت ما حول مصر من البلاد العربية، وحملت إلى أهلها ثمرات حلوة فيها ذكاء للقلوب وغذاء للعقول وقوة للأرواح، وهم يسعون إليها فى هدوء واطمئنان.

ولا يستبعد العميد - وهو ماضٍ - فى تصوراته أن تأخذ مصر بنصيبها، فهى التى انتصرت على الخطوب وثبتت للأحداث وظفرت بحقها فى هدوء وأناة.. من حقها أن تنتصر على نفسها لترد إليها مجدا قديما.

وما كان العميد ليدرى حين أملى كتابه أن القدر كان يمكر به ذلك المكر الجميل، حيث دفعه إلى أن يرسم منهجا جريئا للثقافة.. ليطالبه بعد بضع سنين أن ينفذ ما أملته عليه نفسه التى هامت بحب مصر حين اختير مراقبا عاما للثقافة بوزارة المعارف. وهنا نرجع لرصد تفاصيل هذه الفترة إلى كتاب "ما بعد الأيام" لصهره الدكتور محمد حسن الزيات لنقف على إنجازاته الثقافية التى بدأت حين اختاره محمود فهمى

النقراشى باشا وزير المعارف فى وزارة على ماهر باشا لهذا العمل الجديد الذى رأى فيه فرصة لتحقيق أفكاره فى التعليم والثقافة، سجلها فى كتاب "مستقبل الثقافة فى مصر". فهذا العمل تبنته إدارة الترجمة والنشر، والذى كان يتيح الفرصة لإنشاء أكاديمية مصرية يمكن أن يكون لها دور خطير فى حياتنا الثقافية، وتتبعه إدارات الآثار المصرية والرومانية والقبطية الإسلامية. وعلينا واجب تمصير ما يشغله الأجانب من مناصبها، وتنشيط العمل الذى تقوم به لإلقاء مزيد من الضوء على حضارتنا ودورها فى مسيرة الحضارة الإنسانية. وهناك أيضا شئون المسرح والموسيقى والأوبرا فى المراقبة.

وتتحول المراقبة العامة للثقافة بوزارة المعارف التى يديرها العميد إلى خلية عمل. فهذه إدارة الترجمة والنشر يعرض مديرها محمد بدران قائمة بالكتب الأجنبية التى اختارتها إدارته ويوافقه العميد، وهذا مدير مصلحة الآثار المصرية "المسيو اتيين دريوتون" يعرض ما لديه على العميد الذى يقول له: "أحب أن تدرس المصلحة إنشاء قسمين جديدين الأول للنشر والاتصال، والثانى يختص بالحفائر". وينبهه إلى أن هناك من المصريين من سيحل محله بعد الحرب. وهذا مدير إدارة الآثار العربية "المسيوجاستون فييت" يعرض على العميد ما لديه فيستمع إليه، ثم يقول له: "إن الناس يا مسيو فييت تظن أن دار الآثار الوحيدة الموجودة بمصر هى الانتكخانة، أى الآثار المصرية. والواقع أن لدينا فى القاهرة أكبر دار للآثار الإسلامية فى العالم"، ثم يسأله: "أحب أن أعرف رأيك فى شأن إعداد مسئولين مصريين للإدارة مستقبلا؟".

ثم يستدعى الدكتور محمد حسن الزيات الذى عمل معه بالجامعة والوزارة ويقول له: "كنت تحدثت مع الوزير عن إنشاء أكاديمية مصرية. عليك أولا بجمع البيانات لكل الجمعيات العلمية والأدبية التى تعينها الوزارة ونشاطها فى السنوات الثلاث الأخيرة. وعليك ثانيا أن تعد بحثا عن الأكاديميات فى فرنسا وروسيا وإنجلترا وألمانيا. وعندما تتجمع لديك هذه المعلومات، فعليك أن تبحث فى إمكان إنشاء الأكاديمية المصرية وتوضح تصورك حسبما تحدثنا عنه فيما مضى. إن فى التاريخ الإسلامى مؤسسات ثقافية مماثلة سبق العرب بها العالم الحديث مثل بيت الحكمة فى عصر المأمون". وهكذا كانت تعمل الإدارات المتفرعة من مراقبة الثقافة وكأنها وزارة للثقافة، وهكذا أيضا

كان يديرها - راضيا - العميد، على الرغم مما يعانيه من نظرة الوزارة نفسها إلى شئون الثقافة. فهى فى الأصل وزارة للتعليم هدفها أن تعد المتعلم لكى يحشد ذهنه بالمعلومات، فى حين المراقبة هدفها أن ترعى المثقف وتعينه إلى الارتقاء بذوقه ومداركه بشكل يكون له أثر فى إحداث تغيير جوهرى فى المحيط الذى يعيشه، فالهدفان مختلفان. ومن ههنا كانت نظرة الوزارة وهو ما لم يرض العميد، الأمر الذى جعله يطلب الإعفاء من النقراشى باشا مرارا. وقبل أن يبت الأخير فى طلب العميد ترك الوزارة ليخلفه الدكتور محمد حسين هيكل الأخ والصديق للعميد، فلا يجد مفرا من الاستمرار. وحتى بعد أن ترك الدكتور هيكل المعارف وخلفه أحمد نجيب الهلالى وزيرا يطلب منه الاستمرار ويضيف إلى عبئه منصبا آخر، هو المستشار الفنى لوزارة المعارف حتى تتيسر له بعض الأمور. وبالطبع يستطيع أن يحقق جانبا آخر بعد أن أصبح هو - أى العميد - وزيرا للمعارف حتى ٢٦ يناير عام ١٩٥٢ قبل الثورة.

وفى السنوات الأولى بعد قيام الثورة، ظل الاهتمام بالثقافة شاحبا. وأكثر ما يكون هو اعتبارها مراقبة من المراقبات الثانوية التابعة لوزارة المعارف التى أصبحت وزارة للتربية والتعليم. وكان العمل الثقافى فى ظل هذه التبعية عملا متقطعا غير متصل أو منتظم خاضعا لاعتبارات كثيرة تعوق تقدمه، إلى أن صدر قانون بإنشاء المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية عام ١٩٥٦ فى شكل هيئة مستقلة تابعة لرئاسة مجلس الوزراء فظهر أول اهتمام حقيقى من الدولة بالثقافة، وبقيت الإدارة العامة للثقافة تابعة للتربية على حالها، فلم تقدم سوى مشروع الألف كتاب الذى صدر عام ١٩٥٧.

وفى فبراير ١٩٥٨ ظهر اهتمام جديد من الدولة بالثقافة حين أضافتها إلى الإرشاد القومى. فأنشأت وزارة الثقافة والإرشاد القومى التى تولاها الكاتب الراحل الأستاذ فتحى رضوان، الذى اهتم - رغم اضطلاعه فى المقام الأول بالمهمة الإعلامية الكبرى - بالشئون الثقافية، فأنشأ مصلحة للفنون تضم المسرح والسينما والفنون التشكيلية، وإدارة للثقافة والنشر، ومركزا للفنون الشعبية ومحطة إذاعية للمثقفين هى البرنامج الثانى، ولكنه ترك الوزارة بعد ثمانية أشهر.

ووضح الاهتمام الحقيقى من الدولة بالثقافة، حيث اختارت حكومة الثورة واحدا من رجال الصف الأول للثورة هو الدكتور ثروت عكاشه، ليقوم بمهمة صياغة العقل المصرى من جديد. وكان ذلك حين أسندت إليه مسئولية وزارة الثقافة والإرشاد فى نوفمبر ١٩٥٨، وبالطبع انصرف كل اهتمامه إلى الثقافة كعمل تجنى ثمراته الأجيال. وأما مسئولية الإرشاد القومى فقد أعفى نفسه منها لتتولاها رئاسة الوزارة. وإذا كان قد قبل الثقافة والإرشاد فى عام ١٩٥٨، فإنه أصر على أن تكون الثقافة مستقلة حين تولاها فى عام ١٩٦٦ - ١٩٧٠.

وبدأت وزارة الثقافة بمعناها الحقيقى عملها فى نوفمبر ١٩٥٨ متحملة عبء الإنشاء والإنتاج معا، وتحددت قيمتها بمدى مساهمتها فى تغيير حركة المجتمع والرد على تحديات العصر، ودفع الأحداث فى اتجاه تحقيق مهمة خلق التلاحم الفكرى والوجدانى بين أصحاب العطاء من المثقفين و أصحاب الحق من أبناء الشعب. وكان عليها أن تحقق مهمة صياغة العقل المصرى. عليها أيضا أن تستفيد من جهود المثقفين فى إدارة مرافقها والربط بين الدولة وهؤلاء المثقفين، حتى يتهيأ المناخ المناسب لإنتاجهم. كانت الثورة لها رؤية حيث ترى أن للقلم رسالة فى شحذ وجدان الأمة لا تقل عن رسالة المدفع فى حماية حدود الأمة. باختصار لابد أن يكون للمثقفين دور قيادى - من خلال وزارتهم - فى معركة التغيير والبناء. وإذا ما وضعت هذه المفاهيم موضع التنفيذ كان على الدكتور ثروت أن يبدأ مع الثقافة باستطلاع موسع لآراء المثقفين، حيث يلتقى بممثلى كل قطاع ثقافى فى مؤتمر، بعده تتضح الرؤية وتظهر قسمات صورة العمل الثقافى الذى يراه هؤلاء المثقفون حتى لا يفاجئوا بالقرارات الفوقية.

كان الرأى أن تكون للكتاب سياسة هى ببساطة خدمة المستويات المختلفة من القراء، فأنشئت مؤسسة التأليف والنشر التى تغيرت فى مرحلة لاحقة إلى دار الكتاب العربى.

كان الرأى أن يضاعف الاهتمام بالمسرح والموسيقى، فأنشئت مؤسسة له داخلها الفرقة القومية للفنون الشعبية ودار الأوبرا..

كان الرأى فى أن يتفرغ الفنانون لإبداعاتهم بعيدا عن وظائفهم فاستحدث مشروع التفرغ.. كان الرأى فى الاهتمام بالسينما فنا وفكرا مؤسسة السينما..

كان الرأى بتثقيف أبناء الريف فأنشئت قصور الثقافة الجماهيرية..

كان الرأى فى الاهتمام بآثارنا وإنقاذها والاهتمام بتقديمها فى مشروع الصوت والضوء..

كان الرأى بتقديم عناصر فنية فأنشئت أكاديمية الفنون لتقدم على مدى ٢٥ عاما كوادر فنية لها وجودها فى حياتنا.. وكان الاهتمام أيضا بثقافة الابن الجديد فأنشئ مركز لثقافته.

وإنجازات ثقافة أخرى ماثلة أمامنا تحمل معنى جليلا هو تعاون المثقفين بالمسئول عن الثقافة، وعلى هذا الأساس الذى شاده الدكتور ثروت عكاشة قامت جهود مشكورة لمن جاء بعده، وإن اختلفت السياسات.

ثم ماذا بعد أن تحقق حلم طه حسين فى وزارة تعنى بشئون المثقفين؟ ماذا ينتظر من المثقفين لاستمرار رسالة ثقافتنا؟.. أتصور أن يكون ذلك باقتران حلو الكلام وبليغه إلى جدية العمل وجديده.. أن يضع كبارنا من المفكرين ووزراء الثقافة السابقين خبرتهم أمام الدولة، وأن تمدنا الخبرات الثقافية المصرية خارج الحدود بكل التجارب العالمية، وأن يجتمع ممثلو كل قطاع ثقافى على كلمة سواء فيها خير لنا، وأن يضاعف أصحاب العطاء الثقافى الحقيقى من الأجيال المختلفة إنتاجهم وآراءهم، وأن تتضافر الجهود والأجهزة الثقافية مع الأخرى الإعلامية والتنظيمات السياسية وفق هدف واحد هو صالح مصر.

* * *

٦ - تنوير طه حسين

فى كثير من الأحيان يثور سؤال قد يكون له هدف إيجابى أو آخر سلبى وهو: ما الذى أداه طه حسين لتنوير عقول أبناء أمته؟ وللإجابة على هذا السؤال يحسن الحديث هنا عن التنوير.. معناه ورجاله عندنا أو فى الثقافة العالمية لننتهى إلى الإشارة إلى ما قام به طه حسين خاصة من تنوير للعقل العربى.

التنوير فى معناه العام حركة تعتد بالعقل، وتعتمد عليه، وتقرر أن وعى الإنسان هو العامل الحاسم، والشرط الأساسى فى تقدم وازدهار مجتمعه، وأن ما يحدث للمجتمع من أضرار وشرور هى نتيجة منطقية للجهل بفهم الطبيعة الإنسانية.

والإنسان الذى توصف أعماله بأنها تنويرية، هو الذى يستخدم عقله دون أى مؤثر خارجى. أو بغير مرشد له فى العمل الذى يقوم به، حيث إن الفكرة تنبع منه وهو مسئول عنها، هذا الإنسان صاحب العمل التنويرى لابد وأن يكون قد حرر نفسه - مسبقا - وطهرها تماما من العجز عن التفكير المتميز الجسور الذى يستطيع أن يواجه ما قد يكون من تحديات فى مجتمعه.

وعلى هذا الأساس يمكن أن يكون بعض الإنجازات الناتجة عن إعمال العقل دون مؤثر عند طه حسين. أعمالا تنويرية. التزم فيها بمسئولية التنوير العقلى والوجدانى للجماهير، وزرع ومارس بكثير من التضحيات الباسلة "قيما ومبادئ وأفكارا جديدة وجريئة. هدفها سيادة الإنسان على أرضه ومصيره ومستقبله".

لكن هذه الحركة التنويرية عند طه حسين لم تكن نبتا بغير جذور. بل كانت لها امتدادات فى ثقافتنا.. شأنها شأن أى حركة تقوم فى أى بيئة أو أى عصر، فلقد بدأت هذه الحركة فى أعمال الجيل الذى سبق طه حسين.. عند رفاعة الطهطاوى وأستاذه حسن العطار، ثم الإمام محمد عبده وأستاذه السيد جمال الدين الأفغانى، ثم تلاميذ

الإمام محمد عبده ابتداء من سعد زغلول ممثلا لهذه الحركة فى المجال السياسى، وقاسم أمين ممثلا لها فى المجال الاجتماعى، ومصطفى عبد الرازق فى الجانب الفلسفى، ومصطفى المراغى فى الجانب الدينى.. وغيرهم ممن صيغت أعمالهم بأنها رد فعل للتحديات الموجودة فى زمانهم.

والحق أن حركة التنوير عندنا لم تولد هكذا فجأة فى جيل الطهطاوى أو محمد عبده أو طه حسين أو غير هؤلاء الرواد الكبار.

ولكنها بدأت فى أوروبا فى القرن الثامن عشر على أيدى عدد من المفكرين منهم: فولتير وروسو وديدرو ولينسج وكانط. حتى أصبح للتنوير بعد ذلك شعار نادى به الفيلسوف كانط فى عبارة موجزة هى: "تشجع وفكر بنفسك"، كما عبر عنه تعبيرا فلسفيا فقال: "التنوير هو تحرير الإنسان من عجزه عن إعمال العقل بغير مرشد خارجى. وأن هذا العجز مردود إلى فقدان الشجاعة والتصميم على إعمال العقل بغير موجه". ولذلك كان التنويريون شديدى الثقة فى إمكان تخطيط المجتمع تخطيطا يقوم على العلم الذى هو طريق إلى العقل، ولذلك أيضا احتدم بينهم وبين أنصار القديم جدل فكرى عال وتراشق ساخن بالمقالات والكتب. حتى أطلقوا فى إنجلترا على تلك الظاهرة اسم "معركة الكتب". وكان على مفكرينا أن يسايروا هذه الحركة التنويرية رغبة منهم فى مسايرة روح العصر الذى عاشوا فيه.

لكن للحق أيضا نقول إن هذا التنوير الذى عرفته أوروبا فى العصر الحديث عرفه العرب الأقدمون، ولو بصورة خام أو جنينية منذ عدد من القرون، وهو ما نلمحه كمعنى وشعار رسمه أبو العلاء المعرى لمدرسة فكرية كاملة فى شعره. حيث يقول:

يرتجـــى الناس أن يقوم إمـــام ناطق فى الكتيبة الخرساء

كذب الظن لا إمام سوى العقل مجيبا فى صبحه والمســـاء

إذن.. فالتنوير الذى عرفه العرب الأقدمون، وعرفته أوروبا فى العصر الحديث، وعرفه طه حسين وجيله.. هو الذى جعل العقل حاكما وإماما لنا فى تسيير أمور حياتنا متوسلين بالعلم كمنهج وبالتفكير كأسلوب.

وبناءً على ذلك كان تنوير طه حسين مبنيا على العلم، فالعلم عنده طريق العقل ليس لبلوغ الحقيقة وحدها.. ولكن لتنظيم حياة الإنسان داخل المجتمع الذى يعيش فيه. كما يبنى التفكير الجاد المقتحم الذى يبغى الإصلاح، ولذلك أيضا كانت روح التنوير عند طه حسين شديدة العداء للجهل والتفكير اللاعقلى والخرافة والشعوذة وغيرها من مظاهر التخلف.

فلإيمان طه حسين بالعلم جعله جسورا على أن يواجه شتى التحديات فى مجتمعه بمناهج جديدة اصطدمت بما كان موجودا من قبل، فنتج عن ذلك الكثيرمن المعارك التى استهدف فيها للهجوم.

لقد أراد طه حسين تنوير العقل العربى، حيث أراد أن ينشئ شرعة جدية للأدب والفكر، وأن يبتدع منهجا جديدا لتقييم التراث العربى. ولعله بذلك زعزع بعض المسلمات التقليدية الخاصة بالشعر الجاهلى، فكشف ما فيه من انتحال، وما لهذا الانتحال من دوافع وأسباب، وأن يضع فى الأدب العربى الأساس العلمى لما يسمى بالنقد الفيلولوجى، وأن ينشر التراث اليونانى، حيث اكتشف أن اقتران عصر النضج فى أوروبا الحديثة كان مرتبطا بالثقافة اليونانية القديمة، وكان حلقة حاسمة فى تطورها، وأن ينقل عيون الأدب الغربى الحديث فى المسرح والرواية والشعر، وأن يعيد كتابة التاريخ الإسلامى مع نفر من جيله حتى يتيح للقارئ المعاصر معرفة تاريخ أمته الإسلامية فى أجلّ صورة ومعنًى حتى لا ينخدع بهذه الكتابات الضارة الوافدة من خارج الحدود والتى تستهدف ضرب الأمة فى دينها وعقيدتها، وأن يحيى لدى الشباب قراءة الأدب العربى القديم حتى لا ينفصلوا عن تراثهم المجيد، وألا ينعزل هذا التراث عن الاشتباك مع الثقافات القديمة كاليونانية والرومانية أو الحديثة كالأوروبية إيمانا منه بعظمة هذا التراث على المواجهة، وقبل ذلك جميعه أراد أن يتيح لأبناء أمته التعليم مجانا، فيكون حقهم فيه كحقهم فى الماء والهواء.

وقد كان لطه حسين ما أراد. والسبب هو إيمانه بالعلم الذى هو طريق العقل، ذلك العقل الذى يستطيع أن يفكر بجسارة وشجاعة، وهو ما يقال عنه بأنه التنوير بأجلى معانيه ودلالته.. هذا التنوير جعله يقوم بكل ما من شأنه يكون تقدم الأمة وتطورها.

* * *

ثالثا : إنجازات فى مجال التعليم

١ - المجانية أول قرار لوزير الماء والهواء.

٢ - فى البدء كانت كرامة الجامعة.

٣ - جامعة باسم طه حسين اعترافا بفضله.

١ - المجانية أول قرار لوزير الماء والهواء

فى حديث للدكتور طه لكاتب هذه السطور، بتاريخ ٤ فبراير ١٩٦٧ بمجلة الإذاعة والتليفزيون قال: "عندما توليت وزارة المعارف، وناديت بأن التعليم حق لكل مواطن فى مصر كحقه فى الماء والهواء، لقى هذا الأمر كرها من البعض، وسخرية من البعض الآخر.. والاثنان اتفقا على تسميتى بوزير الماء والهواء نسبة إلى ما ناديت به فى بداية عهدى بالوزارة، و لم أضق بما اتفق عليه القوم.. بل اعتبرته نوعا من تأكيد ما ناديت به.."!

والحق أن اهتمام الدكتور طه حسين بالتعليم وعمله على أن يكون حقا لكل مصرى مثل حقه فى الماء والهواء.. لم يكن وليد الفترة التى تولى فيها مسئولية وزارة المعارف، وإنما نشأ عنده هذا الاهتمام قبل ذلك بكثير.. ربما فى عشرينيات هذا القرن إن لم يكن قبل ذلك.. أيام أن كان طالبا للعلم بالأزهر الشريف والجامعة المصرية القديمة، فكم راودته هذه الفكرة وألحت عليه مرارا وتكرارا.

ولعل هذا المعنى يتضح فى قوله بكتاب "جنة الحيوان": "اللهم أشهد أنى ما ذهبت قط إلى الجامعة أو إلى وزارة المعارف إلا وكانت هذه القصة ملء قلبى، وإلا ذكرت أنى كنت سعيدا حين تعلمت على حساب الدولة، فمن الحق علىّ أن أتيح بعض هذه السعادة لأكبر عدد من أبناء مصر، ولو استطعت لأتحتها لهم جميعا". وتنمو هذه الفكرة وتكبر حتى تصبح هدفا نصب عينيه واجب التنفيذ، خاصة إذا وقر فى قلبه أنه للنفع العام، وإلا فما معنى أن يصدر كتابه "نظام الاثنين" بهذه الكلمات: " لم أتعلم لأنتفع وحدى"..؟!

ولا شك أن طه حسين كان يعنى ما يقول، فالتعليم فى نظره ليس خلاصا من الجهل فحسب، وإنما هو أيضا وسيلة للاستقلال والحرية، فإذا أردنا الوعى فلا سبيل لنا إلا

التعليم، وإذا أردنا الاستقلال فلا طريق لنا غير التعليم، وإذا أردنا الحرية والديمقراطية فليست هناك وسيلة أخرى لنا غير التعليم، وهل هناك شعب يدرك ما يدور حوله ويتحرر من أغلال الاستعباد داخليا وخارجيا وهو شعب جاهل؟! ثم هل هناك شعب يريد التطور والتقدم ويبنى دولة حديثة إلا على أساس من التعليم؟! ولعله نبه إلى شيء من ذلك فى كتابه "مستقبل الثقافة فى مصر"، حيث قال: "كى ننشئ لمصر الحديثة أجيالا من الشباب كراما أعزاء لا يتعرضون لمثل ما تعرض له بعض أجيالنا السابقة من الذلة والهوان.. سبيل ذلك واحدة لا ثانية بناء التعليم على أساس متين"، أو حين يقول فى هذا الكتاب نفسه: "أول وسيلة من وسائل الكسب التى يجب على الديمقراطية أن تضعها فى أيدى الأفراد، إنما هو التعليم الذى يمكّن الفرد من أن يعرف نفسه، وبيئته الطبيعية والوطنية والإنسانية، وأن يتزود من هذه المعرفة، وأن يلائم بين حاجته وطاقته وما يحيط به من البيئات والظروف. وقد لا يكون ميسورا أن يطلب إلى الديمقراطية منح الأفراد كل ما يحتاجون إليه، لكن الشيء الذى لا شك فيه أن الديمقراطية ملزمة بأن تمنح الأفراد حظا يسيرا من هذه الوسيلة".

ولعله يتجاوز ذلك إلى أبعد منه.. إلى الحياة نفسها حيث يقول: "لن تستطيع الديمقراطية أن تكفل للناس حياة ولا حرية ولا سلما.. إلا إذا كفلت لهم تعليما يتيح لهم الحياة، ويبيح الحرية، ويمكنهم من السلم".

ولا عجب على هذه الأقوال من طه حسين الذى حقق كل أمانيه عن طريق واحد هو التعليم.. فمن الذى كان يتصور أن هذا الصبى الكفيف القابع هناك فى إحدى قرى صعيد مصر يمكن أن يصل إلى ما وصل إليه بوسيلة أخرى غير التعليم؟!

فهو يترك القرية إلى القاهرة، وينتقل من الكُتّاب إلى الأزهر الشريف، وعندما تقف دونه الأقدار ولا يحصل على عالمية الأزهر التى جاء من أجلها.. يجد نفسه وقد حصل على رسالة الدكتوراه لتكون أول رسالة علمية تمنحها الجامعة المصرية القديمة، بعدها يسافر إلى فرنسا لتمنحه جامعة السربون ليسانس الآداب ثم دكتوراه الفلسفة الاجتماعية.. كل هذا لم يتحقق إلا بوسيلة واحدة هى إصراره على التعليم.

ويحقق له التعليم بعد ذلك الكثير من الأمانى العزيزة المنال لمن كان فى مثل حالته ليعود إلى بلاده وفى يده عدد من الشهادات العلمية، وإلى جانبها قدرة فذة على التوجيه والنقد، ونفس ثائرة تدفعه دوما إلى ارتياد كل جديد، ومواجهة كل تحد، ومنهج جديد كان له دوىّ هائل فى تقويم الأعمال الأدبية والفكرية قديمها وحديثها. وعن طريق التعليم يصل فى الحياة العلمية إلى أعلى مستوياتها كمدير للجامعة، وفى الحياة العامة إلى أكبر مناصبها كوزير للمعارف، وفى الحياة الفكرية إلى أسماها وأعظمها حين يصبح مفكرا اجتماعيا يجد بجانبه تلك التى قال عنها فى رائعته "الأيام" أنها بدّلته من البؤس نعيما، ومن اليأس أملا، ومن الفقر غنى، ومن الشقاء سعادة وصفوا. كل هذا وغيره تحقق له عن طريق التعليم الذى يريد أن ييسره لكل أبناء مصر لو استطاع.

وتمر الأيام والسنون، حتى إذا كان يوم الثالث عشر من يناير عام ١٩٥٠ الذى يتولى فيه طه حسين أمور وزارة المعارف العمومية.. يتحول الخيال عنده إلى حقيقة، والنظرية إلى تطبيق، والفكرة إلى تنفيذ.

نعم الفكرة التى طالما راودته وألحت عليه، ومؤداها أن يكون التعليم حقا لكل مصرى كحقه فى الماء والهواء.. ها هى تقترب من التحقق حيث يجعل قبوله لمنصب وزارة المعارف – فى الوزارة الوفدية الأخيرة قبل الثورة – مشروطا بإقرار مجانية التعليم مع مرسوم تعيينه وزيرا للمعارف.

وكانت هذه أول مشكلة يواجهها حزب الوفد قبل تشكيله للوزارة. إذ كيف يقنع هذا الحزب وزعيمه مصطفى النحاس الملك الذى كان يناصبه العداء بقرار ينذر بالخطر؟! وهل يستطيع الزعيم مصطفى النحاس بكل ما لديه من تأييد شعبى ساحق، وتأثير رسمى ملحوظ أن يغير فكرة الملك الذى كان يفضل أن يحكم شعبا جاهلا، على أن يحكم شعبا متعلما؟ وهل ترضى الرجعية المستفيدة من جهل الشعب بمبدأ تعليمه؟!

ومن ناحية أخرى، هل يستطيع الزعيم مصطفى النحاس أن يقنع طه حسين بما لا يراه غير الحق؟! وهل هناك حق عند طه حسين أفضل من إتاحة التعليم لكل مواطن

مصرى؟! وهل تستطيع هذه الوزارة التى جاءت بتأييد شعبى ملحوظ التهاون فى هذا الحق الذى يطالب به طه حسين؟!.. وكانت مشكلة.

نعم مشكلة لاحت بوادر حلها حين أقسم الزعيم مصطفى النحاس للدكتور طه حسين بأن ينفذ له ما يريد بعد أن تتولى الوزارة مهامها.. وعلى الرغم من أن طه حسين كان يعرف أن مصطفى النحاس مؤمن مثله بأن التعليم حق لكل مواطن.. إلا أنه مع ذلك صارحه بالقول: إنه - أى النحاس - إذا لم يبر بوعده، فسوف تكون استقالته أول عمل يقدم من جانبه للحكومة!

وبالفعل بر النحاس بوعده لطه حسين الذى أعلن مجانية التعليم الثانوى بعد توليه مسئولية وزارة المعارف، حيث كانت هناك مجانية للتعليم الابتدائى التى أقرها ١٩٤٤ وزير المعارف الأسبق أحمد نجيب الهلالى باقتراح من طه حسين نفسه إبان عمله مستشارا فنيا لوزارة المعارف.

على أن الأمر لم يكن خاصا بالمجانية وحدها، فقد كانت هناك قيود كثيرة. مثل قيود السن، وصعوبات تتعلق بالقبول فى المدارس، وقصر دخول المدارس الأميرية على أبناء الأغنياء وغيرها من تحديات قضى عليها طه حسين الذى أصدر تعليماته ألا يحال بين التعليم ومن يرغب فيه، لأن التعليم فى رأيه كالماء والهواء، ولا ينبغى أن يوضع أى قيد على شرب الماء أو تنفس الهواء. وذاع وقتئذٍ اصطلاح سياسة التيسير التى عرف بها عهد طه حسين فى وزارة المعارف.

وطبيعى والأمر كذلك أن يعد طه حسين العدة لمواجهة ما يتوقع من تدفق الآلاف المؤلفة على المدارس بسبب مجانية التعليم، وسياسة التيسير.. وكانت هذه معجزة أخرى له. فقد استطاع فى فترة قصيرة أن ينشئ عشرات المدارس، ويفتح مئات الفصول، ويعد أماكن لآلاف من طلاب العلم، كما يوفر الدرجات لتعيين آلاف المعلمين. وبذلك ارتفع عدد المقبولين بالمدارس من ١٤٥ ألف طالب عام ١٩٤٩ إلى أكثر من ٥٦٠ ألف طالب عام ١٩٥٠. كما تضاعف تبعا لذلك عدد المقبولين فى الجامعات والمعاهد العليا فى نفس العام.

ولم تقتصر إصلاحات طه حسين فى وزارة المعارف على مجانية التعليم وفتح المدارس والفصول وتوفير الدرجات لتعيين المعلمين.. وإنما عمل قدر استطاعته على تحسين حال المعلم لإيمانه بأن تقدم التعليم وتطوره رهين بتحسين حال المعلم. وأنه لا يرجى من التعليم فائدة أو إصلاح والمعلم سيئ الحال. وها هو يخاطب المعلمين قائلا: "أقسم لو استطعت ألا أترك من المعلمين مظلوما إلا أنصفته، ولا متأخرا إلا قدمته، ولا ساخطا إلا أرضيته. لكنت أسعد الناس فى هذه الدنيا!".

وهكذا استطاع طه حسين فى فترة وجيزة إبان توليه وزارة المعارف أن يحدث تغييرا بالغا فى الأسس والمناهج التعليمية، وأن يرسم خططا جديدة لانقلاب خطير فى البناء الاجتماعى والأكثر فى العقلية المصرية، وأن يجعل من رسالته التعليمية وسيلة لتحقيق الحرية لأبناء وطنه.

وهذه الحرية نفسها هى التى كان يلتمسها لأبناء وطنه، ويطالب كل مصرى يوضع فى إطار المسئولية بأن يحققها قائلا: "يجب عليكم قبل كل شىء أن تنقلوه من الجهل إلى العلم، وأن تعلموه واجبه أولا وحقه بعد ذلك". كما يصرخ فى آذان أولئك الذين يلتمسون المجد لمصر فيقول لهم: "عليكم أن تفتحوا لأبنائها طريق المجد، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالتعليم". كما يخاطب الذين يلتمسون لوطنهم الكرامة ويأبون أن يكون وطنهم مستذلا قائلا: "عليكم أن تمكنوا هذا الوطن من تحقيق آماله التعليمية وإنقاذه من الجهل. فلا مجد والجهل مخيم، ولا حرية والجهل مستأثر بالقلوب".

وبعد فقد كان هذا هو برنامج طه حسين عندما قبل المسئولية الوزارية.. أن يفكر فيه ويهدف إليه، وهو تيسير التعليم كحق لكل مواطن مصرى مثل حقه فى شرب الماء وتنفس الهواء.. فلم يدخل الوزارة إذن لتحقيق مغنم شخصى أو حق مكسب مادى، وإنما دخلها متطوعا لخدمة أبناء وطنه.. ما أحوج بعض المسئولين الذين يفضلون المصلحة الخاصة على الصالح العام. هؤلاء الذين ينتظرون المنصب الوزارى لذاته، وليس لكونه وسيلة إلى أهداف سامية، وأفكار متطورة، وسياسات واضحة.. مؤداها جميعا خدمة أبناء أوطانهم.. ما أحوجهم إلى مثل هذا الدرس من سلوك طه حسين فى قبول الوزارة.

٢ - فى البدء كانت كرامة الجامعة

فى مثل هذا اليوم (٢٨ أكتوبر عام ١٩٧٣) من كل عام تحل ذكرى وفاة طه حسين.. فهل انتهى من حياتنا؟!

هل انتهى طه حسين عميد الأدب العربى بلا منازع؟! هل انتهى طه حسين الناقد الذى أنشأ شرعة قيم جديدة للحياة النقدية؟! هل انتهى طه حسين الأديب الساحر بفصاحة لسانة وفصاحة بيانه وإيقاع كلماته؟! هل انتهى طه حسين المؤرخ الذى أضاء تاريخ صدر الإسلام بلوامع وضاءة؟! هل انتهى طه حسين الداعى دعوة التمرد على أغلال التقاليد الأسلوبية المتحجرة؟! وهل انتهى طه حسين مثير التساؤلات والمولع بطرح المشكلات؟ هل انتهى طه حسين القلق بين مواقع أفكاره ومواقع أفكار معاصريه؟ هل انتهى واحد من هؤلاء الذين ضمهم جسد طه حسين لحظة أن فارق النبض قلبه فراقه الأخير؟!

أبدا لم ينته واحد من هؤلاء بل ظل على قيد الحياة الأدبية فى نظر وسائل الإعلام، وميادين الكلمة الأدبية والنقدية والعلمية كواحد ممن أنجبهم المناخ الفكرى النشيط. فحملوا بذور دعوات إصلاحية، وآراء حرة وهموم التجديد والمعاصرة، وفوق ذلك كله ملكوا الموهبة التى أتاحت لهم التفوق كأدباء كبار وحملة أقلام.

لم ينته إذن طه حسين بعد رحيله، كما لم ينته قبل ذلك منذ أن فرض نفسه فرضا منطقيا وعادلا على زمانه، بموهبته النادرة، وعلمه الزاخر، وتجاربه الثرية، وأفكاره الجريئة.

نعم فرض نفسه بنفسه فرضا منطقيا وعادلا. كما يجمع نقاده ومؤرخوه - فالذى أفسح لطه حسين طريقه إلى القمة هو طه حسين ابن عصره وابن زمانه، والذى جعل طه حسين محاورا متسائلا شاكا هو طه حسين الطاقة المبدعة لفلسفة زمانها

وتجاربها. والذى جعل طه حسين مؤثرا فى صياغة عقول الأجيال التالية من بعده هو طه حسين الذى وجه الدراسات الأدبية داخل الجامعة وخارجها وجهة جديدة نقلتها من عصر الميوعة والتزمت والانحطاط إلى عصر القوة والحيوية والانطلاق، والذى جعل طه حسين متحدثا حميما إلى قراء الصحف وجمهور الإذاعة ووسائل النشر هو طه حسين أحد أعلام المرحلة التاريخية التى شهدت نموذجا وتطورا فى هذه الوسائل يتفق مع اتساع رقعة جمهورها، والذى جعل طه حسين موضع عرفان الجامعات المصرية والعربية هو طه حسين ابن الجامعة البكر وأستاذ الأدب العربى وعميد كلية الآداب ومدير الجامعة، وفوق هذا وذاك فاتح الآفاق العديدة أمام أجيال فى الجامعة التى كانت تنسب إليه.

نعم كانت الجامعة تنتسب إلى طه حسين - كما يقر بذلك خصومه قبل مؤيديه - منذ أن صدر المرسوم الأول بإنشائها كجامعة مصرية رسمية، مكونة من عدد من الكليات كانت الآداب واحدة منها.. وصار طه حسين أول أستاذ للأدب العربى فى قسم اللغة العربية، ولم تكد تمضى سنة واحدة على إنشاء هذه الجامعة الوليدة حتى صار لا يذكر اسمها.. إلا وتنصرف الأذهان إلى كلية الآداب خاصة وقسم اللغة العربية تحديدا، والدكتور طه حسين وحده.. هذا مع أن عدد طلبة كلية الآداب وقتئذٍ - كانوا يعدون بالعشرات، وعدد طلبة قسم اللغة العربية يعدون على الأصابع، وعلى الرغم من ذلك كان طه حسين يومئذٍ عند الناس هو الجامعة، والجامعة عندهم هى طه حسين.

ولعل مرجع ذلك إلى جملة أسباب منها أن طه حسين كان ابن الجامعة الذى بدأ مع نشأة الجامعة الأهلية القديمة، ثم أول حاصل على رسالة الدكتوراه منها، ثم أستاذا للأدب العربى فى الجامعة المصرية الرسمية، وما أثاره - وقتئذٍ - من صراع عنيف فى الحياة الثقافية لذلك العقد. ومازال هذا الصراع إلى يومنا هذا حول كتابه الأشهر "فى الشعر الجاهلى".

تبع ذلك عدة مواقف باهرة لطه حسين وهو بالجامعة أستاذا وعميدا ومديرا.. من

مجموعها نسبت الجامعة إليه - من هذه المواقف التى تسجلها الجامعة لطه حسين - أنه حين يعين عميدا لكلية الآداب يستدعيه مراد سيد أحمد باشا وزير المعارف العمومية فى وزارة إسماعيل صدقى باشا الأولى.. طالبا منه - بإيعاز من صدقى باشا - أن يستقيل من الجامعة، ويتفرغ لرئاسة تحرير جريدة الشعب لسان حال حزب الشعب - الذى أنشأه صدقى باشا - وهنا يرفض مبررا رفضه بأنه لا يقبل أن يكون لعمادته لكلية الآداب بديلا، حتى ولو كان البديل رئاسة تحرير صحيفة رئيس الوزراء، ويصر على ذلك حتى بعد أن أبلغه الوزير أنها أوامر رئيس الوزراء.. فيزداد رفضا.

ويضمر صدقى باشا فى نفسه هذا الموقف من طه حسين، وينتظر فرصة يكون فيها الحساب، وتأتى هذه الفرصة فى فبراير عام ١٩٣٢، حين يكتب له وزير المعارف الجديد حلمى عيسى باشا أن يعمل على تنفيذ أمر لرئيس الوزراء إسماعيل صدقى بأن تمنح كلية الآداب الدكتوراه الفخرية لأربعة من السياسيين البارزين هم: "على ماهر باشا، وعبد العزيز فهمى باشا، وإبراهيم يحيى باشا، وتوفيق رفعت"، فيرفض طه حسين هذا الأمر.. وحين يستدعيه وزير المعارف حلمى عيسى بمكتبه، ويحدثه فى هذا الموضوع يرد طه حسين قائلا: "يا باشا.. عميد كلية الآداب.. ليس عمدة قرية.. تصدر إليه الأوامر من الوزير.. أنا لا أوافق على منح الدكتوراه الفخرية فى الآداب لأحد لمجرد أنه من الأعيان، ولا أستطيع أن أعرض هذا الأمر على زملائى من الأساتذة فى مجلس الكلية".

ويذكر طه حسين هذه الواقعة فى أحاديثه وكتاباته قائلا: "فى هذه اللحظة بدا التجهم والغضب كاملين فى صوت حلمى عيسى، وقال: طيب أنت لا تسمع الكلام.. هاتشوف من ينفذ كلامه"!

ويبدو أن هذا التلميح من الوزير كان بمثابة الإنذار ببداية المتاعب بالنسبة لطه حسين وأسرته. فقد توالت الأحداث مؤكدة ذلك. وكان أولها نقل طه حسين من الجامعة إلى إدارة من إدارات وزارة المعارف.. فنفذ النقل، ورفض العمل، وبدأ حملة صحفية ضد حكومة صدقى باشا ووزير معارفه حلمى عيسى. ونتيجة لذلك طلب

إسماعيل صدقى تصفية الخلافات بين وزير معارفه وطه حسين مقررا عودة طه حسين إلى الجامعة.. فعل هذا مضطرا بعد استهجان الرأى العام لما حدث، أو مناورا سياسيا انتظارا لفرصة أخرى يكون فيها الحساب.. والمناورة هى الأرجح، وإلا فما معنى إيقاظ معركة "الشعر الجاهلى" عام ١٩٣٢، التى انتهت منذ ست سنوات حين يوغر إسماعيل صدقى بالطبع للعضو عبد الحميد سعيد بأن يقدم استجوابا فى البرلمان حول هذا الكتاب ومؤلفه، بحيث يشتمل الاستجواب على اتهامين: أحدهما الإشارة إلى صورة فوتوغرافية نشرت بالأهرام تمثل طلبة وطالبات الكلية يجلسون حول أستاذهم طه حسين ويتبادلون الأحاديث والضحكات ووصف هذا العمل الشائن – فى رأيه – بالانحلال والمجون؟ والآخر يدور حول التنبيه إلى أن كتاب "فى الشعر الجاهلى" الذى ألغى بقرار من المحكمة.. لا يزال يدرس فى الجامعة بعنوان: "فى الأدب الجاهلى".

وذرا للرماد فى العيون.. يرد وزير المعارف على الاتهام الأول متظاهرا بالدفاع عن طه حسين وحرية الجامعة. أما الاتهام الثانى وهو الذى يمثل جوهر المشكلة القديمة التى يريد صدقى باشا إثارتها من جديد فيتغاضى عنه ليفتح بابا للمناقشة لا ينتهى، وبالفعل تطول هذه المناقشة وتتفرع، وتنتقل من البرلمان إلى الصحافة لتصبح قضية رأى عام. وتفتح النيران من جديد على الدكتور طه حسين، ولا يكتفى مفتعلو هذه الأزمة بذلك، وإنما يوعزون إلى الأزهر وشيخه الإمام الشيخ الظواهرى ورجاله بأن طه حسين خارج عن العقيدة الدينية والتقاليد الاجتماعية، وأنه يستحق الإدانة على اعتبار أنه لا يصلح أن يكون مربيا للأجيال.

وهكذا تم لداهية السياسة إسماعيل صدقى ما أراد من الحساب.. حيث ينقل طه حسين من الجامعة إلى إدارات وزارة المعارف العمومية.. ليتم بعد ذلك فصله نهائيا من العمل بالوزارة والجامعة معا.

لكن هل انطلت هذه المناورة على الرأى العام المثقف داخل الجامعة أو خارجها؟ لقد أدرك الجميع أنها مكيدة مدبرة ضد طه حسين الذى لم يكن يوما إلا حافظا لأمر

دينه، حريصا على تقاليد أمته، مهتما بسلامة لغتها، مؤمنا بعبقرية ثقافتها - كما يشهد بذلك خصومه - فتنقلب الآية، فبدلا من أن يكون الرأى العام داخل الجامعة ضد طه حسين، يقف إلى جانبه ومتعاطفا معه، ولا سيما حين يعلم أن صدقى باشا كان فى الأصل يريد استخدام قلم طه حسين فى مقاصده. وهكذا كان لاستبعاد طه حسين من الجامعة أثره فى نفوس الجامعيين أساتذة وطلابا، كما كان له أثره فى نفوس جموع المثقفين خارج أسوار الجامعة ممن زاملوا طه حسين حاملا لقلم أو صاحب رأى، أو حتى القراء الذين أحبوا طه حسين هذا الإنسان الكفيف ابن الطبقة الفقيرة الذى استطاع بإصرار أسطورى وتحدٍ ليس له نظير أن يصل إلى أكبر المناصب العلمية.. وهنا قامت المظاهرات داخل الجامعة.. ولم تكن هذه المظاهرات ضد طه حسين، وإنما كانت مؤيدة له، ومطالبة بعودته إلى الجامعة.

ويعود طه حسين إلى الجامعة محمولا على أعناق أصدقائه وزملائه وتلاميذه، وتموت هذه المكيدة فى مهدها. لكن الغريب فى هذا الأمر أن يلزم طه حسين بيته بعد هذا التأييد. ولعل هذا سر من أسرار طه حسين أنه لا يسبح - متهورا - ضد التيار حتى لا يؤذى نفسه أو يورط مؤيديه، واقتصر نشاطه فى هذه الفترة التى أعقبت ٢٩ مارس ١٩٣٢ على الكتابة بالصحف (السياسة الأسبوعية - كوكب الشرق - وصحيفة الوادى التى تولى رئاسة تحريرها). ويظل على هذا النحو متفرغا للعمل الصحفى بعيدا عن الجامعة فترة تنتهى فى ديسمبر ١٩٣٤ حين يعاد إلى الجامعة أستاذا للأدب العربى. حتى إذا جاء عام ١٩٣٦ ينتخب عميدا لكلية الآداب ويستمر فى هذا المنصب إلى مايو ١٩٣٩، ليعاد انتخابه بالإجماع مرة ثانية.. لكن الحكومة آنذاك - حكومة محمد محمود باشا - لم ترض بإعادة عمادته، فيقبل الاستقالة مشترطا أن يزاول عمله كعميد ليوم واحد فيه يوقع عددا من القرارات احتراما لأصوات ناخبيه. ويبقى أستاذا للأدب العربى بالجامعة حتى وإن انتدب مراقبا عاما للثقافة بوزارة المعارف فى أواخر عام ١٩٣٩، ويستمر فى هذا العمل محتفظا بأستاذيته للأدب العربى حتى عام ١٩٤٢، حيث يفكر فى إنشاء جامعة جديدة فى العاصمة الثانية لمصر الإسكندرية هى جامعة فاروق الأول (الإسكندرية الآن) ليكون أول مدير لها فى أكتوبر ١٩٤٢.

ولا تنس هذه الجامعة "جامعة الإسكندرية" مواقف عديدة للدكتور طه حسين. من هذه المواقف ما فعله مع صادق بك جوهر أحد رجال القصر الملكي الذى عينه الملك سكرتيرا عاما للجامعة. والحق أن هذا التعيين فرضته السراى على الجامعة لمراقبة طه حسين واستفزازه كلما أمكن.. حتى إذا ازداد استفزازه وتدخله فى شئون الجامعة.. ناداه طه حسين، وقال له أمام جمع من الحاضرين: "من أنت حتى تتدخل فى شئون الجامعة؟ ما أنت إلا كبيرا للكتبة". ولعل طه حسين بقوله هذا أراد أن يكشف حقيقة الدور الذى يقوم به هذا السكرتير ويحجمه، أو لعله أراد أن يضع حدا للبيروقراطية التى بدأت تزحف إلى الجامعة فى صورة هذا السكرتير ويريد أن يعصم الجامعة منها، حتى ولو كانت بأمر أعلى سلطة فى البلاد وهى سلطة القصر ومليكه.

وبعد.. فهل نلتمس بعد رحيل طه حسين معنى لمواقفه التى كانت تهدف أولا وأخيرا إلى إرساء القيم الجامعية الأصيلة، التى منها احترام لسلطان العلم، وتقدير لحرمة الجامعة، وإعلاء لهيبة العلماء. ما أحوج البعض ممن يتسربلون اليوم بطيلسان علماء الجامعة.. وهم أبعد الناس عن قيم الجامعة وأخلاقيات العلماء.. إلى هذا الدرس!

* * *

٣ - جامعة باسم طه حسين اعترافا بفضله

لا شك أن اقتراح الأستاذ الدكتور عبد العظيم أنيس فى صحيفة الأهالى الخاص بإقامة تمثال لعميد الأدب العربى طه حسين، اقتراح وجيه.. ولكن قيمة طه حسين وأثره فى حياتنا الأدبية والعلمية والفكرية تتجاوز مجرد إقامة تمثال على هذا النحو، إلى ما هو أسمى وأخلد من حيث الدلالة والمعنى. ففى رأينا أن تنتسب إليه إحدى الجامعات ولتكن جامعة القاهرة تتسمى باسمه. وحين نخص جامعة القاهرة بهذا العمل الحضارى الجليل. فإننا لا نجاوز الحقيقة أو الواقع. فقد كان طه حسين طالبا بهذه الجامعة منذ تأسيسها كجامعة أهلية، وكان أول من ظفر بشهادتها العلمية حتى عد ابنها البكر، ومنها أوفد مبعوثا إلى فرنسا ليعود فيعمل ضمن هيئة تدريسها، ويتدرج فيها بعد أن تحولت إلى جامعة حكومية فى كل المناصب العلمية، ويكون رمزا لحرية الفكر والبحث العلمى داخلها، ليمتد تأثيره منها إلى خارجها حيث الحياة الثقافية بوجه عام.

والجدير بالذكر أنه منذ أن صدر المرسوم بإنشاء الجامعة المصرية، مكونة من عدد من الكليات، إحداهن كلية الآداب، وعمل طه حسين بهيئة تدريسها، انصرف ذهن الناس عند سماع كلمة الجامعة إلى كلية الآداب وحدها، ثم إلى طه حسين وحده. حتى أصبح مألوفا وقتئذ بلا مبالغة أو تزيد القول بأن طه حسين - عند الناس - هو الجامعة، والجامعة هى طه حسين.. كما رأينا فى فصل سابق، وهو أمر لا يتوفر لغيره من معاصريه الرواد.

و لم تتوقف جهود طه حسين عند حدود هذه الجامعة، و إنما امتدت إلى استحداث غيرها من الجامعات كجامعة إبراهيم باشا (عين شمس حاليا)، وجامعة فاروق الأول (الإسكندرية الآن) التى تولى إدارتها فور إنشائها وقنابل جيوش المحور تسقط على المدينة، ولكنه بقى بها مع أن غيره من أصحاب الفكر الحر فروا بأنفسهم، وكانت

تجربة إنشاء جامعة فى غير العاصمة حافزا له لكى ينشئ جامعة أسيوط لتكون أساسا لما يسمى الآن بالجامعات الإقليمية.

وإلى جانب دور طه حسين فى بناء هذا الكيان الجامعى الضخم. فقد كانت له مواقف خالدة تعلى من مكانة أستاذ الجامعة بوجه عام.

من هذا وغيره حق لطه حسين أن تسمى جامعة القاهرة أو أى جامعة أخرى باسمه فهو أحق بها وهى أحق به.. ولن نكون بهذا العمل مبتدعين.. فهناك فى عالمنا العربى جامعات تسمى بأسماء رجال لهم أدوارهم فى داخل أوطانهم. هناك مثلا جامعة محمد الخامس بالمغرب، وجامعة عبد العزيز آل سعود فى السعودية، وجامعة السلطان قابوس فى عمان. وفى مصر هنا أكاديمية ناصر للعلوم العسكرية، وأكاديمية السادات للعلوم الإدارية.. وغيرها من أمثلة لرجال أسهموا فى بناء أوطانهم.. وطه حسين لا يقل دوره فى الأدب والنقد والفكر والتعليم وصياغة العقول والحياة الجامعية، خاصة عن أى من هؤلاء. وانتساب جامعة إليه يدركه العلماء والأدباء والمفكرون فى كل مكان.. وأظن أن الدكتور وزير التعليم أو الدكتور رئيس الجامعة أو أعضاء هيئة التدريس أكثر معرفة بطه حسين من غيرهم.

وقد أثارت فكرة إطلاق اسم عميد الأدب العربى طه حسين على الجامعة، ردود أفعال متباينة فى أوساطنا العلمية والثقافية والأدبية. فهناك من أبدى تأييدا مطلقا للفكرة. وهناك من استبدل جامعة القاهرة بغيرها من الجامعات كأن يطلب اسمه على جامعة تهتم باللغة والأدب مثل كلية دار العلوم أو الآداب، لكن هناك من عارض الفكرة من أساسها بدعوى أن انتساب الجامعة إلى المدن والمحافظات أمر أصبح مألوفا بمصر وغيرها.

والرد على أصحاب هذا الرأى الأخير هو أنه ما كانت هذه الفكرة إلا إعلاء لمكانة العلماء والمفكرين ودورهم الحضارى كأساتذة وعلماء، على اعتبار أن طه حسين رمز لهذه المكانة، وتكريمه على هذ النحو هو تكريم لكل أستاذ أو عالم جامعى. هذا

من ناحية، ومن ناحية أخرى أن ترجيح إطلاق اسم المدينة أو المحافظة على الجامعة والتمسك به كتقليد متعارف عليه ينبغى إعادة النظر فيه لأسباب كثيرة. منها أولا أن هناك جامعات ومعاهد عليا فى العالم المتقدم تنسب إلى أشخاص تخليدا لذكراهم.. ففى فرنسا جامعة السربون تنسب إلى روبيردى سربون، وفى إنجلترا جامعة فيكتوريا بمانشستر تنسب إلى الملكة فكتوريا، وفى كندا جامعة مكجيل تنسب إلى جيمس مكجيل، وفى ألمانيا جامعة همبولت تنسب إلى فون همبولت، وفى الولايات المتحدة جامعة واشنطن تنسب إلى جورج واشنطن، وفى إيطاليا معهد دانتى بروما ينسب إلى دانتى اليجيرى صاحب الكوميديا الإلهية، وفى مصر جامعة سنجور بالإسكندرية التى تنسب إلى الشاعر الإفريقى ليوبولد سنجور وغيرها.. إلى جانب أكاديمية ناصر، وأكاديمية السادات.

ثانيا: أن بعض هذه الجامعات الإقليمية عندنا أنشئ بغرض الوجاهة العلمية خاصة بعد تطبيق نظام الإدارة المحلية. وذلك حين وقر فى القلوب أنه لإتمام هذه الوجاهة العلمية يلزم إنشاء جامعة بالمحافظة، دون النظر إلى ما تتطلبه فكرة إنشاء الجامعة من متطلبات، منها الأبنية المناسبة، والأساتذة المجيدون، والموارد الاقتصادية المتوافرة، إلى جانب تحديد الخدمة التى يمكن أن توفرها الجامعة للبيئة التى تقام وسطها. وتجربة الجامعات الإقليمية فى بدايتها خير مثال على أن التسرع فى إنشاء جامعات بالأقاليم دون أن تتوافر لها الإمكانات اللازمة لم يحقق النتائج السريعة المنتظرة التى كانت ترجى من وراء إقامتها.

ثالثا: أن نسبة الجامعة إلى واحد من الرواد الأعلام الذين أعطوا فى البناء العلمى والجامعى مثل طه حسين لا يقلل من شأن المكان الجغرافى الذى تقام فيه.

بل على العكس، ربما يعلى الانتساب إلى الاسم من مكانة المكان، خاصة لو كانت هناك أسباب ومسببات لهذا الانتساب، كأن يكون قد ترك أثرا لا يمحى أو أن يكون من أبناء الإقليم الذى تقام فيه الجامعة.

ولعلنا حين نسجل أمثلة لهذه الآراء المتباينة فى هذا المكان المحكوم عليه بضيق

المساحة، نؤكد أن كثرة هذه الآراء وتباينها دليل جديد على أهمية دور طه حسين فى حياتنا العلمية والثقافية.

فى رد الأستاذ الدكتور سليمان حزين رئيس المجمع العلمى المصرى ووزير الثقافة الأسبق ومدير جامعة أسيوط غداة إنشائها وأقدم تلميذ للجامعة الحكومية وأحد تلاميذ طه حسين الأوائل يقول: "منذ البداية أسجل أننى من أقدم تلاميذ الدكتور طه حسين، ولعلنى أكون من أقربهم إليه فى حياته منذ التحقت بكلية الآداب، وكنت أحد اثنين التحقا بهذه الكلية التى تعتبر الأساس بالنسبة للجامعة كلها التى تحولت عام ١٩٢٥ من جامعة أهلية إلى جامعة حكومية.. وعلى الرغم من هذا لست مع الرأى القائل بأن تنسب جامعة القاهرة إلى اسم طه حسين، حتى لا نعود إلى الخطأ فى التسمية الذى بدأت به، حيث نسبت إلى الملك فؤاد. ولست بهذا الرأى جاحدا لفضل أستاذى طه حسين، ولكن العرف جرى على أن تسمى الجامعة باسم العواصم والمدن وليس بأسماء الأفراد أيا كانوا. هذا إلى جانب أن هذه الجامعة – القاهرة – تمثل الحلقة الرابعة من تاريخ الجامعات على أرض الكنانة..

حيث مثّلت المرحلة الأولى جامعة "أون" أو عين شمس القديمة قبل الميلاد، ومثّلت جامعة الإسكندرية القديمة فى العهدين الإغريقى والرومانى اللذين تركز فيهما مقر العلم والفكر والحكمة بالإسكندرية ومكتبتها ومتحفها، ومثّل الأزهر الشريف المرحلة الثالثة كمنارة للفكر الإسلامى.. حتى جاء العصر الحديث ومدت مصر اتصالها بالغرب، ونشأت الجامعة الحديثة سواء كانت أهلية ١٩٠٨ أو حكومية ١٩٢٥ ميلادية لتمثل المرحلة الرابعة..

ولعلى أذكر فى هذا الصدد أننى قمت بتغيير اسم جامعة محمد على بأسيوط إلى جامعة أسيوط غداة إنشائها وإدارتى لها عام ١٩٥٥. إيمانا منى بأن الجامعات ينبغى أن تنسب إلى العواصم والمدن وليس للأفراد".

* فى رد عالم الاجتماع الراحل الأستاذ الدكتور حسن الساعاتى عميد كلية الآداب الأسبق والمشرف على الجامعة الأمريكية عام ١٩٦٧ يقول: "إن تسمية

الجامعة باسم شخص نابه ومفكر عظيم أمر نادر الحدوث. إذ إن ما درج أهل العلم عليه هو أن يطلقوا اسم البلد التى تنشأ الجامعة عليها. والأمثلة على ذلك كثيرة فى كل دول العالم. وعندما صحح الوضع فى مصر بعد قيام الثورة فعدل على أسماء الأشخاص التى كانت تطلق على جامعاتنا كالملك فؤاد وفاروق وإبراهيم باشا الكبير ومحمد على، فأصبحت جامعات القاهرة والإسكندرية وعين شمس وأسيوط، ثم أنشئت جامعات إقليمية أطلق عليها أسماء المحافظات التى أنشئت بها. لذلك لا أرى أن يطلق اسم طه حسين على جامعة من الجامعات. صحيح أنه عندنا جامعة سنجور الفرنسية بمدينة الإسكندرية، ولكن إنشاء هذه الجامعة كان لاعتبارات سياسية، وهذا أمر شاذ عن القاعدة ولا يعتد به..

وإن الذى أستحسنه أن يطلق اسم طه حسين على كلية دار العلوم على الرغم من أنه هاجمها. واقتراحى هذا مبنى على أن طه حسين قد خدم اللغة العربية أكثر من غيره، وأثّر فى المثقفين أبلغ تأثير، ويكفى أن أطلق عليه عميد الأدب العربى. وهذا تكريم له بحق. إذن فلنتوج هذا التكريم بإطلاق اسمه على كلية دار العلوم، وذلك لأمر بالغ الأهمية وهو أن المتخرجين من دار العلوم لهم الفضل فى تدريس اللغة العربية فى مدارسنا وجامعاتنا منذ تخرجهم، وقد أبلوا فى ذلك بلاءً حسنا لابد من الاعتراف به".

* وفى رسالة عاجلة للدكتور عبد العظيم أنيس قال: "قرأت بعناية تعليق الأهرام الأدبى على دعوتى لإقامة تمثال لطه حسين فى مدخل جامعة القاهرة، وسعدت باقتراح إطلاق اسم طه حسين على إحدى جامعاتنا اعترافا بفضله على الثقافة والتعليم. وفى اليوم التالى قرأت ما كتبه الأستاذ أحمد عبد المعطى حجازى بمقاله حيث قال: وضحكت متحسرا وأنا أقرأ منذ يومين مقالة للدكتور عبد العظيم أنيس يطالب فيهابإقامة تمثال لطه حسين ينصب فى مدخل الجامعة، وقلت فى نفسى: تمثال فى مدخل الجامعة ولطه حسين بالذات دون ذلك خرط القتاد)!

وأرجو أن تسمحوا لى بتعليق سريع على المثالين. إننى أرحب بالطبع بإطلاق

اسم طه حسين على إحدى جامعاتنا. لكنى أفضل أن تكون جامعة عين شمس لا القاهرة. فقد جرت العادة فى كل الأمم المتحضرة على إطلاق اسم عاصمة القطر على جامعتها. ولذا فأنا أفضل عين شمس بدلا من جامعة القاهرة. أما سبب اختيارى لجامعة عين شمس فهو أن طه حسين هو الذى أنشأها من مجموعة من المعاهد العليا، فضلا عن أننى لا أستسيغ اسم عين شمس لجامعة فى بلادنا، إذ ينبغى أن نعترض. إن تراثنا الحى الباقى إلى اليوم فى الثقافة هو التراث العربى الإسلامى والتراث القبطى وليس التراث الفرعونى.

أما تعليقى على مقال الأستاذ حجازى فهو ذو شقين، أولهما أننى أدرك تماما أن هناك هيئات محافظة فى توجهاتها تعارض فكرة إقامة التماثيل فى الميادين العامة. لكن ميادينا العامة مملوءة بالتماثيل، فهل نخضع لمثل هذا الابتزاز السلفى أو نروضه ونتصدى له؟ حبذا لو واجهنا ذلك بالدعوى إلى اكتتاب شعبى لإقامة تمثال لطه حسين.. وإننى أدرك أن عددا من الهيئات المحافظة فكريا لا تحب طه حسين بالذات. ولكن هذا أدعى إلى أن نتمسك به وبتراثه مهما كانت العقبات.

ولعل هذا يصل بى إلى الشق الثانى من تعليقى ، وهو مسئولية الحكومة إزاء هذه المشاكل التى يواجهها المجتمع المصرى، وهى مسئولية جد خطيرة. وسوف يتوقف الكثير على سلوك الحكومة وحكمتها وشجاعتها فى التصرف، فالحكومة لا ينبغى أن يكون هدفها فى إعلامها وتعليمها وثقافتها إثبات أنها لا تقل سلفية عن السلفيين فى فهم شئون المعاملات فى الإسلام".

* فى رأى الأستاذ الدكتور إبراهيم الفيومى عميد كلية الدراسات الإسلامية الأسبق بجامعة الأزهر: "أن الأستاذ سامح كريم أثار قضية ينبغى أن تلقى العناية والبحث، وهى تسمية الجامعات بأسماء الأعلام. ولا شك أن تلك الدعوة تجسد عندنا نقطة عودة الوعى إلى الشخصية المصرية وإنعاشا للذاكرة حين ترتبط بماضيها العظيم. وبهذه المناسبة أرجو أن يبقى على اسم جامعة القاهرة كحاضرة إسلامية قديمة. هذه الجامعة التى أصلها كلية الآداب ضمت العديد من الرواد الذين حملوا المشاعل

فى مختلف المستويات الفكرية والسياسية والتجديدية والإصلاحية.. وطه حسين أحد هؤلاء يعتبرون كمثله لا يفضل بعضهم على بعض. ولذلك أقترح بأن نسمى جامعة المنيا باسمه كما نسمى جامعة المنصورة باسم لطفى السيد. وهكذا حتى يكون عبق التاريخ الفكرى منشورا على رقعة الجامعات والأكاديميات المصرية، وتظل جامعة القاهرة هى الهالة التى تدور فى فلكها كل الجامعات".

* وفى رسالة قيمة للأستاذ الدكتور عاطف العراقى أستاذ الفلسفة العربية بالجامعة يقول: "من أعظم الاقتراحات البناءة الاقتراح الخاص بإطلاق اسم طه حسين على جامعة القاهرة. إنه اقتراح كان ينبغى أن ننظر إليه بعين الاعتبار منذ سنوات عديدة، وفاءً من جانبنا نحو الرجل الذى يعد مثالا لما ينبغى أن يكون عليه الإنسان فى كل زمان ومكان.

وغير مجد فى ملتى واعتقادى إهمال هذا الاقتراح ووضعه فى زوايا النسيان والإهمال. ومن الأشياء التى تدعو إلى الحزن والأسف أننا نتحدث الآن عن مشكلات يواجهها المجتمع والجامعة.. فى الوقت الذى نجد فيه طه حسين قد أعطانا الحلول لهذه المشكلات.

إنه دين فى أعناقا جميعا نحو هذا الرجل وأفكاره، وإذا كان الأستاذ سامح كريم ذكر الأسباب المقنعة والخاصة بإطلاق اسم طه حسين على جامعة القاهرة، فإننا نؤكد ذلك ونذكر أننا إذا قمنا بإطلاق اسم طه حسين على أقدم جامعات مصر الحديثة، فإن هذا سيؤدى إلى العديد من الإيجابيات التى منها أن أستاذ الجامعة حين يدرك أنه يعمل فى جامعة باسم طه حسين فإنه يعرف تماما أن من واجبه أن يكون طه حسين قدوة له.

إن من واجبنا السعى فى الأيام القادمة نحو تحقيق هذا الاقتراح البنّاء حتى نفخر جميعا بأننا نعمل بجامعة طه حسين".

* الأستاذ الدكتور مفيد شهاب. رئيس جامعة القاهرة وقتئذٍ ووزير التعليم العالى بعد ذلك. رد قائلا: "طه حسين بكل المقاييس ظاهرة فى تاريخ الثقافة العربية، لأنه صاحب رؤية ثاقبة فى كل مجالات الفكر والإبداع، ومدرسة فى البحث العلمى،

ومنهج فى التفكير.. وله مشروع قومى فى الثقافة هو كتابه "مستقبل الثقافة فى مصر". ولقد أوضح طه حسين موقفه من الثقافة الغربية، وموقف الفكر العربى منها، باعتبارها الثقافة العالمية التى تعوّد العالم أن يعيش فى ظلها قبل أو أبى. وطه حسين رجل صاحب موقف لا أملك سوى أن أحترمه، اختلفت معه أو اتفقت. وهو أيضا مقاتل صعب المراس يرفض أن يتخلى عن موقعه مهما كانت التضحيات، ومهما كان السبب. فلقد خاض معارك "فى الشعر الجاهلى" و "مجانية التعليم" و "استقلال الجامعة" و "حرية الفكر"، وخرج منتصراً فى كل هذه المعارك.

وطه حسين ليس مفكرا فحسب، أو فيلسوفا أو أديبا أو معلما أو مربيا، ولكنه هو كل هؤلاء جميعا، فلم يشأ عميد الأدب أن يحصر دوره فى اتجاه صاحب الرؤية البعيدة التى تتخطى عصره وتستشرف آفاق المستقبل، وتتجاوز الرؤية الإقليمية الضيقة. ولقد كان أكثر إيمانا من الذين اتهموه بالكفر والإلحاد.

إننا نكرم طه حسين.. لأنه كرم العلم، واحترم الثقافة، وقدس دور الجماعة فى مجتمع لم يكن يعرف قيمة العلم مثلما نعرفها، ولا يدرك معنى الثقافة كما ندركها. لقد أرسى مبادئ وزرع فيها، و لم يخلد لعظمة كتبه، بل أضاف إليها عظمة مواقفه، ولأنه وضع الكرامة فى العلم وجمع بين العمل والموقف.. وجب علينا تكريمه والإشادة به.

وما أحوجنا الآن إلى رجال مثل طه حسين.. بهم تتقدم الأمم، ومنهم تفخر المدائن، وبأمثالهم تترسخ القيم.. ومن حظ مصر أن حباها الله برجال من أمثال طه حسين ولطفى السيد.. فرضوا الاحترام للعلم وقدسوه كأشرف غاية وأنبل مقصد.. ومن أجل هذا فإن جامعة القاهرة تفخر بأنها احتضنت فى يوم من الأيام طه حسين طالبا وأستاذا وعميدا، ورجلا من رجال استمدوا منها الكبرياء وأضافوا إليها الاعتزاز.

وإذا كان طه حسين يستحق من مصر والعالم العربى الإشادة والتكريم، فذلك للقيم التى يمثلها فكره، وللعطاء الأمثل الذى قدمه عقله فى مجالات العلم والتعليم والثقافة والفكر.

إن جامعة القاهرة - بالذات - ترحب أكبر ترحيب، بكل صور التكريم لطه حسين وفكره.

وإنه ليسعدنى ويشرفنى شخصيا أن أقدم لمجلس الجامعة هذا الموضوع ليقرر ما هو مناسب ولائق بطه حسين".

* الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عبد الحافظ - رئيس جامعة عين شمس الأسبق - يرد قائلا: "إن جامعة عين شمس هى ثالث جامعات مصر من حيث النشأة. ففى شهر يوليو عام ١٩٥٠ صدر القانون رقم ٩٣ الذى ينص على إنشاء جامعة إبراهيم باشا الكبير لتشارك جامعتى (فؤاد الأول وفاروق الأول - آنذاك) القاهرة والإسكندرية حاليا، فى تأدية رسالة التعليم الجامعى، ومواجهة الإقبال المتزايد من شباب مصر على التعليم العالى.

وحين قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ رئى أنه من الأفضل أن تسمى الجامعات بأسماء ترتبط ارتباطا وثيقا بالوطن ومعالمه التاريخية، ونتيجة لذلك عدل اسم الجامعة إلى جامعة عين شمس فى ١٩٥٤/٢/٢١، كتسمية إغريقية لأول عاصمة عرفها التاريخ لمصر الفرعونية.

وهذا يعطى الجامعة ارتباطا وثيقا بين أصول الوطن القديم، ومواكبة التطور العلمى. وأصبح منذ هذا التاريخ ارتباط الجامعة باسمها مع الجامعات الخارجية فى كافة أنحاء العالم. وعرف اسم جامعة عين شمس ومدارسها العلمية وأساتذتها، وقامت اتصالات مع الجامعات الأخرى، ووقعت الاتفاقيات الثقافية، ومشروعات البحث مع كافة مراكز البحوث فى العالم. وأصبح لها اسمها المعروف.

إن تكريم عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين لا يمكن أن يقتصر على إطلاق اسمه فقط على صرح من صروح العلم أخذ وضعه كقيمة ثابتة ومعروفة بين جامعات العالم. لذلك نقترح أن تعقد لجنة قومية كبيرة، تمثل كافة المتخصصين فى تاريخ الدكتور طه حسين والمشتغلين فى مجاله، حتى يتدارسوا فيما بينهم أفضل السبل وأقواها لتخليد اسم طه حسين، كرمز يحتذى لتلاميذه، والأجيال التى تنجبها مصر،

وتقوم الدولة بتنفيذ ما تقترحه هذه اللجنة، وتأخذ منه ما يليق بذكرى هذا الراحل العظيم".

* الأستاذ الدكتور جمال أبو المكارم رزق - رئيس جامعة المنيا الأسبق - يرد قائلا: "منذ البداية أقرر أن الفكرة فى حد ذاتها تمثل قيمة حضارية ضخمة.. تتناسب مع حجم وعطاء طه حسين فى تاريخ أدبنا العربى.

إن الاقتراح بإطلاق اسم طه حسين على جامعة من الجامعات "اقتراح محمود"، لأنه أصبح من الأعراف الدارجة فى كثير من دول العالم أن تطلق أسماء كبار المفكرين العلماء على مؤسساتها العلمية والثقافية. ويذكر فى هذا المجال، مثل حديث جدا، أن جامعة الدولة وهى من أكبر وأقدم الجامعات فى جمهورية قازاخستان قد أطلقت - مؤخرا - اسم العالم والمفكر القديم أبى نصر الفارابى على هذه الجامعة.

وبهذه المناسبة كنت أتمنى أن تتضافر الجهود مع اقتراح الأستاذ سامح كريم، فيكون هناك تجمع يضم صفوة المثقفين والمفكرين والعلماء، وغيرهم من عارفى فضل طه حسين.. يجتمعون ويقررون كيفية تكريم هذا الراحل الكبير، الذى أثرى حياتنا العلمية والأدبية والفكرية لأكثر من ستين عاما، والذى لولا جهوده ما كانت هذه الجموع من المثقفين والعلماء والأدباء الذين يمثلون الساحة اليوم، ولولاه أيضا ما أتيحت لهم فرصة التعليم أصلا. إننى أود ألا يقتصر تخليد اسم طه حسين على مجرد إطلاقه على مدرج أو قاعة، إنما لابد أن يتناسب حجم هذا التكريم مع حجم عطاء طه حسين، وما قدمه لمصر والعالم العربى من جوانب علمية وثقافية وأدبية.

وجامعة المنيا باعتبارها تقع فى المحافظة التى ولد فيها طه حسين، يسعدها ويشرفها أن تنسب إليه فتسمى "جامعة طه حسين بالمنيا"، وإن كانت قد أقيمت بعد وفاته، إلا أن هذا الموضوع أمر جدير بالدراسة والبحث مع مجلس الجامعة فى الأيام القليلة المقبلة.

إنها لفتة موضوعية كريمة أن نكرم روادنا، أرجو أن نخرج بنتيجة إيجابية من هذا الحوار".

* * *

رابعا : طه حسين والمغرب العربى

١ - طه حسين فى تونس.

٢ - مكتبة طه حسين فى سوسه.

٣ - طه حسين فى المملكة المغربية.

٤ - طه حسين وثورة الجزائر.

١ - طه حسين فى تونس

بعد نشر موضوع بعنوان: "شك طه حسين فى الشعر الجاهلى منهج عربى أصيل" بالأهرام ردا على عدد من الاتهامات الظالمة لبعض الأشقاء السعوديين التى تدور حول كتابه الأشهر "فى الشعر الجاهلى" وكيفية تأثره بالمستشرقين، وأن شكه فى الشعر لا علاقه له بالشك الديكارتى، وقد أثبتنا أن شك طه حسين فى صحة الشعر الجاهلى منهج عربى أصيل بدأه العرب الأقدمون قبل غيرهم، وأن طه حسين وغيره من المستشرقين متأثر بهذا المنهج العربى وليس بغيره من المناهج.

ويبدو أن هذه الاتهامات التى استهدفت طه حسين وتفنيدها قد أثارت البعض فى مصر وخارجها، لافتقارها - كالاتهامات - للأدلة والبراهين، وكان من بين هذه الردود من خارج مصر، اتصال هاتفى من الكاتب التونسى البير أبى القاسم محمد كرو، (٥٥ كتابا فى الأدب والنقد، عضو اتحاد الكتّاب التونسيين، مستشار وزارة الثقافة التونسية، عضو مراسل لمجامع اللغة العربية فى مصر والعراق وسوريا والأردن) يأسف فيه لتنكر البعض لفضل طه حسين على الثقافة العربية، ويشير إلى فضله على ثقافة المغرب العربى عامة، وتونس خاصة، ثم يتبع اتصاله بإرسال عدد من الكتب منها كتاب نشر عام ١٩٩٣ بتونس تحت عنوان: "مئوية طه حسين وقائع ندوة بيت الحكمة بقرطاج عام ١٩٩٠"، إلى جانب إرساله الخطوط العريضة لكتاب له تحت الطبع يصدر بعد أيام عنوانه: "طه حسين والمغرب العربى"، متناولا فيه دور عميد الأدب العربى فى كل من تونس والمغرب والجزائر، وكيف أن مواقفه كانت دائما إلى جانب الإنسان العربى فى كفاحه ضد الاستعمار الفرنسى، على الرغم من ارتباطاته الوثيقة بفرنسا وأهمها أنه مدين لها بثقافته وفكره، إلا أن أصالته العربية، وتأييده لكفاح المغرب العربى من أجل الاستقلال، وتقديره للثقافة المغربية وأصحابها.. كانت جميعها فوق كل اعتبار.

وما يهمنا – فى هذه السطور من حديث الأستاذ كرو، وما أرسله بالفعل من المؤلفات التى بعث بها إلينا هو ما يخص طه حسين، هو إعادة طبع كتابه الأشهر "فى الشعر الجاهلى" الذى صدر عام ١٩٢٦، كما هو بدون تغيير، ليكون تحت أيدى الدارسين فى المجلد الصادر بمناسبة مرور مائة عام على ميلاد طه حسين، متضمنا دراسات مهمة لعدد من العلماء والأدباء والنقاد والدارسين فى تونس، فى مقدمتهم الدكتور عبد القادر المهيرى رئيس جامعة تونس، ثم دراسات وأبحاث للأساتذة أبى القاسم محمد كرو، ومحمود طرشونه، وحمادى صمود، ومحمد الهادى الطرابلسى، وعبد الله صولة، وعمر مقداد الجمنى، وجمعه شيخة، ومحمد فاضل الجمالى.. وغيرهم.

إلا إننا نتوقف عند هذه الدراسة الطويلة التى تقع فى اثنين وأربعين صفحة للأستاذ كرو وعنوانها: "تونس وطه حسين"، حيث تسجل بمنهج علمى دقيق، علاقة طه حسين بتونس.

صحيح أن بقية دراسات هذا المجلد سجلت لدور طه حسين فى الثقافة والتعليم فى تونس بوجه عام، والنقد والأدب بوجه خاص، إلا أن دراسة الأستاذ أبى القاسم كرو، قد توفرت على علاقة طه حسين بتونس سواء من ناحية التأثر بها، أو التأثير فيها، حيث يرى أن هذه العلاقة أوسع وأعمق من علاقات طه حسين بأى من الأقطار العربية الأخرى. وأنها ليست أحادية، بمعنى أنه لم يكن المؤثر والمعنى بأدبها وتراثها، بل كان لتونس من خلال تراثها وأعلامها القدامى والمعاصرين أثر قوى فى حياة طه حسين وفكره، إذ كانت تونس ومن يمثلها هى الموجه الأول لطموحاته منذ أن كان طالبا بالأزهر الشريف، وأن هذه العلاقة تواصلت منذ مطلع القرن العشرين إلى آخر أيام حياته، وتوجت بزيارته لتونس ليكون أول وأكبر شاهد على تأسيس الجامعة التونسية الحديثة.. فكيف كان ذلك؟

لقد بدأت هذه العلاقة بين طه حسين وتونس عام ١٩٠٩ بالتقائه بالشيخ عبد العزيز جاويش التونسى الأصل، هذا الرجل كان له كبير الأثر فى تكوين فكر طه حسين، وذلك حيث حثه على تعلم اللغة الفرنسية، والسفر إلى فرنسا لاستكمال

دروسه، والاطلاع على الثقافة الأوروبية الحديثة، وقبل ذلك عاونه على أن يكون كاتبا - كما أشار فى الأيام - حيث وجهه نحو الكتابة الأدبية والنقدية، ودربه على ممارسة الصحافة، ووثق فيه حين أسند إليه الإشراف على تحرير مجلة "الهداية" التى كان يصدرها، وشجعه على نظم الشعر وإلقائه ونشره بهذه المجلة، لتبدأ علاقة أخرى بالمجاهد الزعيم التونسى عبد العزيز الثعالبى الذى أعاد نشر قصائده فى صحيفة "التونسى"، منبها الثقافة العربية إلى نبوغ طه حسين المبكر فى مجالات الأدب والنقد كأحد النابغين بوادى النيل.

وتتعمق علاقة طه حسين بتونس ورجالاتها المعاصرين حين يختار عالمها الخالد عبد الرحمن بن خلدون موضوعا لرسالته فى السربون بفرنسا. ويدلل الأستاذ كرو على ذلك بأن هناك من الباحثين من يرجع دعوى طه حسين لإعمال العقل، واتخاذ العقلانية منهجا، إلى ابن خلدون وفلسفته فى كتابة التاريخ، وليس إلى الفيلسوف الفرنسى ديكارت، وحتى فى أثناء أزمة طه حسين بعد إصداره كتاب "فى الشعر الجاهلى" كانت تونس ممثلة فى أدبائها الكبار، وفى مقدمتهم: أبو القاسم الشابى والثعالبى والحداد والعبيدى والمهيرى كانوا جميعا فى مقدمة المؤيدين لتجديد طه حسين وابتداعه منهجا جديدا لتقييم التراث العربى. وحتى كتاب "نقض كتاب فى الشعر الجاهلى" للشيخ محمد الخضر حسين التونسى الأصل، لم يكن حادا فى أسلوبه، ولم يخرج عن حدود مناقشة الرأى بالرأى والحجة بالحجة، ولم يتهمه، كما فعل غيره من الأدباء المصريين، وفى مقدمتهم الكاتب الكبير مصطفى صادق الرافعى، بل كان الكتاب أكثر موضوعية عن غيره من الكتب.

يأتى بعد ذلك اهتمام الصحافة التونسية بطه حسين، حيث لم تنقطع أخباره عنها، ولم تغفل عن تأييده فى كل مواقفه، بل كانت تنقل مقالاته ومحاضراته عن الصحافة المصرية أو تنفرد هى بنشرها، إلى درجة أن هناك فى تونس مقالات لطه حسين لم ترصدها الأبحاث الببليوجرافية التى قامت بها الجامعة الأمريكية تحت إشراف الدكتور حمدى السكوت.

يبقى بعد ذلك تأثير طه حسين فى الأدب والفكر والتعليم التونسى. وأول ما يمكن ملاحظته، هو تأثر شاعر تونس الخالد أبى القاسم الشابى بطه حسين وكتابه "فى الشعر الجاهلى"، حيث ألف كتابا على غراره بعنوان: "الخيال الشعرى عند العرب"، كما تأثر أيضا بمنهج طه حسين فى البحث، الكاتب التونسى الكبير الطاهر الحداد حين كتب مؤلفه "مرآتنا فى الشريعة والمجتمع" وغيرهما من الكتّاب. على أن التأثير الأكبر لطه حسين فى الثقافة التونسية، بدأ مع علاقته بالعلامة التونسى حسن حسنى عبد الوهاب وزير التعليم الأسبق فى تونس وعضو بمجمع اللغة العربية فى مصر، وما نتج عنها من شرح وتحقيق بعض المخطوطات العربية النادرة الموجودة بتونس، تلا ذلك اتفاق بين طه حسين إبان توليه وزارة المعارف العمومية والفاضل بن عاشور على تلبية حاجة تونس إلى المدرسين المصريين للتدريس فى دور العلم هناك. وفى مقدمتها الجامعة الزيتونة غير أن الإدارة الفرنسية – وقتئذ – عرقلت هذا المشروع مما جعل طه حسين يقتنع بأن فرنسا الثورة والحرية وحقوق الإنسان، ليست هى فيما وراء البحار فى مستعمراتها، ولهذا ندد بسياستها الاستعمارية فى تونس بمقالات نشرت بصحيفة الجمهورية، أهمها مقالتان نشرتا عام ١٩٥٣ الأولى بعنوان: "فى الجهاد"، والثانية بعنوان: "غضب"، ومقال ثالث نشر فى عام ١٩٥٦ بصحيفة الجمهورية أبدى فيه طه حسين سعادته باستقلال تونس والمغرب وانتفاضة الجزائر، من جملة ما قاله فيه: "لن تستطيع فرنسا أن ترجع بتونس ومراكش إلى الوراء، ولن تهدأ الجزائر حتى يظفر أهلها بمثل ما ظفر به التونسيون والمراكشيون".

وتوجت علاقة طه حسين بتونس عام ١٩٥٧، وذلك فى زيارتها بدعوة من صديقه الزعيم التونسى الحبيب بورقيبه الذى كان وقتها رئيسا للحكومة، وقبوله هذه الدعوة على الفور على الرغم من رفضه لدعوات مماثلة من قبل من الإدارة الفرنسية، ولكنه كان يأبى أن يزور هذا البلد العربى الشقيق إلا وهو حر مستقل، وقد أشارت الصحف التونسية – وقتئذ – إلى هذا المعنى.. من هذه الإشارات ما جاء فى افتتاحية الكاتب التونسى الكبير الأستاذ الهادى العبيدى لصحيفة الصباح، حيث قال مرحبا بعميد الأدب العربى: "تحية لهادينا من بعيد أستاذنا طه حسين.. لقد كانت أمنية غالية

أن نلتقى به ونستمع إليه، وكأن المستعمرين يحاولون أن يستقدموا الأستاذ الكبير، ليكتسبوا عطف المثقفين التونسيين، ولكن الأقدار أبت كما أبى هو إلا أن تحقق أمنية إسعادنا برؤية الأستاذ الكبير وتونس قد تخلصت من نير الاستعمار".

وتنتهى الزيارة إلى تونس بين ندوات ولقاءات ومقابلات ثقافية لطه حسين مع المثقفين هناك، يختمها الزعيم التونسى بورقيبه بمنحه وسام الاستقلال الذى لا يمنح لغير الزعماء التونسيين، تقديرا لمواقف طه حسين ومساندته لتونس أيام محنة استعمارها.

ويسجل طه حسين مشاعره على الورق فى مقالة بعنوان: "تونس" بصحيفة الجمهورية.. فى هذا العنوان نفسه ما يدل على أن لتونس معنى ودلالة فى نفس طه حسين، وأنها وحدها تمثل خلاصة مشاعره وأجمل ذكرياته.. وكأنه يريد تأكيد أهمية الثقافة فى المغرب العربى، بالنسبة للثقافة العربية.

ومن عجيب الأمور أن هذه الرحلة لم تنل أى اهتمام من جانب تاريخنا الثقافى، على الرغم من أن صاحبها طه حسين كان يعتبر تونس وبقية أقطار المغرب العربى بمثابة حاضر الثقافة العربية، وأن الأندلس وما فيها من عبق التاريخ العربى الإسلامى تعتبر ماضى هذه الثقافة.

* * *

٢ - مكتبة باسم طه حسين فى سوسه

فى أثناء تجوالى بين دور النشر العربية، بالمعرض الدولى للكتاب بتونس فى إبريل الماضى، استوقفتنى - مع أحد زملاء رحلة السفر إلى تونس - منضدة مغطاة بطبعات جديدة من مؤلفات عميد الأدب العربى الدكتو طه حسين، وطبعات أخرى عنه لدارسيه، وقد ارتفعت لافتة فوق هذه المنضدة تحمل عنوانا جاحظا هو "مكتبة طه حسين" هذه المكتبة قامت بجمعها، وإعادة طباعتها، دار المعارف للطباعة والنشر فى سوسه بتونس.. وهنا همس زميل السفر الروائى يوسف القعيد، مشيرا إلى هذه الطاولة، وما تحمله من كتب لطه حسين وعنه قائلا: "أو لم يكن من الأفضل أن تقوم بهذا العمل إحدى دور النشر المصرية"؟!.. وتمتم بذلك مرات وهو مستمر فى تصفح نسخ هذه المكتبة مأخوذا بجمال طباعتها، وكأنه كان ينتظر منى ردا!

وجدت نفسى أرد عليه بأنه لا يهم أن يكون هذا العمل لأحد الأشقاء العرب فى تونس، أو فى غيرها من أقطار الأمة العربية فى المغرب أو المشرق، ذلك لأن عطاء طه حسين ليس ملكا لمصر وحدها، وإنما هو ملك لكل أبناء الأمة العربية، وإلا كنا استبدلنا لقبه كعميد للأدب العربى الذى أجمع عليه كل العرب إلى "عميد الأدب المصرى"، فعطاء طه حسين والعقاد ونفر قليل من الرواد العرب، ليس ملكا لبلدانهم التى ولدوا ونشأوا فيها، وإنما هو ملك للأمة العربية، حيث تجاوز إشعاعهم الثقافى المجال الذى وجدوا فيه، ليمتد وينتشر فى كل أقطار العالم العربى، ولذلك لا نستكثر على هذا الشقيق التونسى الكاتب والناشر حسن أحمد جغام أو غيره داخل تونس أو خارجها الاهتمام بطه حسين، فهو يخصها كما يخصنا نحن المصريين، ما دام هو ابنٌ بارٌ للثقافة العربية قديمها وحديثها.

ذلك أن طه حسين وغيره من الرواد فى مصر أو فى تونس أو المغرب أو الجزائر أو

العراق أو سوريا أو لبنان أو غيرهم ممن أنجبهم ذلك المناخ الفكرى النشيط فحملوا بذور دعوات إصلاحية وآراء حرة، وهموم التجديد والمعاصرة، وملكوا الموهبة النادرة التى أتاحت لهم التفوق كأدباء كبار، وحملة أقلام وأساتذة وأعلام. وبفضل جهدهم الخصب النشيط دارت أغزر المناقشات المؤثرة حول مجموعة من قضايا الفكر والأدب والفن والسياسة، تلك التى مازالت تعيش إلى اليوم.

هؤلاء جميعا استطاعوا بدم القلب، ووهج الفكر وصلابة الفولاذ، أن ينقلوا الصراع الدائر بين القديم والجديد من المستوى الضيق الذى كان عليه إلى مستوى أرحب وأوسع، بل والأكثر من ذلك جعلوا هذا الصراع جزءا - لا غنى عنه - من التكوين العقلى والوجدانى لهذه النهضة التى نعيش فيها اليوم.

ولهذا وغيره من أسباب فرض طه حسين، ونفر قليل من أبناء جيله - بحيويتهم المتدفقة، وموهبتهم النادرة، وعلمهم الزاخر، وتجاربهم الثرية - أنفسهم على عصرهم فرضا.. عادلا منطقيا.

وكما قلت من قبل متفقا مع غيرى من دارسى طه حسين، والعارفين بفضله على الثقافة العربية.. أن الذى أفسح لطه حسين طريقه إلى القمة، كان هو طه حسين نفسه.. ابن عصره، وابن زمانه.

والذى جعل طه حسين مؤثرا فى أجيال متتالية، هو طه حسين الطاقة المبدعة والخلاقة لفلسفة هى ابنة زمانها وتجاربها.

والذى جعل طه حسين متحدثا إلى قراء الصحف والمجلات والكتب وجمهور الإذاعة هو طه حسين، أحد أعلام المرحلة التى شهدت نمو وسائل النشرالعربى، وانتشار نفوذها، واتساع جمهورها من الخليج إلى المحيط.

والذى جعل طه حسين موضع عرفان الجامعات العربية والأجنبية فى حياته وبعد مماته، إنما هو طه حسين المجاور فى الأزهر الشريف، والطالب فى الجامعة المصرية القديمة، والمبعوث إلى جامعة السربون، ثم الأستاذ فى الجامعة المصرية الحديثة، والعميد، والوزير، ورجل الإصلاح التعليمى، وفاتح الآفاق العديدة أمام أجيال وأجيال.

والذى جعل طه حسين موضع تقدير المثقف العربى والآخر الأجنبى، إنما هو طه حسين نفسه ذلك المزيج القوى بين حضارتين متغايرتين، حضارة الشرق، وحضارة الغرب، وعصارة طيبة بين معهدين مختلفين، الأزهر الشريف، وجامعة السربون.. أصوله ما برحت راسخة فى حضارة الشرق تستخلص منها عناصر غذاء لا غناء عنها، وفروعه تسامقت فينانة فى حضارة الغرب تتنسم منها الهواء وتستمد منها النور.

والذى جعل طه حسين مقبولا لدى أغلب التيارات والاتجاهات هو طه حسين الذى جمع فى شخصه بين "الشيخ" و "الدكتور" ملائما أفضل الملاءمة بين نشاطين مختلفين الثقافة العربية الأصيلة والثقافة العربية الحديثة، ثم كان كتاب "مستقبل الثقافة فى مصر" بعد أن استوعب تراثه العربى الإسلامى أيما استيعاب، وأتيح له الاطلاع على حاضرة الغرب دارسا ومدرسا، لينقسم الأدباء والنقاد حول هذا الكتاب بين مؤيد ومعارض.. وهكذا أصبح مألوفا أنه كلما طرح طه حسين أفكارا جديدة تقوم الدنيا ولا تقعد وتتولى كتبه التى تقدم زادا ثقافيا ضخما، الأمر الذى يضع فى أعناقنا مسئولية أمام الأجيال التالية بعدنا، هذه المسئولية تدعونا إلى ترويج هذه الأفكار المستنيرة بإعادة نشر هذه الكتب وهو ما نفعله الآن.

وقد بدأ بالفعل بنشر كتب "فى الشعر الجاهلى" "وأديب" و"فلسفة ابن خلدون الاجتماعية" و"مستقبل الثقافة فى مصر" و "قصص تمثيلية لأشهر الكتّاب الفرنسيين"، بالتبادل مع كتب أخرى عنه مثل: "طه حسين قاضيا" و"مواقف" لصاحب المشروع الأستاذ حسن أحمد جعام، و"طه حسين مفكرا سياسيا" للدكتور رشيد الفرفورى و"طه حسين فى أيامه" للدكتور عطية عامر، و"ماذا يبقى من طه حسين" لكاتب هذه السطور.. وهكذا كتاب من تأليف طه حسين يعقبه كتاب عنه لمؤلف آخر حتى تتكون مكتبة متكاملة باسم هذا المؤلف المفكر الخالد.

ويختم صاحب هذا المشروع الثقافى إجابته قائلا: "هذا المنبر الذى يهتم بعميد الأدب العربى أرجو أن تلتقى حوله جهود تلاميذه وأصدقائه ومريديه، وكل ذوى العقول المستنيرة، للإسهام فى ترسيخ المشروع الثقافى التنويرى الذى عمل من أجله طه حسين منذ عشرات السنين، كلٌ بما تمليه عليه قريحته، حول أدبه وما يتضمنه من

رؤى رائدة للنهوض بالفكر المستنير فى مواجهة الأفكار المتخلفة التى تريد تعطيل مسيرة الأمة".

ولعل صاحب مشروع مكتبة طه حسين قد وفق إلى حد كبير حين اختار الكلمة الأدبية المطبوعة بالذات لتخليد طه حسين، سواء كانت له أو عنه.

فهذه الكلمة الأدبية المطبوعة عند طه حسين، تستطيع أن تحملك على جناحها إلى رحلاته الصيفية فى جبال الألب وسويسرا وريف فرنسا وشواطئ أوروبا، كما تستطيع أن تحملك على جناحها الآخر إلى قرية صغيرة فى أواسط الصعيد لم تستطع أن تحتفظ باسمها حتى الآن، وإنما ظلت على حالها عزبة أو حى الكيلو فيما يكتبه التاريخ، أو لعلها تحملك إلى حياة تقع بين حياة الفلاحين فى صعيد مصر أو بدو صحرائها الغربية.

جناح هذه الكلمة الأدبية المطبوعة قد تضعك فى تيار المعاصرة حينا، أو الأصالة حينا آخر، أو تضعك فى تيار المعاصرة والأصالة معا فى أغلب الأحيان، عندما يحاول صاحبها أن يقيم اتساقا بينهما حيث يريد للقالب الأسلوبى أن يعاصر قراءه ويعاصر الحياة الجارية، كما يريد فى الوقت نفسه لهؤلاء القراء ألا ينفصلوا عن تراثهم العربى، والأهم يريد لهذا التراث وهؤلاء القراء ألا ينعزلوا عن الاشتباك مع الثقافات العالمية المؤثرة ما كان منها عريقا كالثقافات الإغريقية واللاتينية والرومانية، وما كان منها حديثا كالثقافات الأوروبية والأمريكية والآسيوية.

وهكذا منذ البداية وكلمة طه حسين الأدبية المطبوعة المحملة بفكره، لا تستقر لتتجمد فى جانب واحد، أو فى موقع واحد من هذا الجانب، أو من الجوانب الأخرى، وإنما هى كلمة محملة.. برأى لا يستقر كما لو كان جنينا يبحث باستمرار عن لحظة المخاض المواتية، ولكنه مع ذلك استطاع صاحب هذه الكلمة شق طريق كأديب كبير، وأستاذ جامعى، وعميد للأدب، ووزير للتعليم، ومفكر

اجتماعى.. وقبل ذلك وبعده موهبة نادرة لا تكل ولا تمل من الابتكار، ومتسائل لا يزهد ولا يهدأ من إثارة الآخرين بفكره المتحرك المقتحم. ولهذا أقول لقد وفق الأستاذ حسن أحمد جغام فى اختياره الكلمة الأدبية المطبوعة موضوعا لمشروع ثقافى يجمع كتب طه حسين، وما كتبه عنه الدارسون من أصدقائه وتلاميذه ومريديه..

* * *

٣ - طه حسين فى المملكة المغربية

أيام طه حسين فى المغرب أثناء زيارته لهذا البلد الشقيق عام ١٩٥٨، وما تضمنته من أحداث علمية وثقافية تضمنتها وثائق مخطوطة.. سواء فى أحاديثه إلى المثقفين، أو محاضراته إلى جموع الشباب، أو أحاديثه الإذاعية، أو لقاءاته بالمسئولين المغاربة، وفى مقدمتهم العاهل المغربى الراحل الملك محمد الخامس وولى عهده وقتئذٍ الأمير الحسن عاهل المغرب الراحل، أو رئيس الوزراء، وكبار رجال الدولة إلى جانب علماء المغرب وأدبائه.

أقول لو أن هذه الزيارة التى استمرت أسبوعين قد تمت قبل أن يضع طه حسين السطور الأخيرة للجزء الثالث لرائعته "الأيام".. لما تردد فى إضافتها إلى مسيرة حياته، وذلك بسبب أهميتها من الناحية الثقافية ولما لقيه من حفاوة وتكريم من المغرب حكومة وشعبا، وما نتج عنها من أنشطة وفعاليات ثقافية وعلمية ملحوظة، ومأأظهرت من تعاون وثيق بين مصر والمغرب، وما أبدت من تأييد مطلق من مصر للمغرب فى كفاحها المجيد ضد الاستعمار الفرنسى.

ولو أن الباحثين والدارسين والمهتمين بفكر وأدب وسيرة طه حسين، ومنهم كاتب هذه الصفحات - فى كتبه الأربعة عن طه حسين أو مقالاته العديدة بالأهرام وغيرها من صحف ومجلات العالم العربى - قد تنبهوا إلى معنى هذه الزيارة.. لما تردد واحد منهم من تسجيلها على اعتبار أنها مكملة لدور وجهود طه حسين فى خدمة الثقافة العربية قديمها وحديثها.

ولكن ما العمل وتطور البحث العلمى حول دور طه حسين فى الثقافة العربية دائما فى اطراد، وما لهذا التطور المطرد من سلطان يدركه الذين يكابدون مشقة البحث العلمى.. فما العمل وكل يوم نكتشف جديدا حول هذه الشخصية الفذة.. جديدا

ربما يبدل ويعدل، أو يضيف ويستكمل وجهات نظر هؤلاء الباحثين والدارسين والمهتمين بفكر وأدب طه حسين.. وهدف الجميع من ذلك، متابعة ما يستجد من حقائق هى فوق كل عين وكل رأس، على اعتبار أن شخصية طه حسين ذات إشعاع ثقافى فريد لم يقتصر تأثيره على الثقافة المصرية وحدها، وإنما امتد كذلك إلى كل البلاد العربية، فاستحق بجدارة أن يكون عميد الأدب العربى من الخليج إلى المحيط شأنه فى تاريخنا الثقافى شأن الأجداد من العرب الأقدمين الذين ليسوا ملكا لأوطانهم، وإنما هم ملك للإنسانية كلها.

هذه الوثائق الخاصة بأيام طه حسين فى المغرب، لم ينشر عنها شىء سوى هذه الانطباعات التى كتبتها قرينته، والتى لا تزيد على صفحة فى كتابها الذى يسجل ذكريات سنوات عمرها مع العميد وعنوانه: "معك"، والتى حرص محقق الوثائق ومقدمها الدكتور عبد الهادى التازى عضو الأكاديمية الملكية المغربية وعضو مجمع الخالدين فى القاهرة أن يضمها إلى جملة ملاحق بحثه مراعاة للدقة والأمانة العلمية، أو فى هذه الإشارة العابرة فى سطور قليلة من كتاب "ما بعد الأيام" للدكتور محمد حسن الزيات كتبها فى معرض حديث طه حسين عن العدوان الثلاثى على مصر، وموقف فرنسا من الحرية التى تتغنى بها، وتنتهكها فى نفس الوقت فى المغرب حيث استعمرتها، ومصر حيث اشتركت فى العدوان عليها. وهى إشارة لم يلتفت إليها صاحب هذه الوثائق الدكتور التازى، ربما لأنها لا تتصل بصلب بحثه من قريب أو من بعيد!

وأما فى غير ذلك فلا أظن أن أحدا قد سجلها على هذا النحو العلمى الدقيق الذى قام به الدكتور التازى. مع أن لهذه الزيارة بما تضمنته من وثائق.. جوانب مهمة لعل فى مقدمتها ما تسجله من قيمة ثقافية، وهى توطيد وترسيخ العلاقات الثقافية بين مصر والمغرب، إلى جانب ما تلمح إليه من بُعد قومى فى تكوين شخصية طه حسين، وتغليب هذا البعد على ما عداه حتى لو كانت فرنسا التى أحبها واعترف بفضلها، إلى درجة أنه رفض تسلم وسام الفارس الفرنسى تضامنا مع الحركة الوطنية بالمغرب فى كفاحها ضد فرنسا، يضاف إلى ذلك قيمتها العلمية حين تشير إلى امتداد تأثير فكر طه حسين إلى المغرب العربى، وهو دور تغافل عنه نقاده ومؤرخوه، حيث اقتصرت

بحوثهم – تقريبا – حول دور وتأثير طه حسين فى أوطان المشرق العربى، وغير ذلك مما نلمحه من الوثائق.

والسؤال الآن: ما هو دافع الدكتور التازى إلى تسجيل هذه الوثائق؟ وماهى الأسباب التى يسرت له جمعها دون غيره من الباحثين؟

ربما نجد فى تصديره القصير للوثائق شيئا من إجابة هذا السؤال، فالحافز إلى تسجيلها وتحقيقها مزدوج الهدف، فهو أولا وفاء لطه حسين الذى أوقف حياته لخدمة اللغة العربية وآدابها، وثانيا تغطيه لفترة مهمة قضاها بالمغرب فى صيف ١٩٥٨.. وكانت على قصر مدتها ثرية غنية بالعطاء، ومع ذلك لم ينتبه إليها الذين ترجموا له. وأنه أى – الدكتور التازى – كان مرافقا للدكتور طه حسين طوال أيام وجوده بالمغرب. يضاف إلى ما جاء فى هذا التصدير ما كان لهذه الزيارة من أثر فى مسيرة صاحب هذه الوثائق العلمية، حيث أقنعه – أى الدكتور طه – بتغيير مسار حياته العلمية من مجرد خريج لجامعة القرويين إلى الانفتاح على الجامعات الأخرى، فالتحق بجامعة محمد الخامس وحصل منها على دبلوم أهّله للالتحاق بجامعة الإسكندرية ليتم حصوله منها على رسالة الدكتوراه. فكانت نصيحة طه حسين له بمثابة المفتاح السحرى الذى استطاع به أن يفتح كل الأبواب المغلقة حتى وصل إلى ما وصل إليه.

وهذه أول نتيجة للزيارة وهى توجيه الدكتور التازى إلى الطريق الصحيح الذى صنع منه عالما يفخر بعلمه وطنه المغرب، كما تعتز بإسهاماته الأمة العربية. وهى خاصية يتميز بها طه حسين كمربٍ.. يكتشف أصحاب المواهب الخاصة ممن لديهم القدرة على مواصلة العلم والتحصيل ليكونوا بعد ذلك أعلاما فى سماء الفكر.

تأتى بعد ذلك نتائج أخرى لعلنا نتبينها من نصوص الوثائق وتقديمها حيث "تشير إلى الحصار الاستعمارى لفرنسا المفروض على أبناء المغرب، وذلك بمنعهم من التعرف على ما يجرى فى بلاد المشرق، وكيف أنه – أى الدكتور التازى – وجد نفسه سجينا عام ١٩٣٧ لمجرد احتفاظه فى بيته بصور لسعد زغلول ومحمد فريد وقاسم أمين، وكيف عامله الاستعمار معاملة من يحرز المخدرات؟ يضاف إلى ذلك ما سمعه عن طه

حسين قبل الزيارة من أنه وهو وزير للمعارف أنشأ المدارس، وقرر مجانية التعليم.. وما كان لهذه الأعمال من أثر فى يقظة الحركة العلمية بالمغرب، حيث كان الاستعمار الفرنسى يحد من نشر التعليم ويمنع فتح المدارس".

لكن الأهم هو ما موقف طه حسين المؤازر للمغرب بعد نفى الملك محمد الخامس وولى عهده الأمير حسن؟.. حيث كتب مقالات بجريدة الجمهورية فى عامى ١٩٥٣، ١٩٥٤ كان فيها منددا بالاستعمار الفرنسى مؤيدا لحق المغاربة فى طلب الاستقلال. ومن جملة ما قاله فى واحدة منها: "فرض الشعب المراكشى إرادته على فرنسا اضطرارا إلى أن تعترف باستقلاله وسيادته، وأكرهها على أن تفاوض السلطان الذى أنزلته عن عرشه منذ عامين ونفيه إلى جزيرة نائية فى أقصى المحيط، وقررت أنها ستجعله نكالا للثائرين بها والمتمردين عليها فلم يغن عنها مكانها الرفيع.. شيئا، وإنما مضى الشعب المراكشى فى ثورته، وأضاف عنفا إلى عنف..".

هذه المواقف وغيرها عن طه حسين كانت بمثابة البلسم الذى يضمد جراح المناضلين والمبعدين من المغاربة الذين استمروا على كفاحهم، إلى أن عاد الملك محمد الخامس من منفاه محققا للمغرب حريته واستقلاله.

وهو نفس ما كان ينادى به طه حسين ويؤكده فيما كتب.

ومن هنا لم يكن غريبا أن تحتفى المغرب حكومة وشعبا بزيارة طه حسين.. لتعلن صحيفة "العهد الجديد" الناطقة بلسان الدولة فى صدر صفحاتها وبعناوين وحروف جاحظة تغطية لهذا الحدث تسجله الوثائق قائلة: "حظىّ الدكتور طه حسين إثر وصوله إلى الرباط بمقابلة صاحب الجلالة الملك المعظم، وكان الدكتور مصحوبا بمعالى رئيس الحكومة وكبار المسئولين بالمغرب وسفير الجمهورية العربية المتحدة فى المغرب، وقد حضر المقابلة عبد الهادى التازى ممثلا لوزارة التربية الوطنية".

وتمضى الصحيفة قائلة: "كانت المقابلة على جانب عظيم من الحفاوة والود، حيث خاطب صاحب الجلالة الزائر الكريم قائلا: "إننا نرحب فى شخصكم بعالم من أعلام الفكر العربى، والمغرب تتشرف بزيارتكم التى كان يتمناها منذ أمد طويل..".

ويرد طه حسين: "إنى متأثر جدا يا صاحب الجلالة بهذه المقابلة التى أنعمت علىّ بها. والكل يعترف بالفضل العظيم الذى طوقتم به جيد العروبة بكفاحكم واستبسالكم إلى جانب الشعب المغربى الأبى".

ويعقب الملك قائلا: "إن الشعب المغربى يذكر كذلك ما قمتم به أيضا من أعمال أثناء المحنة السياسية التى اجتازها.. ولا تزال عالقة بأذهاننا مواقفكم ومقالاتكم فى الدفاع عن القضية المغربية مما كان له أكبر الوقع والتشجيع للأمة المغربية فى جهادها. إن زيارتكم ستكون لها أكبر الفائدة بالنسبة للمثقفين المغاربة الذين يتعطشون لمناهل العلم فى البلاد العربية".

ثم ينعم الملك محمد الخامس على الدكتور طه حسين بوسام الكفاءة الفكرية.. ليكون أول من تقلد هذا الوسام العلمى السامى فى المغرب بعد استقلاله.

وتبدأ فعاليات الزيارة وأنشطتها كما تسجلها الوثائق بمحاضرة للدكتور طه حسين موضوعها "الأدب العربى ومكانته بين الآداب العالمية" يحضرها رجالات الدولة فى مقدمتهم ولى العهد الأمير الحسن والعلماء والأدباء، وعقب المحاضرة يصرح ولى العهد - حينئذٍ - الأمير الحسن بأنه: "يعتز بأنه أمسى من تلامذة طه حسين.." وقد أبى سموه إلا أن يقيم لطه حسين حفلة استقبال فى قصره الخاص.

وفى لقاء طه حسين بالمثقفين فى الندوة التى نظمها سفير مصر بالمغرب، دعا طه حسين إلى مشاركة المغرب ومصر فى الاهتمام بالتراث العربى القديم، كما دعا إلى الاهتمام بالانفتاح على الثقافات العالمية قائلا: "من المهم معرفة ما عند الغرب إلى جانب ما نعرفه عن قدمائنا، وأن تكون لأنفسنا شخصيتنا الجديدة الحرة المستقلة، فلا ينبغى أن نورث أبناءنا ما ورثناه فحسب، وإنما ينبغى أن نورثهم ما أنتجناه أيضا".

وفى مدينة فاس الثقافية التقى طه حسين بالمثقفين المغاربة وتبادل معهم وجهات النظر. وكان من جملة ما قيل قصيدة طويلة كتبها وأنشدها شاعر المغرب الكبير محمد الحلوى، قال فيها مخاطبا طه حسين:

حق على الشعر أن يهدى عرائسه

تحيـــة لعميد الشعر والأدب

هفا إلى حضنك الدافئ لتنعشـــه

مثل اليتيم الذى يهفو لحضن أب

وفى هذه المدينة الثقافية فاس يلقى الدكتور طه حسين محاضرة موضوعها: "مشاكل الأدب العربى بعد الإسلام"، مشيرا إلى خطأ التقوقع داخل النصوص الأدبية كمصدر للتاريخ الأدبى، ولعله بذلك كان يقصد تحرر الباحثين من عبادة النص الأدبى دون إعمال للفكر فى فهم النصوص الأدبية على ضوء مصادر أخرى، ولعله أيضا اختار فاس بالذات لإلقاء هذه القنبلة لاحتضانها جامعة القرويين التى كانت تعيش على النصوص وفى أحضان النصوص.. وهو ما كان له كبير الأثر فى الأوساط العلمية بعد ذلك.

وفى مدينة الدار البيضاء يتكرر اللقاء بالمثقفين المغاربة، ويستغرب من أن معظمهم كانوا بالسجون أيام الاستعمار، فيعلق قائلا: "إن الذى يزور المغرب بعد استقلاله، إنما يزور وطنا من أوطان البطولة حقا. فمن أعثر الأشياء وأشقها أن تتحدث إلى رجل من رجال الحكم أو الثقافة أو حتى من عامة الناس.. إلا عرفت أن له بالسجن عهدا..".

وفى مدينة تطوان يعقد الدكتور طه حسين حلقة نقاشية مع المثقفين حول مشاكل القراءة، والصعوبة التى يواجهها الشباب العربى فى مسايرة الطريقة المتبعة فى تعليم اللغة العربية وآدابها.. منتهيا إلى أنه إذا لم تصلح هذه اللغة نحوها وتيسره، نجد أنفسنا مسئولين عن إعراض الشباب عن القراءة، بل نعتبر أنفسنا محرضين على ذلك، وينبه إلى مشكلة الكتابة العربية التى تفرض الفهم قبل القراءة بدلا من أن تسبق القراءة الفهم.. نظرا لعوامل الشكل والإعراب المعروفة فى لغتنا العربية.

إلى آخر هذه الأفكار الجريئة التى تضمنتها الوثائق..

وفى الختام نقول: إن لهذه الوثائق المخطوطة - كما أشرنا - أهمية علمية وثقافية.. أمرا يجعلنا نطالب بتخصيص كتاب لها ينشر مستقلا، أو أن يسمح للمجلس الأعلى للثقافة بنشره تعميما للفائدة، وتأكيدا لأواصر العلاقات الثقافية بين مصر والمغرب.

٤ - طه حسين وثورة الجزائر

ولأن طه حسين كان عميدا للأدب العربى ككل، وليس عميدا لأدب المشرق دون المغرب، أو العكس، فإنه بذلك كان شديد الحرص على مناصرة كل القضايا المتصلة بحرية واستقلال كل أقطارالوطن العربى من الخليج إلى المحيط. فلم تقتصر هنا مناصرته على قضايا المشرق أو حتى وطنه مصر، وإنما حرص أيضا على مناصرة قضايا المغرب العربى كما رأينا فى كل من تونس والمغرب، وكيف أنهما اهتمتا بهذه المناصرة وذاك التأييد بشكل وضح فى زيارته لتونس عام ١٩٥٧، وللمغرب عام ١٩٥٨.

كذلك لم تبعد الجزائر وثورتها التحررية عن ذاكرة طه حسين، وموقفه من هذه الثورة فمن المؤكد ليس كما صوّره بعض الكتّاب الجزائريين بشكل يغلب عليه الانفعال والتسرع فى الحكم. وقد يكون لنا على ماكتبه الجزائريين بشكل يغلب عليه الأنفعال والتسرع فى الحكم. وقد يكون لنا على ما كتبه هؤلاء الأشقاء الجزائريين ملاحظات ومآخذ، غير أننا فى هذه المرة نفضل أن تكون هذه المآخذ وتلك الردود من أحد الكتّاب المغاربة أنفسهم، على اعتبار أن الدفاع عن طه حسين ومواقفه لاتخصنا وحدنا، وإنما تخص أيضا بقية الأقطار العربية، لأنه ليس ملكا لنا، وإنما هو ملك للأمة العربية كلها التى ارتضت أن تجعله عميدا لأدبها العربى.

لهذا ولغيره فضلت أن يكون الدفاع عن طه حسين وموقفه من ثورة الجزائر من كاتب تونسى أدرك مواقفه من هذه الثورة. فسبقنا بالكتابة عن هذا الموقف فى فصول ممتعة ومهمة بكتابه "طه حسين والمغرب العربى". حيث أرى فيما كتبه هذا الكاتب وهو الأستاذ أبو "القاسم محمد كرو" ردا جليلا على ما صوّره الأشقاء الجزائريين عن طه حسين.. ولعلنى فى ذلك أحرص على نقل ما كتبه الأستاذ كرو بصورة تكاد تكون حرفية. حيث لا أتدخل إلا فيما يوضح تفاصيل ما تسجله فى فصوله بشكل أرجو ألا يخل بما أراد أن يسجله فى الرد على هؤلاء الأشقاء الجزائريين، مؤكدا فى

الوقت نفسه أننى أتفق معه فيما كتب من بدايته.. نعم أتفق معه شكلا ومضمونا، وبأنه على قلة ما كتبه الجزائريون عن طه حسين فى حياته، وبعد وفاته، فإنه شديد اللهجة، كثير المرارة، وربما فيه قسوة وبعض الظلم. والسبب فى نظرهم أن طه حسين لم يكتب عن ثورة الجزائر الأخيرة شيئا، وأنه كتب ما كتب متأخرا جدا، وأنه لم يكتب عن هذه الثورة إلا مقالتين!

ومن يتابع ما كتبه طه حسين عن الجزائر، يدرك أن هؤلاء الكتّاب قد ظلموا طه حسين بعض الظلم، وأنهم لم يعرفوا ما كتب عن الجزائر، وما قام به نحوها. إنه كاد من أجلها يغضب غضبا شديدا على فرنسا، وأن يعيد إليها وسامها، ولعله أعاده إليها بواسطة زوجته الفرنسية.

هذه الزوجة التى زارت الجزائر، وأقامت فيها هى وابنها الوحيد (مؤنس) عشرة أيام، وتحدثت عنها بعطف شديد خلال الحرب العالمية الثانية (سنة ١٩٤٢)، عندما أجبرتها الحرب - كما أجبرتها باخرتها - على الرسو فى ميناء الجزائر، قبل الوصول إلى ميناء مرسيليا.

وقبل الحديث عن (طه حسين والجزائر) وما كتبه عنها من مقالات، وما له نحوها من مواقف مشرفة، يحسن الحديث عن الكتّاب الجزائريين وما كتبوه عن طه حسين، أو نقلوه عنه فى الجزائر خلال الثورة وبعدها على الرغم من قلتهم فى العدد.

ويمكن ملاحظة أمرين اثنين هما:

الأمر الأول: أن بعض هؤلاء الكتّاب يدلى بشهادته الوثيقة كشاهد عيان لزيارة طه حسين إلى تونس عام ١٩٥٧، وقد استمع إليه - فى المناسبة - مرتين على الأقل، المرة الأولى عندما خطب طه حسين فى جامع الزيتونة، والمرة الثانية عندما ألقى طه حسين محاضرته فى قاعة البالماريوم. وقد انفرد فى المرتين - كشاهد عيان - بتفاصيل لم تذكرها الصحافة التونسية، على الرغم من اعتماده عليها. وهو الكاتب الجزائرى محمد الصالح الصديق.

ويبدو واضحا فى سيـــاق بحث هذا الكاتب الجزائرى (محمد الصالح الصديق) أنه يزج فى بحثه بكتب لطه حسين عن الشعر الجاهلى وعن الإسلام. وهى لا علاقة

لها بالجزائر وبثورتها من قريب أو بعيد، وجميعها صدر قبل هذه الثورة بعقود من السنين. والكاتب يعرف ذلك جيدا، ولكنه لم يستطع أن يخفى تحامله على طه حسين بسبب آرائه فى كتبه: "فى الشعر الجاهلى" و "على هامش السيرة" و "مستقبل الثقافة فى مصر".

وهو يردد هنا ما سبقه إليه أنور الجندى الذى تناقض مع نفسه، ومع كتبه الأخرى التى كتبها فى شبابه.

ويذكر الأستاذ كرو فيما كتب أن كاتب هذا البحث (محمد الصالح الصديق) كان تلميذا فى الزيتونة، عندما زار طه حسين تونس عام ١٩٥٧، وأن له ذاكرة حية عندما وصف خطاب طه حسين فى الزيتونة، وتحدث عن محاضرته الوحيدة فى تونس.

الأمر الثانى: أن عدد هؤلاء الكتّاب قليل جدا، ومع ذلك فقد اخترنا مقالة واحدة من مقالاتهم، لأنها ذات معنى: وهم حسب تاريخ ظهور ما كتبوه أو نقلوه:

١ - أبو القاسم سعد الله: جريدة البصائر ١٩٥٦.

٢ - الطيب برغوث: مجلة الثقافة ١٩٧٥.

٣ - محمد الصالح الصديق: جريدة السلام ١٩٩٢.

٤ - تبلولت كمال: جريدة الشعب ١٩٩٣.

أبو القاسم سعد الله: ينقل أبو القاسم من القاهرة مقالات طه حسين التى بها دفاع عن الجزائر وثورتها، ومنها بالخصوص مقاله المطول "نفوس للبيع" المنقول فى "البصائر" الجزائرية عدد ١٩٥٦/٢/١٧. ومقال طه حسين المطول الآخر "إرادة الشعب" المنقول أيضا فى "البصائر" عدد ١٩٥٦/٣/٢٠.

الطيب برغوث: فإنه يدافع عن الثورة، وينقل كلاما ضد طه حسين، ويتظاهر بالحياد.

محمد الصالح الصديق: كتب عن طه حسين أربع حلقات طوال، تحامل فى الحلقة الرابعة على طه حسين، وكان شاهد عيان ممتاز فى الحلقتين الأولى والثانية أثناء زيارة

طه حسين لجامع الزيتونة، وعندما ألقى محاضرته فى البالماريوم، ولأنه انفرد كشاهد عيان بمعلومات لم تنشر من قبل.

تبلولت كمال: الذى ردد ما قاله الآخرون، وزاد عليهم معلومة جديدة واحدة، ولكنها مفيدة وفريدة فى الوقت نفسه، هى قوله:

".... وبعد استقلال الجزائر، وفى ١٤ جوان ١٩٦٤، قررت جامعة الجزائر منح الدكتور طه حسين عميد الأدب درجة الدكتوراه الفخرية. وهو أول عربى يفوز بها، كما جاء ذلك فى جريدة الأهرام القاهرية فى ٢٥ جوان ١٩٦٤. وهذا تكريم لنضاله الطويل والحافل فى ميدان الأدب والنقد والصحافة والإصلاح والتربية والتعليم".

هذه هى أهم المواقف والتفاعلات التى عرف بها الدكتور طه حسين فى الجزائر، على الرغم من تباينها وتمايزها طيلة فترة حياته الطويلة والحافلة. كما سجلها الأستاذ كرو، وكما يوضحها فى بقية هذه الصفحات.

وكان طه حسين بقيد الحياة وفى الخامسة والسبعين من عمره عندما منح هذه الشهادة. وإسناد الدكتوراه الفخرية لطه حسين من جامعة الجزائر بعد نوالها الاستقلال مباشرة، يدل بوضوح على ما يلى:

١ - أن طه حسين قد أفاد الجزائر بمقالاته، وأيضا بمواقفه.

٢ - أنه رد قوى على من كتب، أو ما سيكتب ضد طه حسين دفاعا عن الجزائر.

٣ - أن طه حسين كان عاجزا صحيا عن زيارة الجزائر، بعد أن زار تونس عام ١٩٥٧ والمغرب عام ١٩٥٨.

٤ - أن ما كتبه طه حسين من مقالات عن الجزائر وأدبائها، يمكن أن يجمع فى كتاب، لو أراد هو أو واحد من مريديه ذلك.

٥ - أنه انفراد جزائرى وخصوصية جزائرية من جامعة الجزائر التى أسسها الفرنسيون منذ القرن الماضى فى أرض الجزائر التى كانوا يعتبرونها بمقتضى الدستور، أرضا فرنسية، ولم يكن فى تونس أو المغرب جامعات حديثة من أى نوع كان زمن الاستعمار، فأرادت الجزائر أن تنفرد بشىء خاص بها عن جارتيها شرقا وغربا!!

أما مقالات طه حسين دفاعا عن الجزائر فهى كثيرة، نكتفى بذكر المهم منها. ومن تلك المقالات:

١ - "نفوس للبيع"، وهو منشور فى جريدة الجمهورية القاهرية بتاريخ ١٩٥٦/١/٢٥، ونقلته جريدة البصائر الجزائرية بتاريخ ١٩٥٦/٢/١٧.

٢ - "إرادة الشعب"، الذى نقلته البصائر بتاريخ ١٩٥٦/٣/٢٠، والمؤكد أنه نشر قبل ذلك فى الجمهورية التى كان طه حسين أحد رؤساء التحرير بها.

٣ - "غضب"، وهو أيضا منشور فى الجمهورية بتاريخ ١٩٥٤/١/٦.

٤ - "الوزير المستجدى"، وهو منشور فى الجمهورية بتاريخ ١٩٥٨/٨/٢٩.

٥ - "رحلة" نشرها فى الجمهورية بتاريخ ١٩٥٨/٨/١٨ عن رحلة ديجول إلى إفريقية. ويكفى شعار طه حسين الذى جعله قبل عنوانها، وهو قوله فيها: "كل شىء ممكن..إلا أن تزعم فرنسا أنها تملك قلوب الناس فى مستعمراتها. حقا.. قد تملك أجسامهم إلى حين. أما قلوبهم فيملكها شىء آخر غير فرنسا، يسمى "الاستقلال".

٦ - "قضية الجزائر"، وهو فصل كبير ومهم كتبه طه حسين عام ١٩٥٨، واشترك به فى كتاب طبع فى نفس العام دفاعا عن الثورة وعن الجزائر.

٧ - "خدعة" نشر فى الجمهورية ١٩٦٠/٣/٢٦.

٨ - "أزمة الضمير العربى" نشر فى الجمهورية ١٩٦٣/٣/١٦.

٩ - "أزمة الضمير العربى" نشر فى الجمهورية ١٩٦٣/٣/٢٨.

١٠ - "طه وديجول": ويرى الدكتور محمد حسن الزيات قول طه إلى ديجول، عندما زار القاهرة أثناء الحرب العالمية الثانية، وديجول زعيم فرنسا الحرة يومئذ:

ويقول طه حسين فى شىء من الشك: "ذلك بشرط أن تتعلم الدول الكبرى ألا تكيل بمكيالين، بشرط ألا ترى ضرورة تحقيق الحرية والعدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان لشعوبها هى ولا ترى لشعوبنا نحن حقا فى هذا كله. عندما جاء الجنرال

ديجول إلى مصر، وهو رئيس لفرنسا الحرة، قلت له: لا يمكن أن تطالب فرنسا باستقلالها وبحريتها، وهى تنكر على الشعوب الواقعة تحت سلطانها هذا الاستقلال وهذه الحرية. وقد وافق ديجول.. فقد كان يعرف، لبعد نظره، أن عهد الاستعمار إلى زوال.. وعندما جاء الجنرال كاترو بعد ذلك كانت فرنسا الحرة قد استجابت، فيما ظهر، إلى ما طالبته به، وأعلن الجنرال كاترو شيئا من ذلك من راديو القاهرة. وسنرى الآن ماذا تفعل فرنسا بعد النصر فى الأراضى العربية الواقعة تحت سلطانها، وماذا يفعل الإنجليز فى العراق وفلسطين والسودان".

وبصرف النظر عن مقالاته تلك، وعن غيرها من المقالات، فقد أسهم طه حسين فى كتاب مشترك مع مصريين وجزائريين كبار مشهورين، وكان هو - كعادته - فى طليعتهم. وكان البشير الإبراهيمى الجزائرى معهم.

هذا الكتاب الذى كان عنوانه: "مع الجزائر" يعد مساهمة من جمعية الأدباء فى الثورة الجزائرية عام ١٩٥٨، وهو عام طبعه، وعنوانه دال عليه. وقد اشترك بمقالات فى هذا الكتاب خمسة عشر كاتبا، وقدم لهم وأشرف على الكتاب يوسف السباعى، وهم على ترتيبهم فى الكتاب، كما يلى:

مقدمة: يوسف السباعى

د. طه حسين	البشير الإبراهيمى
إبراهيم غافر	د. لويس عوض
أحمد بهاء الدين	سلامة موسى
مرسى سعد الدين	أنور عبد الملك
رمسيس يونان	رجاء النقاش
يوسف إدريس	ألفريد فرج
عبد العاطفى جلال	محمود يوسف
محمود أمين العالم	

والحق أن هذا الثبت الذى أورده الأستاذ كرو حول ما كتبه طه حسين عن الجزائر يعتبر عملا مشكورا كما تقتضيه الأمانة العلمية والموضوعية أن يسجل فى الوقت نفسه قائلا: لم يتحمل المغاربيون من طه حسين ألا يكون له موقف واضح من ثورة الجزائر أثناء زيارته لتونس عام ١٩٥٧ والمغرب عام ١٩٥٨، كما لم يتحملوا محاضراته فى المدن المغاربية، وخاصة فى تونس والرباط وفاس، والتى كانت كلها أدبية، فكتبوا ضده وضد مواقفه (الصامتة) من الجزائر وثورتها.

وكنت شخصيا - أى الأستاذ كرو - من هؤلاء، فأشرفت فى سلسلة "كتاب البعث" على الكتاب الثانى والعشرين "شلال الأسود"، وفيه مقالة ضد طه حسين عنوانها: "قف عن الحديث".

ولكن الراسخون فى العلم أمثال: الشيوخ محمد الطاهر بن عاشور وابنه محمد الفاضل والشيخ البشير الإبراهيمى، وغيرهم من كبار الأدباء والسياسيين، كانوا على علم ومعرفة بمواقف طه حسين الحقيقية نحو الشمال الإفريقى وخاصة الجزائر. ولا يعلن طه حسين هذه المواقف، ولا يميل إلى الحديث عنها، ولكنه يطبقها إن وجد إلى ذلك سبيلا.

ويشير الأستاذ كرو إلى مواقف طه حسين قائلا:

"وأما مواقفه من الجزائر، فهى - على الأقل - تبدأ من عام ١٩٥٠، حين كان وزيرا للمعارف فى مصر. فقد أراد فى هذا العام أن يؤسس فى الجزائر معهدا لتعليم اللغة العربية، فصدته فرنسا، على الرغم من مكانته لديها ومكانته كوزير لمعارف مصر. ولم تصده بعنف فقط، بل رفضت طلبه الآخر المتعلق بإرسال أساتذة مصريين إلى تونس لتدريس الفلسفة، فحز هذا الرفض فى نفسه، ولكنه حقق هدفه بشكل آخر فى إسبانيا تحت اسم "المعهد الإسلامى المصرى بمدريد"، وهو يعمل للآن، إذ يتمتع طه حسين وهذا المعهد بسمعة عالية وإنجازات كبيرة.

ولو قبلت منه فرنسا هذا الطلب لتمادى واستمر فى برامجه وطموحاته الأخرى، لا فى الجزائر وتونس فقط، بل فى المغرب وفى جميع البلاد العربية التى كانت يومئذ ترزح تحت الاستعمار.

ولم تكن فرنسا ضده فقط، بل كان معظم الوزراء المصريين أيضا ضده وضد اتجاهاته العربية، وقد وصل أمره معهم إلى التهديد بالاستقالة، بل استقال فعلا عام ١٩٥١ من وزارة المعارف، وربض فى بيته، فرفض مصطفى النحاس رئيس الحكومة يومئذٍ استقالته.. وعاد طه حسين إلى منصبه وإلى مناصراته العربية فى الجزائر والمغرب وإسبانيا المطلة بظلالها على المغرب والجزائر!

وهذا صهره الدكتور محمد حسن الزيات فى كتاب "ما بعد الأيام"، يسجل ذلك ويتحدث عنه قائلا: "يقول طالب آخر: لقد سمعت أن طه حسين يعمل لإنشاء معهد مصرى فى الجزائر أيضا.

"ويرد الأول: لقد سمعت أن هناك وزراء حاليين ينتقدون فتح المعاهد الثقافية المصرية فى خارج البلاد.

"وينعقد مجلس الوزراء ذات يوم، وينصرف الوزراء بعد الاجتماع، ويلزم الدكتور طه حسين منزله فى اليوم التالى، ليملى على سكرتيره خطابا إلى رئيس الوزراء، يقول فيه:

"حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس الوزراء.

"أتشرف بأن أرسل لمقامكم الرفيع استقالتى من الوزارة، بعد الدرس القيم الذى سمعته أمس من أحد الزملاء الوزراء الذى علمنى التواضع، وأقنعنى بأنى لا أصلح للوزارة، لأنى أحسن القشور من إنشاء المعاهد التى لا تغنى.

"ولست أرى بأسا من أن يأخذ مجلس الوزراء برأى الزميل الكريم، فيعدل عن إنشاء معهد الجزائر، ويلغى معهد مدريد، وكرسى محمد على بمركز البحر الأبيض المتوسط بمدينة نيس، وكرسى اللغة العربية بجامعة أثينا، فكل هذه قشور لا تحارب الاستعمار، ولا تحقق استقلال الأمم العربية.

"عزيز علىّ أن أشق على مقامكم الرفيع بهذه الاستقالة، فى وقت أنتم أحوج ما تكونون فيه إلى التفرغ لما تعنى البلاد به كلها من جلائل الأعمال، ولكن من تواضع لله رفعه، وصدق الشاعر حين قال:

"من جهلت نفسه قدرها   رأى غيره فيه ما لا يرى

وقد كنت أجهل قدرنفسى إلى أمس، فقد عرفته الآن..

"ولمقامكم الرفيع أخلص تحياتى، وأصدق مودتى وأمتن وفائى".

أول أكتوبر ١٩٥١

طه حسين(*)

"وترفض الاستقالة.

"وبعد أيام فى مجلس الوزارء يتحدث وزير المعارف طه حسين مع رئيس الوزراء، فيقول:

"طه حسين: فيما يخص معهد الجزائر. الإخوة أهل الجزائر يرحبون به، بل يطالبون به، وكنت أتحدث فى هذا الموضوع مع السفير الفرنسى فى مصر، فرحب به هو شخصيا، وكتب لحكومته التى أخذت تبعث بأسئلة واستيضاحات لا معنى لها ولا سبب، إلا الرغبة فى التسويف، ثم الرفض.

"ويرد رئيس الوزراء النحاس باشا: طبعا، فرنسا تعتبر الجزائر جزءا منها، واللغة الفرنسية هى لغة المستوطنين الفرنسيين الذين يعتبرون أنفسهم أصحاب البلاد. وإنشاء مصر معهدا للحضارة الإسلامية والعربية فى الجزائر معناه مقاومة هذا الاتجاه الاستعمارى، وهذا لن تسمح به باريس، لن تسمح به حتى يضطرها الجزائريون، وتضطرها مصر، ويضطرها العرب جميعا إلى ذلك!

"ويقول طه حسين: وزارة المعارف كانت تفكر فى التقدم لمجلس الوزراء بمشروع إنشاء مدارس مصرية ثانوية فى شمال إفريقية، وغيرها على مثال الليسيه التى تنشئها فرنسا خارج بلادها، ولو توافرت لنا الإمكانات لاستطعنا أن نفرض إنشاء هذه المدارس فى البلاد العربية الواقعة تحت الاستعمار، وذلك بتهديدنا للحكومات الاستعمارية بإغلاق مدارسها عندنا إذا هى لم توافق على إنشاء مدارسنا فى الأراضى العربية التى تحتلها.

(*) نص خطاب أرسله الدكتور طه حسين إلى رئيس بجلس الوزراء (تعليق الزيات).

"ويقول النحاس باشا: طبعا هذه الأفكار واردة فى كتاب "مستقبل الثقافة"، وطبعا ستذكرنى بأننى مرتبط. أنا غير ناسٍ لكن واحدة واحدة.

"والآن ندخل الجلسة، وسترى أن أحدا من إخواننا لن يعارض آراءك.

"فى منزل الوزير: طه حسين يتحدث مع الدكتور محمد كامل حسين، ومع الدكتور حسين فوزى والأستاذ توفيق الحكيم عن معهد الأحياء المائية المقام فى قايتباى، ومجهود الدكتور حسين فوزى هناك، ويستطرد الحديث إلى الموسيقى وإلى دور الكونسرفتوار فى مستقبل الموسيقى فى مصر. ويقول الدكتور حسين فوزى: إنكم ساعدتم على إحداث ثورة التمثيل فى مصر. بإنشاء معهد التمثيل وشاركتم فى أول امتحان عقد فى عام ١٩٣٠ فى نادى الموسيقى الشرقى للمتقدمين والمتقدمات للالتحاق بالمعهد.

"يقول طه حسين: نعم، كانت لجنة الامتحان برئاسة الأستاذ محمد حسين العشماوى سكرتير عام وزارة المعارف فى ذلك الوقت، وكان من أعضائها الأستاذ جورج أبيض وزكى طليمات وإبراهم رمزى. ثم جاء الوزير حلمى باشا عيسى فألغى المعهد، ولكن حلمى عيسى ذهب، والمعهد بعث بعد ذلك من جديد، وكان له أثره الكبير فى تطوير التمثيل.

"ويقول كامل حسين: نريد مزيدا من الاهتمام بالمعاهد الثقافية فى الخارج أيضا.

"ويرد طه حسين قائلا: نحن الآن مشغولون بإنشاء معاهد للغة العربية والدراسات الإسلامية خارج مصر. إن اللغة العربية مهددة فى الجزائر وشمال إفريقية، ويجب على مصر أن تعين أهل المغرب فى جهادهم للمحافظة على لغتهم وثقافتهم.

"كمال حسين: إن كتاباتك وكتابات الأدباء المصريين تهرب إلى إخواننا فى المغرب تهريبا، ومجلة مثل "الرسالة" يتداولها أهل الجزائر سرا، ويعرفون منها أن اللغة العربية حية كاللغة الفرنسية، وليست لغة متحجرة منقرضة، كما يريد المستعمر أن يفهمهم، ولهذا تحارب سلطات الاستعمار مؤلفات طه حسين ومجلة الرسالة، وما يماثلها.

"ويرد طه حسين: هيهات، لن يفلحوا فى أن ينسى أهل المغرب لغتهم. إن جامعة الزيتونة لها فى المغرب مقام يقارب مقام الأزهر عندنا".

وهكذا رجع طه حسين إلى الوزارة، ونفذ مشاريعه فى إسبانيا واليونان وفرنسا، ولكنه لم يستطع تنفيذها فى أقطار المغرب العربى، وخاصة فى الجزائر. وفرنسا التى سمحت له أن يؤسس ما يريد فى بلادها، ترفض أن يؤسس فى الجزائر أى شىء، لأن الجزائر عندها ليست عربية، وهى أخطر من فرنسا!! ثم هى مغلقة تماما على غير الفرنسيين، على حين كانت فرنسا نفسها مفتوحة لهؤلاء. وقد أدرك طه حسين هذه الحقيقة فكتمها فى نفسه إلا عن زوجته وصهره الدكتور محمد حسن الزيات وزير الخارجية الأسبق.

* * *

خامسا : معارك واتهامات

١ - أول ضحية للمعرفة بالسماع.

٢ - طه حسين متهما تدافع عنه مؤلفاته وأعماله.

٣ - مرجليوث يبرئ طه حسين.

٤ - نص مقالة مرجليوث فى البراءة.

٥ - مساجلتان هادئتان حول معارك ساخنة.

٦ - قضايا الشعر الجاهلى والدرس المفيد.

١ - أول ضحية للمعرفة بالسماع

قبل مناقشة كتاب "فى الشعر الجاهلى" ينبغى أن نتفق على أن المعرفة بالسماع شر بكل ما تعنى هذه الكلمة من معانى، يكفى شر هذه المعرفة أن يصورها صاحبها على أنها معرفة حقيقية تنتقل من شخص إلى آخر دون العودة إلى الأصول، والأكثر أن تُبنى على هذه المعرفة السماعية أحكام خاطئة، والأخطر أن تمثل هذه المعرفة خداعا بالنسبة للقارئ العادى الذى لا يملك استعدادا ثقافيا يؤهله لفرز الأصيل من الدخيل. وتكون النتيجة حمله على تصديق ما تتضمنه هذه المعارف السماعية من أحكام ظالمة مرة باسم الدين والغيرة عليه، ومرة باسم العلم والدفاع عنه، ومرة باسم القومية والانتماء إليها.. وهكذا تنتقل هذه المعرفة من شخص إلى آخر، بل وتتجاوز الحدود حين تصبح - وهى فى الأصل خداع ووهم - مصدرا يرجع إليه الباحث.

وقد أضير الكثيرون من مفكرينا بسبب شيوع هذا النوع من المعارف، وفى مقدمة من أضيروا عميد الأدب العربى طه حسين، فكان لا يكتب شيئا، إلا ويحمله البعض أكثر مما يحتمل، ثم تنتقل هذه المعرفة فى شكلها الجديد من مصدر لآخر، حتى تنتشر وتصبح كالحقائق.

ومن أمثلة هذا الأسلوب مع كتابات الدكتور طه حسين، ما حدث لكتابه "فى الشعر الجاهلى"، حيث عامل البعض هذا الكتاب بشكل يجانب كل ما تعارف عليه العلم من موضوعية فى الحكم أو دقة فى النقل. واتهم صاحبه باتهامات ظالمة منها السطو والإلحاد. ولقد كان الكاتب الأشهر مصطفى صادق الرافعى - رحمه الله - أول ما تولى كبر هذا الهجوم المكثف على الدكتورطه حسين فى كتابه "تحت راية القرآن"، الذى صدر عام ١٩٢٦. حيث تقرأ فى صفحتى (١٩٠ ، ١٩١) مثالا صارخا للمعرفة بالسماع حين يقول: "لقد أخذ - يقصد طه حسين - فكرة الشك فى

شعر الجاهلية عن المستشرقين أيضا. فقد كان قد حدثنا (مجرد حديث) الأستاذ العلامة صاحب مجلة المقتطف – يقصد فؤاد صروف – فى شهر سبتمبر من السنة الماضية أن مجلة الجمعية الآسيوية نشرت بحثا للشيخ مرجليوث المستشرق الإنجليزى المعروف. ذكر فيه صحة الشعر الجاهلى (معرفة بالسماع)، ثم ساق لنا الأستاذ بعض أدلته فلم نجد فيها مقنعا ولا رضا، وقلنا: رأى فى العلم لا علم.. ولما فتحت الجامعة، إذ المستر طه حين ينتحل الفكرة ويدعيها (معرفة بالسماع) ويبوب لها أبوابا، ويفصل فصولا، ويدرس ذلك فى الجامعة".

ويستطرد الأستاذ الرافعى فى حديثه فنقرأ بعد سطور قليلة شغلها بسيل من الهجوم على الجامعة المصرية التى تختار طه حسين أستاذا بها. ونسى فى هذه السطور وما بعدها القضية الخطيرة التى كان قد فجرها، وهى قضية سطو طه حسين على مرجليوث لينتقل فجأة إلى عقد مقارنة بين نظرة طه حسين للشعر الجاهلى ونظرة ابن سلام الجمحى (١٣٤ – ٢٣١هـ)، وتستغرقه هذه المقارنة صفحات من بعدها تبدو حقيقة مر عليها الكثيرون من أنصار طه حسين ومعارضيه مرور الكرام، وهى أن طه حسين متأثر فى نظرته للشعر الجاهلى بابن سلام.

ثم يجتزئ الأستاذ الرافعى بعض العبارات من كتاب "فى الشعر الجاهلى" يجعلها – عن قصد – غير مرتبطة بما قبلها أو ما بعدها. حتى تحمل المعنى الذى يريده على طريقة ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ﴾[1] أو يذكر ما تتضمنه عبارات الكتاب بالصورة التى يريدها هو، حتى يكون هناك تبرير للهجوم المكثف على الكتاب وصاحبه.

والغريب أن هذه العبارات.. تنقل عن الرافعى نقلا حرفيا على أنها عبارات من كتاب طه حسين. فى الكثير من الكتابات المعاصرة التى يحلو لها التهجم على طه حسين، دون الرجوع إلى كتابه الأصلى. إما استنادا إلى أن هذه العبارات حذفت مع غيرها فى الطبعة الثانية ويتعذر الرجوع إليها، أو قصدا للهجوم على الكتاب وصاحبه بنفس أسلوب الرافعى، أو تقاعسا وكسلا عن مواصلة البحث عن المعرفة فى مظانها الأولى مهما كانت المشقة.

---

(١) النساء/ ٤٣.

لكن الأغرب من ذلك أن يسجل الأستاذ الرافعى ما يشكك فى اتهامه لطه حسين بالسطور ففى ص ٢٢٩ يقول: "قبل أن يجرى القلم فى هذه الكلمة نصحح قولا جئنا به فى بعض ما كتبناه، فقد ظننا أن أستاذ الجامعة - يقصد طه حسين - أخذ فكرة الشك فى شعر الجاهلية عن المستشرق مرجليوث. ولكن أحد الفضلاء نبهنا (معرفة بالسماع) إلى أن هذه الفكرة من آراء مستشرقى الألمان وهى مبسوطة بكثير من أدلة طه حسين..".

وانظر عزيزى القارئ إلى اتهامات كهذه تلصق بأستاذ جامعة كطه حسين، لمجرد أن كاتبها الرافعى قد سمع بها من صاحب صحيفة المقتطف، الذى سمع بها من ثالث هو أحمد تيمور باشا. ألا تقتضى من هؤلاء استقصاء، أولى خطواته مطابقة ما كتبه كل من طه حسين ومرجليوث، ودراسة نظرة طه حسين للشعر الجاهلى فى إطار الثقافة العربية وهل هو حقا متأثر بابن سلام؟ وتوكيد مسألة الشك فى الشعر الجاهلى، وهل هى فى الأصل من أعمال العرب الأقدمين، أم أنها كانت من أعمال غيرهم؟ وهل المستشرقون كانوا عالة على العرب، أم أنهم كانوا مكتشفين لهذه النظرية النقدية؟

والسؤال الآن: لماذا تحامل الأستاذ الرافعى كل هذا التحامل على طه حسين؟ لدوافع شخصية فلت سرها من الأستاذ الرافعى نفسه فذكر فى ص ١٠٨ من كتابه "تحت راية القرآن" أن طه حسين هاجم ثلاثة من كتبه هى "رسائل الأحزان" و"حديث القمر" و "الجزء الأول من كتابه تاريخ آداب العرب" الذى هاجمه طه حسين بقوله: "وهذا الكتاب كسابقيه نشهد الله على أننا لم نفهمه أيضا". وبديهى أن يمثل هجوم طه حسين على الرافعى إلى جانب خيبة أمل الرافعى فى أن تضمه الوليدة إلى هيئة تدريسها واختيارها لطه حسين. كل ذلك وغيره أوجد لدى الرافعى أسبابا ومبررات ودوافع للهجوم على طه حسين.

وإذا كان للرافعى وهو كاتب ما أشبهه بالقلعة المحصنة تخرج منها قذائف الهجوم ولا تدخل إليها.. دوافعه ومبرراته.. فكيف ينطبق ذلك على من تأثر به ونقل هذه الأقوال عنه؟ كيف يهاجمون طه حسين فى عقيدته ويرمونه بالكفر والإلحاد؟

وحتى حين يعلن طه حسين – فى خطاب للجامعة – بأنه لم يرد بما كتبه إهانة الدين أو الخروج عليه لا يصدقه الأستاذ الرافعى ويهاجمه قائلا: "هو تراجع المضطر المستذل". وينتقل ذلك الأسلوب إلى غيره من الكاتبين وكأنهم قد دخلوا فى قلبه وفتشوا فيه عن الإيمان أو غير الإيمان، ومن ذا الذى يملك أن يفتش فى القلوب ويعرف أسرارها غير الله سبحانه وتعالى؟!

وإذا كان للأستاذ الرافعى عذره فى أنه لم يقارن ما كتبه طه حسين بما كتبه مرجليوث بالإنجليزية لسبب أو لآخر، فما هو عذر الناقلين عنه؟! ما عذرهم وقد تقدم البحث العلمى خطوات فى هذا الموضوع بشكل أثبت براءة طه حسين من تهمة السطو التى قال بها الأستاذ الرافعى؟! وما عذرهم وقد صدرت فى هذا الشأن كتابات لعلماء ومفكرين عرب لا يشك أحد فى دفاعهم عن الإسلام وانتماءاتهم للعروبة، ومنهم الدكتور عبد الرحمن بدوى الذى أصدر كتاب "دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلى" فيه ترجمة كاملة لمقالة مرجليوث وتعليق ينفى هذا الاتهام؟! ثم ما عذرهم بعد ظهور الدليل الحاسم فيما كتبه مرجليوث نفسه عام ١٩٢٧ بالمجلة التى نشر فيها مقاله عن الشعر الجاهلى مؤكدا عدم وجود أية صلة بين ما كتبه طه حسين وما يكتبه هو عن هذا الشعر؟!

ليت ما حدث لكتاب "فى الشعر الجاهلى" يكون درسا مفيدا للذين يستخدمون المعرفة بالسماع فى أعمالهم يقول لهم: "خذوا المعرفة من مظانها ومصادرها الأولى".

وليتنا ندرك خطورة هذا النوع من المعرفة التى تعتمد على السماع وليست المعرفة الموثقة، هذه المعرفة السماعية كانت أول ضحية لها هو عميد الأدب العربى طه حسين، وأعتقد أن هناك ضحايا كثيرين لهذه المعرفة التى أصبحت كالآفة فى كل حياتنا وليست الثقافية فحسب، بل والسياسية والاجتماعية والاقتصادية.

* * *

طه حسين متهما تدافع عنه مؤلفاته وأعماله

عميد أدبنا العربى الدكتور طه حسين الذى عرفناه مزيجا قويا بين حضارتين متغايرتين هما الشرق والغرب، وعصارة طيبة بين معهدين مختلفين هما الجامع الأزهر وجامعة باريس. فأصوله راسخة فى حضارة الشرق تستخلص منها الغذاء، وفروعه سامقة فى حضارة الغرب تستمد منها النور.

طه حسين الذى عرفناه ناقدا، ومستحدثا لموازين جديدة للنقد، وأديبا وموجها للدراسات الأدبية، وكاتبا أضاء تاريخ صدر الإسلام بلوامع وضاءة، ومفكرا محيطا بشتى فروع الثقافة العربية والعالمية، وداعية لتعميم التعليم وجعله حقا مشروعا لكل مواطن كحقه فى الماء والهواء.

طه حسين الذى عرفناه موقفا باهرا ضد ما فى الحياة من ضعف وعجز، وشعوزا كاملا بالإنصاف الإنسانى، ورغبة قوية فى العدل الاجتماعى، وأملا عزيزا فى التضامن بين أخوة الإسلام والعروبة، وميلا عظيما للتحرر من التقاليد البالية، وإيمانا راسخا بسيادة الإنسان العربى على أرضه ومصيره.

طه حسين الذى عرفناه كاتبا كبيرا لا تستوعبه هذه السطور.. يحاكم اليوم.. وممن؟ من أبنائه وأحفاده على امتداد العا لم العربى! وكيف؟ بأسلوب محاكم التفتيش فى العصور الوسطى! فبدلا من محاكمة كلمته المطبوعة المحملة بفكره يحاكمون ضميره بحثا عن الذى كان يقصده و لم يكتبه أو يسجله أو يقله!

وإلا فما ظنك عزيزى القارئ بكتابة فريق أصبحت عقولهم عند أطراف أصابعهم.. تلك التى تجمع الدراهم والدنانير على حساب مفكر مثل طه حسين؟! وما ظنك بكتابة فريق آخر ممن يلهثون جريا وراء الشهرة الخادعة والارتفاع الزائف حتى ولو كان على جثة عظيم مثل طه حسين؟!

وما ظنك بكتابة فريق ثالث ممن يعلنونها مدوية أنه آن الأوان لتصفية الحسابات القديمة مع كاتب مثل طه حسين؟!

ما ظنك عزيزى القارئ بكتابات هؤلاء وهؤلاء وهؤلاء إلا أن تكون كتابات بعيدة عن الحق، مجافية للدقة، معادية للموضوعية؟

هل نحن فى حاجة إلى مثال للمناهج التى يتناولون بها أعمال طه حسين ومواقفه؟ بين أيدينا الآن عشرات من الأمثلة لهذه الأساليب التى يستخدمونها فى كتاباتهم.

فيها نقتصر على رصد اتجاهاتها وخطوطها ومحاورها، دون الإشارة إلى مسمياتها.. فربما لا ترضى عزيزى القارئ على طه حسين أن يكون طرفا فى نزاع مع الأبناء والأحفاد. وخصوصا هؤلاء الذين ضاع منهم الصواب! أو الذين فى حاجة إلى نعمة اسمها الخجل!.

هناك كتابات لا تهتم مثلا بأحداث التاريخ فيقع صاحبها نتيجة لذلك فى خطأ، كأن يرى ماركس متأثرا فى نظريته بمدرسة دور كايم، مع أن الثابت أن ماركس ونظريته وجدت قبل دور كايم ومدرسته، وأخرى ترى التهجم على طه حسين أقصر طريق للربح، فهى مادة مثيرة تخطف انتباه القارئ، وثالثة لا تفرق بين التأليف عن طه حسين "والتوليف" بين كتابات الآخرين وكل ما يفعله صاحبها هو ربط بعضها ببعض مستخدما قاموس الشتائم المعروف، ورابعة لا تهتم بتوثيق مادتها عن طه حسين بالمراجع وحين يذكر صاحبها مرجعا لا يهتم بكتابة اسم صاحبه.. وحين ينقل يخطئ فى النقل، ويخلط بين ما يكتبه وما يرجع إليه، وخامسة تقتصر فى تقييمها لطه حسين على وجهات نظر خصومه، خصوصا فى ثلاثينيات هذا القرن، مع أن هناك وجهات نظر أنصاره، وأن النظرة فى الثمانينيات تختلف عنها فى الثلاثينيات، وسادسة لا تهتم بالرجوع إلى المصادر الأساسية فحين يرجع صاحبها إلى محاكمة طه حسين وقرار النيابة يكتفى بالتعليقات ولا يهمه النص، وسابعة لا يحسن صاحبها القراءة.. فيقرأ مثلا عبارة طه حسين "خسرت الأخلاق من هذا التطور وربح الأدب" بلسان المتكلم، مع أنها فى الأصل بلسان الغائب حيث تعنى أنه: إن كانت الأخلاق قد خسرت بما

جاء فى شعر أبى نواس، فإن الأدب ربح شاعرا فحلا فيقرأها.. على أن طه حسين نفسه خسر الأخلاق وبنى نتائج على ذلك.

إلى آخر هذه الأخطاء المذلة التى لا تخلو منها واحدة من هذه الكتابات، والمرء يندهش لهؤلاء.. فكيف يتصدى للكتابة عن "مفكر كبير مثل طه حسين" من لم يكن مؤهلا لها؟!

أما الاتهامات وفى مقدمتها اتهام طه حسين بتغريب ثقافتنا وهدم عقيدتنا، فهى اتهامات ظالمة يتفرع الواحد منها إلى عدة اتهامات ظالمة. فعند تغريب الثقافة يتفرع إلى أنه تغريبى، وبأنه يعمل على الترويج للفكر الوثنى اليونانى والحضارة الغربية، وأنه يعاون الغزو الفكرى الأجنبى فى العالم العربى!

مع أن إطلاق كلمة تغريبى على فريق، وإسلامى على فريق آخر.. نوع من الأحكام العامة الخاطئة مثلها كمثل أن تقول هذا قديم وذاك جديد. هذا إلى جانب أن هذه التقسيمات تقوم فى النفوس - كما يقولون - على الكره والبغض والاحتقار والازدراء والطرح والرفض بلا أسباب واضحة تعتمد على العقل.

وأما عن اتهامه بالتشيع للحضارة الغربية فيكفى أن نقرأ رأيه فى هذه الحضارة، حيث يقول: "والذين يظنون أن الحضارة الحديثة حملت إلى عقولنا خيرا خالصا يخطئون، فقد حملت الحضارة الحديثة إلى عقولنا شرا غير قليل..". ويقول عن الشاب الذى يتمسك بهذه الحضارة دون حضارته العربية: "..هذا الشاب ضحية من ضحايا الحضارة الحديثة أو من ضحايا جهل الحضارة الحديثة وشره ليس مقصورا عليه وإنما يتجاوزه إلى غيره من الناس. فهو يتحدث وهو يعلم وهو يكتب وهو فى هذا كله ينفث السم ويفسد العقول..". إلى أن يقول: "لا حياة لمصر إلا إذا عنيت بتاريخها القديم وبتاريخها الإسلامى عنايتها بما يمس حياتها من ألوان الحضارة الحديثة".

يُتهم طه حسين بالتشيع للفكر الوثنى اليونانى حيث كتب عنه. وإذا كنا نتهمه بهذه التهمة، فبماذا نتهم فلاسفة المسلمين، وفى مقدمتهم "ابن رشد وابن سينا والفارابى"

ممن تأثروا بالفكر اليونانى وكان دورهم مزدوجا: دور الرسول الحامل لأوروبا رسالة اليونان، ودور الفاعل بما ابتكر وأنتج؟ هل نتهمهم بالترويج للفكر الوثنى أم ترانا نقول عنهم إنهم كانوا يعبرون عن أشواق عصر واحتياجات حضارة وقيم مجتمع، وإنهم أضاءوا بفكرهم ظلام العصور الوسطى فى أوروبا؟

ويتهم طه حسين بأنه كان عاملا مساعدا للغزو الفكرى، حتى أصبحنا عن طريقه تابعين للفكر الغربى.

وللرد على تهمة تغريب ثقافتنا بوجه عام نذهب مع الدكتور محمد كامل حسين فى قوله: "إن طه حسين على قدر ما علم من الثقافة الغربية لم يدع تفكيره يفنى فيها ولو فنى لما حفل به أحد".

وفى إطار هدم العقيدة تتهم هذه الكتابات طه حسين بأنه هاجم الإسلام والأزهر وشوّه تاريخنا الإسلامى بكتابته، حيث استخدم المنهج المادى فى التاريخ.

يقولون هذا عن طه حسين فى الوقت الذى نقرأ مقدمته لكتاب "الأزهر وأثره فى النهضة الأدبية الحديثة":

"الأزهر لم يكن مشرق النور فى عصورنا القديمة وحدها، وإنما هو مشرق النور فى العصر الحديث، هو الذى تلقى الحضارة الأوروبية، وهو الذى أذاعها فى مصر، ثم فى الشرق".

وأما عن الهجوم على مشروع إعادة كتابة التاريخ الإسلامى، فليس هناك أبلغ من رد الداعية الإسلامى الراحل الشيخ محمد متولى الشعراوى فى قصيدة قوامها ١١٠ أبيات منها قوله:

هــامش السيرة الحبيبة فيه

تغــنى سماحــة الأنبيــاء

هــو عن نعمة البيان زكاة

ولهــذا أدركت سر النماء

وجمال الإسلام فى وعدك الحق

تجلى فيه جــلال الفــداء

وتبقى اتهامات أخرى لطه حسين أقلها أنه ليس أديبا أو ناقدا أو مفكرا أو رائدا، وأنه أفسد التعليم والثقافة ونشر العامية للقضاء على الفصحى.

ولا شك أن هجوم هذه القلة من الأبناء والأحفاد على كبيرنا طه حسين يعد – فى حد ذاته – دفاعا مجيدا عنه.. يدركه الأذكياء من القراء الذين ينشدون التوجه إلى الكتابات الموثقة. كما يعتبر نوعا من الخلود لطه حسين، حيث استطاع فى جانب أن يحرك أجيالا من القراء إلى أن يناقشوه أو يخاصموه أو يهاجموه أو حتى يسلكوا معه نفس أسلوب محاكم التفتيش، على حين استطاع فى الجانب الآخر أن يهذب أجيالا من الأدباء والكتّاب والمفكرين، حين يقفون منه موقف الناقد الذى يحترم خصمه ويستعد للاشتباك معه فى معركة سلاحها العلم، ووسيلتها البحث، وغايتها الحقيقة.

واستطاع أن ينقل الجدل بين الطرفين من مستواه الضيق إلى مستوى أرحب وأشمل، وأن يجعله جزءا لا غنى عنه من التكوين الفكرى لهذه الأمة. إلى جانب ذلك أيضا طبيعة فكر طه حسين.. وهل هذا الفكر إلا ما عرفناه ووصفناه بأنه تيارات من التساؤل وبحرا من القلق وعاصفة من التجديد. وقد صدق صاحبه حين قال عن نفسه: أكره الطريق المطروقة ولا أشرب من الحوض المباح".

وفى إطار الوعى بحدود الجدل بين الطرفين والفهم لطبيعة طه حسين يمكن مواصلة الإشارة إلى هذه الاتهامات، مستعينين فى الرد عليها بكلمة طه حسين المكتوبة وكتابات عشرات المفكرين.

تتهمه هذه الكتابات بالكفر مستندة إلى ما كتبه فى منتصف الثلاثينيات ورجع عنه بحذفه. لكنهم لا يقبلون، وإنما يصرون على رميه بالكفر بمناسبة أو بغير مناسبة. ولا أدرى كيف يسمح بشر لنفسه أن يكفّر مسلما يقول: **أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله**، ويقف أمام الكعبة داعيا ربه بما يسجله بعد ذلك فى كتاباته وما تنقله عنه الأقلام:

"اللهم لك الحمد أنت نور السموت والأرض، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت، اغفر لى ما قدمت وما أعلنت وما أسررت أنت إلهى لا إله إلا أنت"، ثم كيف يتهمونه بهذه التهمة فى الوقت الذى نراه فيه يرد على الكاتب الفرنسى اندريه جيد الذى اعتقد أن الفكر الإسلامى يحمل من الأجوبة أكثر مما يثير من الأسئلة قائلا: "لم تخطئ أنت وإنما دفعت إلى الخطأ دفعا. لقد خالطت كثيرا من المسلمين، ولكنك لم تخالط الإسلام. و لم يكن من اليسير أن يظهرك الذين لقيتهم من المسلمين على حقائق الإسلام. فلو قد تعمقوا الدين تعمقا دقيقا لأظهروك على ما يثير القرآن الكريم من مسائل وما يعرض لها من جواب".

ويتهمونه بالعمل ضد الإسلام والعروبة، حيث يروج للفكر غير الإسلامى متجاهلين رأيه فى هذا الفكر غير الإسلامى، وبأن شره أكثر من خيره. وأن اهتمامه به للعلم الذى به ينفع أمته، عملا بتعاليم ديننا (الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها هو أحق الناس بها)، ودعوة رسولنا عليه الصلاة والسلام على أخذ العلم ولو فى الصين، وأن من تعلم لغة قوم أمن مكرهم، وأن "من تعلم بابا (من العلم يعلم به الناس أعطى ثواب سبعين صديقا)، ثم لماذا لا نقرأ طه حسين حين يرى أن قوميتنا كعرب أساسها الإسلام؟.. الدين الإسلامى مقوم من مقومات قوميتنا العربية. أنبهكم إلى أن من الواجب أن يكون هذا المفهوم الدينى مصاحبا لكم فى كل لحظة فى لحظات حياتكم. والذين يقصرون فى ذاته يقصرون فى ذات أنفسهم..".

ويتهمونه بالولاء للصهاينة واليهود مع أنه القائل: "هل صحيح أن اليهود الذين يعيشون فى فلسطين هم بنو إسرائيل؟ الذى أؤكده هو أن اليهود يتحدثون عن التوراة ولا أعرف كتابا ذكر اليهود بالشر مثلما ذكرهم التوراة"!

ويتهمونه فى لسانه العربى بأنه يروج للعامية وللأدب الشعبى للقضاء على الفصحى لغة القرآن والأدب العربى القديم، مع أن القارئ لكتابات طه حسين يرى غير ذلك تماما. يراه فى دفاعه عن أدبنا القديم يقول: "ليس الأدب العربى القديم بأقل من الآداب الأجنبية مهما تكن، وليس الأدب العربى أقل صلاحا

للبقاء واستحقاقا للعناية من الآداب الأجنبية. وكل عيب الأدب العربى أنه مجهول لا يحسنه أصحابه".

ويؤمن بالفصحى حيث يقول: "عامة الناس يفهمون القرآن، لأن لغته هى لغة الفصحى". ويقول: "لا أدب إلا أدب الفصحى، والذين يستخدمون العامية ليسوا واقعيين، وإنما هم عاجزون".

ويخشى على أدبنا العربى من انتشار الأدب الشعبى فينبه قائلا: "ليس من الضرورى أن ينحط الأدب ليصبح شعبيا، وليس من الضرورى أن يبقى الشعب حيث هو جاهل غافل".

ثم لماذا لا نقرأ حرص طه حسين على لسانه العربى فى شهادة عالمين كبيرين أولهما العلامة محمود محمد شاكر الذى يقول: "لقد لقى طه حسين ما لقى، ونسب إليه ما أقطع أنه برىء منه، والدليل على براءته أنه منذ عرفته عام ١٩٢٤ إلى أن توفى كان محبا للسانه العربى أشد الحب حريصا على سلامته أشد الحرص متذوقا لروائعه أحسن التذوق فهو لم يكن يريد قط باللسان العربى شرا، بل كان من أكبر المدافعين عنه المنافحين عن تراثه كله إلى آخر حياته. ومحال أن يحشر من كانت هذه خصاله فى زمرة الخبثاء".

وثانيهما الدكتور حسنى سبح رئيس المجمع اللغوى بدمشق الذى يقول: "لقد أنكر طه حسين واستنكر كل الاستنكار ترويج العامية وتشجيعها واستعمالها، لأن الدعوى إلى العامية وتشجيعها واستعمالها كانت فى رأيه فك لأواصر الصلة بين أفكار العروبة والعالم الإسلامى".

وتحكم هذه الكتابات المدهشة على طه حسين بأنه ليس مفكرا.. وللرد نستعين بشهادتين الأولى للعالم الأديب الدكتور محمد كامل حسين الذى يقول: طه حسين - يصح أن نقول عن فكره أنه اخترق حاجز الصوت فى المجال الفكرى. فبلغ فيه آفاقا أوسع وأصبح بينه وبين الفكر الوسط فرق شاسع. والشهادة الأخرى للدكتور فؤاد زكريا: "طه حسين كان يمثل فى شخصه وفى فكره تجسيدا حيا لقيم النهضة الفكرية على نحو لم يستطع أى من السابقين

عليه أن يحققه. والحق أن تكوين طه حسين الاجتماعى والفكرى كان يؤهله لكى يقوم بهذا الدور خير قيام".

وبجرة قلم واحدة تحكم هذه الكتابات العجيبة على طه حسين بأنه ليس كاتبا ولا أديبا ولا ناقدا، ولنقرأ ثلاثة من أئمة الفكر والأدب والنقد وكأنها ترد على هذا الهراء مضطرة.. الأولى لرئيس مجمع الخالدين الدكتور إبراهيم مدكور: "طه حسين استن فى الكتابة والتعبير لونا من ألوان الأداء الفنى حاكاه فيه كثير من الكتّاب وأضحى عميد الأدب غير منازع..". والثانية لوزير الثقافة السابق الدكتور أحمد هيكل: "لقد تأصل منهج الدراسات الأدبية عن طريق طه حسين سواء فى ذلك تلك الأسس والأفكار التى راد هو الدراسات الأدبية إليها لأول مرة أو تلك المبادئ والآراء التى سبقه غيره إليها، ولكنه هو الذى يتبناها". والثالثة لرئيس أكاديمية الفنون الأسبق الدكتور عز الدين إسماعيل: "كل من يتأمل الخطوط العامة التى تمثل هيكل فكر طه حسين النقدى يدرك أنها متكاملة، تعكس لنا عقلا متوازنا وروحا حيا. هو عقل الرائد الذى لا يكذب أهله وروح الثورى الذى ينشد التغيير والتطور".

ويتهمون طه حسين بنشر الإباحية والفجور فى كتابه "حديث الأربعاء"، حيث كتب عن أبى نواس وغيره من شعراء الغزل مستعينا بكتاب فاسد هو "الأغانى" لمؤلف فاجر هو الأصفهانى، وهنا نتساءل: هل كان طه حسين أول من درس أبا نواس وشعر الغزل؟ المعروف أن هناك عددا من الكتّاب من اهتم بأبى نواس.. العقاد أفرد له كتابا. وأن الغزل فن من فنون الشعر يبحثه الدارسين المجيدين. وهل كتاب "الأغانى" مرجع سيئ السمعة؟ المعروف أن العقاد أيضا أثنى عليه ووصفه بأنه "مكتبة ثقافية تمثل الثقافة العباسية". وهل اشتمل كتاب "حديث الأربعاء" لطه حسين على أبى نواس والغزليين فقط؟ المعروف أن الحديث عن أبى نواس والغزليين استوعب قسم من الجزء الثانى لهذا الكتاب. وأما بقية أجزاء الكتاب الثلاثة فقد عنيت بالتأريخ للعصور الأدبية المتعارف عليه "الجاهلى والإسلامى فالأموى فالعباسى إلى العصر الحديث". لكن ما العمل إذا كان أصحاب هذه الكتابات لا يقرأون حتى فهارس الكتب؟!

ويتهمونه بسرقة نظريته فى الشعر الجاهلى من المستشرق مرجليوث، وللرد نكتفى بشهادة الفيلسوف العربى الدكتور عبد الرحمن بدوى، حيث نقرأ له: "كلما أتذكر الحملة الهوجاء التى أثيرت حول كتاب "فى الشعر الجاهلى"، فإن عجبى لا ينقضى لأن ما قاله طه حسين عن انتحال الشعر الجاهلى قاله علماء الأدب واللغة من العرب.. خصوصا فى القرنين الثالث والرابع للهجرة. ويكفى أن يفتح المرء الصفحات الأولى من كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى ليقرأ فيه ما يلى (وفى الشعر مصنوع مفتعل وموضوع كثير لا خير فيه)".. ثم يدلل الدكتور بدوى على براءة طه حسين وبأصالته العربية ويسبق نظره على معاصريه الذين كانوا بمعزل عن الأدب القديم وفى جهل فاحش به. ويرى أنه ليس هناك سرقة من طه حسين وإنما سوء نية من الآخرين.

وتشكك هذه الكتابات المدهشة فى ريادة طه حسين وتطالب بها لآخرين ولا يعلنون عن أسمائهم، وكأن الريادة عمل يصنع تحت الأرض، أو كأن روادهم كما العفاريت نسمع عنهم ولا نراهم!! فى حين نجد الاجتماع على ريادة طه حسين فى العالم العربى.. مثلا نقرأ المفكر الإسلامى السورى محمد كرد على: "من تحصيل الحاصل الإشادة ببلاء طه حسين فى خدمة الآداب العربية وأثره المحسوس فى إدخالها فى طور جديد.. مما صنع ريادته"، أو قصيدة الدكتور عبد الرازق محيى الدين رئيس المجمع العلمى العراقى فى ريادة طه حسين التى يستهلها بهذا البيت:

حى مع الناس أحياء بما شعروا   لا الرأى يبلى ولا ذو الرأى يندثر

وبعد فحين يملأ طه حسين الدنيا ويشغل الناس أكثر من نصف قرن.. يتحتم على الذين يريدونه مادة للتاريخ أن يرقوا إلى هذا المستوى، وليس هذا من أجل طه حسين، وإنما من أجل أمة يمثل طه حسين وجهها الثقافى.. ولهذا نقول لأصحاب هذه الكتابات: كفوا أيديكم عن العبث فى تاريخنا ولا تقربوه، إن لم تملكوا مقومات الكتابة عنه.

* * *

٣ - مرجليوث يبرئ طه حسين

قضيتان ينبغى الإشارة إليهما فى هذا الموضوع حتى يمكن تبرئة طه حسين مما نسب إليه من اتهامات:

الأولى هى قضية تأثر طه حسين بالمستشرق الإنجليزى مرجليوث التى كثر الحديث فيها. منذ أعلنها الأديب الراحل مصطفى صادق الرافعى - لدواع شخصية - فى كتابه "تحت راية القرآن" عام ١٩٢٦، واستمرت سنوات طوال. ولن نعتمد فى دفع هذه التهمة عن طه حسين على ما كتبه أساتذتنا وعلماؤنا الأجلاء، وفى مقدمتهم الدكتور شوقى ضيف فى كتابه "العصر الجاهلى"، حيث يرى أن حديث طه حسين عن أسباب نحل الشعر يعتمد أساسا على القدماء العرب ومنهم ابن سلام أو الدكتور حسين نصار الذى يرى أن طه حسين برىء من هذه التهمة لأنه لم يكن يتقن الإنجليزية لكى يترجم عنها مقالا لمرجليوث، ثم يتأثر به ويلقيه بعد ذلك درسا على طلابه وينشره كتابا على الناس، أو الدكتور إبراهيم عبد الرحمن فى كتابه "الشعر الجاهلى.. قضاياه الفنية والموضوعية" حيث يفرق بين منهجى مرجليوث وطه حسين فى دراسة الشعر الجاهلى. مرجليوث يشك فى وجود الشعر الجاهلى، على حين طه حسين يشك فى رواية هذا الشعر. فيصبح شك طه حسين فى بعض الشعر، وشك مرجليوث فى كل الشعر.

لن أرجع إلى هذه المصادر أو غيرها على الرغم من دقتها وكرامتها العلمية.

ودعونى أرجع إلى مرجليوث نفسه ليس لأننى كأستاذنا الدكتور عبد الرحمن بدوى أسير الفتنة المرجلوثية كما يصفه، ولكن لأن حكمة البعض منا شاءت أن تجعل من هذا المرجليوث الأعجمى شيئا مذكورا فى تاريخنا الثقافى، حيث أصبح مسروقا.. وسارقه طه حسين؟! ..لنرجع إلى هذا المرجليوث، وبالتحديد فى مجلة

أشار إليها الدكتور إبراهيم عبد الرحمن فى كتابه" بين القديم والجديد"، وتكررت إشاراته فى كتابه التالى "الشعر الجاهلى" وهى بمجلة الجمعية الملكية الآسيوية، وهى نفس المجلة التى نشر فى عددها الصادر بتاريخ يوليو ١٩٢٥ مقاله "أصول الشعر الجاهلى" المتهم طه حسين بسرقته لنقرأ مقالة جديدة أخرى لمرجليوث فى العدد الرابع للمجلة بتاريخ أكتوبر ١٩٢٧ تحت عنوان: تعليقات الكتب NOTICES OF BOOKS من ص ٩٠٢ إلى ص ٩٠٤. وفى هذه الصفحات الثلاث تكمن براءة طه حسين، حيث يؤكد المسروق منه مرجليوث أن كلا منهما هو وطه حسين بحث على حدة ويعترف أن طه حسين كان أكثر تفوقا منه فيما ذهب إليه. ومن جملة ما يقوله مرجليوث فى هذا المقال: "هذه طبعة موسعة من كتاب طه حسين عن الشعر الجاهلى الذى صدر فى العام الماضى، وكان موضوعا لعديد من المقالات والرسائل فى الصحافة القاهرية. وهناك ما يؤكد أن الطبعة الأولى من هذا الكتاب قد تم سحبها من التداول بسبب ورود بعض فقرات يعتقد بأن فيها مساسا بمكانة (القرآن الكريم). وتتشابه الفكرة الأساسية للكتاب إلى حد بعيد والبحث الذى أتمه صاحب هذا المقال (مرجليوث) عن أصول الشعر العربى الذى نشر (فى هذه المجلة) فى نفس الوقت الذى نشر فيه طه حسين كتابه. وقد توصل الباحثان (مرجليوث وطه حسين) كل على حدة إلى نتائج متشابهة. ولقد استطاع الأستاذ القاهرى بمهارة فائقة أن يرصد الدوافع التى أدت إلى تزييف الشعر فى العصور الإسلامية ونسبها إلى شعراء العصر الجاهلى".

ثم يمضى مرجليوث فى مقاله مؤكدا عدم موافقته على منهج طه حسين، لأنه يرى أن فى الشعر صحيحا ينسب إلى العصر الجاهلى. وهو منهج يخالف منهجه الذى يشك وينكر الشعر الجاهلى جملة وتفصيلا.

والقضية الثانية هى قضية تأثر طه حسين بالأقدمين العرب، وفى مقدمتهم ابن سلام الجمحى (١٣٩ - ٢٣١هـ) تلك التى تنبه إليها الدكتور عبد الرحمن بدوى فى تصديره لكتابه "دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلى"، وبالرجوع إلى سفرى كتاب "طبقات فحول الشعر" قراءة وشرح العلامة محمود محمد شاكر طبعة ١٩٧٤. وتحقق لنا تأثر طه حسين بابن سلام فى صفحات طوال أورد أمثلة منها

الدكتور بدوى فى تصديره لكتابه المذكور. ولست أدرى لماذا وقف اهتمام بعض الباحثين عند تسجيل وجهة نظر الدكتور بدوى فى منهج المعاصرين من الباحثين العرب دون أن يذكر لنا مثالا واحدا للمشابهة بين طه حسين وابن سلام.. وباختيار عشوائى تقرأ فى السفر الأول من كتاب "طبقات فحول الشعراء لابن سلام" هذه العبارة فى ص ٤ : "وفى الشعر مصنوع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه" إلى أن يقول: "وقد تداوله قوم من كتّاب لم يأخذوه عن أهل البادية و لم يعرضوه على العلماء". ويقول فى صفحتى ٤٦ ، ٤٧ : "فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها، استغل بعض العشائر شعرائهم، وما ذهب من ذكر وقائعهم، وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار..

فقالوا على ألسنة شعرائهم، ثم كان الرواة بعد، فزادوا فى الأشعار التى قيلت، وليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وضع المولدون، وإنما عضل بينهم أن يقول الرجل من أهل البادية من ولد الشعراء، أو الرجل ليس من ولدهم فيشكل ذلك بعض الإشكال".

ويقول ابن سلام فى ص ٢١٥ : "أشعرهم - أى أشعر شعراء المدينة - حسان بن ثابت" وهو كثير الشعر جيده وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد".

أليست هذه الأقوال لابن سلام تجعل طه حسين يتأثر به فى نظرته للشعر الجاهلى؟!

وهكذا نجد أنه فى الإشارة إلى هاتين القضيتين كانت براءة طه حسين من الاتهام بالسطو على المستشرق الإنجليزى مرجليوث الذى قدم الدليل ببراءته.

* * *

٤ - نص مقالة مرجليوث فى البراءة

وهذه هى ترجمة حرفية - كما راجعناها على الأصل - للنص الكامل لمقالة المستشرق الإنجليزى مرجليوث كان قد بعث بها إلينا مشكورا الدكتور إبراهيم عبد الرحمن رئيس قسم اللغة العربية الأسبق بجامعة عين شمس.. إسهاما منه فى تطوير البحث العلمى الصحيح الذى يضع فكر طه حسين فى الميزان.. بعيدا عن التهوين من شأنه أو التهويل فى أمره.. ننشرها خدمة للباحثين. ونص المقالة على النحو التالى:

لم يجر كتاب من الشر على صاحبه مثلما جر كتاب "فى الشعر الجاهلى" على صاحبه طه حسين، فقد اتخذ منه المعارضون لآرائه مادة خصبة للنيل من سمعته، والحط من مكانته، واتخذ منه الحاقدون على مصر وسيلة للتهجم عليها والتنكر لدورها السياسى والثقافى والتشكيك فى انتمائها العربى.. إلى غير ذلك من ردود الفعل التى أخذت تنشرها الصحف العربية فى السنوات الأخيرة فى شكل تعقيبات قصيرة حينا ومقالات طويلة حينا آخر، وهذا وذاك يشكل لكثرته وتنوع مصادره، تيارا من النقد العدوانى المدمر الذى يتمثل خطره أكثر ما يتمثل فى خداع القارئ العادى الذى ليست له خلفية ثقافية عميقة، وحمله حملا على تصديق ما يلقى إليه باسم الدين مرة، والعلم مرة أخرى.

ومن هذه الكتابات التى تناولت شخص طه حسين وعقيدته ما كان يكتبه مصطفى صادق الرافعى ومحمد محمد حسين وغيرهما، ونقف هنا عند هذه الفقرات القصيرة من كتاب "الاتجاهات الوطنية" فى الأدب المعاصر للدكتور محمد محمد حسين، فهو نموذج لسائر الكتابات الأخرى:".. واضح من كلام طه حسين الذى قدمنا أمثلة منه جرأته على الدين وخطره على الناشئين".

وقد تجددت حملة التهجم على طه حسين أخيرا فى بعض الكتابات المصرية. وهو

ما يجعل منها ظاهرة مقلقة فى ثقافتنا المعاصرة، ومصدر القلق أننا نبيح لأنفسنا الحكم على الأشياء عن طريق "السماع"، فنقع بذلك فى أحكام ظالمة وغير صحيحة. ولو أخذنا أنفسنا بالعودة إلى الأصول لقراءتها وتحليلها لجاءت أحكامنا صحيحة ومنصفة. وفى موضوع طه حسين والشعر الجاهلى أرشح لهذه القراءة ثلاثة أعمال نبدأ بأحدثها وهو: رأى مرجليوث فى كتاب "فى الأدب الجاهلى" المنشور فى مجلة الجمعية الملكية الآسيوية - أكتوبر ١٩٢٧.

ولهذا الرأى أهميته وخطورته لأنه أولا: يمثل وجهة نظر لا تزال غير معروفة للذين كتبوا عن طه حسين، ولأنها ثانيا: صادرة من طرف أصيل فى هذه القضية المزعومة.. قضية "سطو" طه حسين على أعمال المستشرقين.

وترجمة المقال: "هذه طبعة موسعة من كتاب طه حسين "فى الشعر الجاهلى" الذى نشر فى العام الماضى. وكان موضوعا لكثير من المقالات والدراسات فى صحافة القاهرة، ومن المؤكد أن طبعة الكتاب الأولى كانت قد سحبت من التداول لاحتوائها على بعض الفقرات التى يظن أن فيها مساسا بالقرآن الكريم. وفكرة الكتاب مماثلة - إلى حد كبير - للفكرة الذى أدرت حولها بحثى عن "أصول الشعر الجاهلى" الذى نشرته فى هذه المجلة فى الوقت نفسه تقريبا التى ظهرت فيه طبعة الكتاب الأولى. وبذلك توصل كل منا - مستقلا عن الآخر تماما - إلى نتائج متشابهة.

"وتتلخص هذه الفكرة فى أن النصوص الشعرية التى يفترض أنها من عمل شعراء جاهليين، مشكوك فى صحتها، وهو ما يجعل منها نصوصا لا يصح اتخاذها وثائق تاريخية أو لغوية.

"ولقد أثبت الأستاذ القاهرى، بحق أن الشكل اللغوى الذى صيغت فيه هذه الأشعار يؤكد أن لغة القرآن كانت تعم سائر أجزاء الجزيرة العربية، فى الوقت الذى تؤكد فيه شواهد أخرى عديدة من النقوش، أنه كانت هناك لهجات (أو بالأحرى لغات) أخرى مستخدمة فى الجزيرة العربية.

"وإذا كان طه حسين قد استطاع بمهارة فائقة، أن يرصد الدوافع المختلفة لتحريف

الشعر فى العصور الإسلامية، ونسبته إلى شعراء جاهليين، يعتبرهم هو بحق شعراء من صنع الخيال، فإنه لم يكن مستعدا أن يؤكد أو ينفى الوجود الحقيقى لامرئ القيس الذى يتصدر اسمه قائمة الشعراء الجاهليين.

"والقسم الأخير من هذا الكتاب قسم بناء. فقد خصصه طه حسين للتدليل على وجود مدارس شعرية، قرب ظهور الإسلام، ذكر منها واحدة تبتدئ بأوس بن حجر، فزهير، فالحطيئة، فكعب، فجميل، وتنتهى بكثير عزة. ولكن قيمة هذه النظرية قد اهتزت إلى حد ما، بتأكيد المؤلف أن كثيرا من الشعر المنسوب إلى هؤلاء الشعراء شعر موضوع، وملاحظة أن القصة الوحيدة الباقية عن أوس من صنع خيال سقيم، وأن الرواة الذين وصل إلينا عن طريقهم خبر هذه الصلة الفنية بين شعراء هذه المدرسة يفصل بينهم وبين آخرهم زمن طويل! ولذلك فإن جزء النقض من نظرية طه حسين لا يزال أقوى أجزاء الكتاب، وأكثرها تأثيرا فى الدراسات الأدبية فى العالم العربى، تلك التى اختطت بفضله طرقا جديدة. ومن الحقائق الثابتة أن نقوش المقابر فى المجتمعات الجاهلية التى كانت تستخدم الخط الحميرى، تؤكد لنا عدم وجود أى أثر للشعر حتى فى تلك النقوش التى يجب أن يتوقع المرء أن يجد فيها شيئا منه، أعنى نقوش الجنائز، كما أن المجتمعات الجاهلية التى ينسب إليها طوفان من الشعر يؤكد معرفة فنية بالكتابة. يصمها القرآن الكريم بالأمية!

"إن صعوبات خطيرة تواجه الزعم القائل بأن هذه المجموعات الشعرية أو جزء منها على الأقل قد تم حفظه عن طريق الكتابة أو الرواية الشفوية. كما أن هناك شكوكا عميقة تهدم النظرية القائلة بأن الصناعة الشعرية نفسها من عمل شعراء جاهليين! نحن – إذن – فى ظلام دامس، ويجب قبل أن نقرر أية حقيقة ذات أهمية أن نبدأ تلك الشكوك المدمرة. وهو ما أنجز منه طه حسين كثيرا ذا قيمة".

ولا نشك فى أن مرجليوث قد كتب مقالته تلك فى نقد كتاب طه حسين وبين يديه هذا الكم الهائل من الدراسات والمقالات التى كانت تنشرها الصحافة المصرية على نحو ما أشار فى مطالعها. وأن من بين ما جاء فيها اتهام طه حسين بالسطو على

أفكار مرجليوث. وهو اهتمام حمل هذا المستشرق على ترتيب أفكاره فى هذه المقالة ترتيبا علميا دقيقا يتمثل فى شيئين:

الأول: حقيقة ثابتة وهى أن العملين كليهما قد نشرا فى وقت واحد تقريبا، وأن كلا من الكاتبين مرجليوث وطه حسين قد توصل إلى آرائه مستقلا تماما عن الآخر.

والثانى: أن آراء مرجليوث فى الشعر تناقض آراء طه حسين. فمرجليوث ينكر أن يكون الجاهليون قد عرفوا نظم الشعر، وأن ما وصل إلينا منه من صنع شعراء المسلمين الذين احتذوا فيه لغة القرآن، على حين يذهب طه حسين إلى الثقة فى وجود شعر جاهلى، ولكنه يتشكك فى صحة كثير من نصوصه التى وصلت إلينا، وكانت بسبب الرواة، عرضة للوضع والتحريف. وهو لذلك يلح فيما يسميه مرجليوث الجزء البناء من كتابه على استكشاف مقياس نقدى للتمييز بين الشعر الصحيح. وهو ما يحتاج إلى وقفة نقارن فيها بين كتاب طه حسين ودراسة مرجليوث عن أصول الشعر الجاهلى.

* * *

٥ - مساجلتان هادئتان حول معارك ساخنة

الأولى

هذه المساجلة تمت بين صاحب هذه الصفحات (المؤلف) والمفكر الراحل الأستاذ أنور الجندى على صفحات الأهرام بتاريخ ١٩٨٢/١١/٥. وهذا ملخص لهذه المساجلة.

رأى الأستاذ أنور الجندى:

أمران أوردهما الأستاذ سامح كريم فى مقاله عن الدكتور طه حسين فيما يتصل بما كتبته عنه.. الأمر (الأول) أن هناك تناقضا بين ما كتبت فى عدد الهلال ١٩٨٦، وما ورد فى كتابى (طه حسين فى ميزان الإسلام). والحقيقة أن ما كتب فى الهلال كان محكوما بموضوع محدد هو (طه حسين قبل سفره إلى أوروبا)، وهى مرحلة لم تكن قد أثيرت فيها مسائل الخلاف بين وجهات النظر فى موضوعات التراث أو التعليم أو التاريخ الإسلامى.

وكان المقال لعدد تذكارى والدكتور طه حسين حى، وهو فى مرضه الأخير مما لا يحتاج معه القول إلى إثارة المسائل التى كتبنا عنها فيما بعد، حيث أصبح الكاتب فى ذمة التاريخ.. ومن حق الأجيال أن تعرف ما أثير معه وعنه فى قضايا ووجهات نظر، مع العلم بأننى أصدرت فى الفترة من ١٩٥٩ إلى ١٩٧١ ثلاثة كتب بسطت فيها الرأى فى مختلف هذه القضايا التى تضمنها كتابى من بعده، وكان الدكتور طه حسين حيا، وأعتقد أنه ألـمّ بهذه الموضوعات، وهى كتب (النثر العربى فى مائة عام) و (الصحافة السياسية فى مصر) و (المعارك الأدبية) التى تناولت القضايا التى تضمنتها مؤلفات الدكتور طه حسين وهى: الشعر الجاهلى والمتنبى وهامش السيرة والفتنة الكبرى ومستقبل الثقافة وحديث الأربعاء. ومع ذلك فإنه مَنْ يمعن النظر فى مقال الهلال الذى أشار إليه الأستاذ سامح كريم يستطيع أن يجد فى وضوح نقاطا على

النحو التالى: الإشارة إلى تجاهل الدكتور طه حسين موجهه الرائد الذى قدمه فى مجال الصحافة والخطابة، وأعده للسفر إلى أوروبا الشيخ عبد العزيز، وهى وجهة الوطنية الإسلامية وعقوقه واختيار جانب لطفى السيد ووجهته السياسية الداعية إلى الإقليمية. (ثانيا) الإشارة إلى أن طه حسين حارب الزواج بالأجنبيات فى مقالات صريحة قبل سفره إلى أوروبا وتغيير الزى الشرقى بالزى الأجنبى وقال فى صراحة تامة إنه من أشد الناس عقوقا للأمة وبغيا عليها.. ذلك المصرى الذى لا يكاد يعدو ثغرا من ثغور مصر مبحرا إلى أوروبا حتى يقطع أسبابا ويصل أسبابا، فيترك لنا أزياءنا ولغتنا وأدبنا وينتحل مثلها من أزياء أوربا ولغاتها وآدابها، ولا بأس إن قلت إنه الآن حرام ممقوت. وأشرت إلى ما فعل طه حسين من ذلك. (ثالثا) أشرت إلى معركته قبل السفر إلى أوروبا مع جرجى زيدان ومع المنفلوطى وإيمانه بالريادة للأساتذة محمد عبده وأحمد زكى باشا شيخ العروبة والشيخ المهدى والشيخ الخضرى، وكيف خالف منهجه هذا بعد عودته، فأثنى على جرجى زيدان واعتذر عن هجاء المنفلوطى وانتقد مواقف محمد عبده وأحمد زكى باشا والشيخين المهدى والخضرى فى عنف شديد.

ومن جملة هذا يتبين أنه لا تناقض بين ما كتبناه فى حياة طه حسين وما كتب بعد وفاته إلا فى أسلوب العرض، الذى تغير تبعا للظروف التاريخية وبين مقال محدد فى مناسبة خاصة وبين عمل كامل لدراسة شخصية أفضت إلى ما قدمت، ولكل مقام مقال ولكن قول أوانه وزمانه.

الأمر (الثانى) إشارته إلى أن طه حسين خدم الإسلام بكتاباته، وهذا أمر أبرز مؤلفات طه حسين نقد صديقه ورفيق حياته (الدكتو محمد حسين هيكل)، الذى قال إنه عمل خطير، لأنه أدخل الأساطير إلى سيرة النبى ﷺ مرة أخرى بعد أن ظل كتّاب الإسلام ينقونها منها طوال التاريخ، وكذلك وجه إلى ما كتب عن (الشيخان) ومرآة الإسلام والوعد الحق انتقادات كثيرة وأكثرها إلى كتاب (الفتنة الكبرى)، بل إن بعض هذه الكتب منعت من النشر حتى أزال الدكتور طه سطورا أنكرت معلوما من الدين بالضرورة. وقد أجمع الباحثون على أن كتب طه حسين الإسلامية أذاعت أولا (التفسير المادى للتاريخ). (ثانيا) انتقاص الصحابة والنظر إليهم كسياسيين محترفين.

(ثالثا) التشكيك فى قيمة البطولة الإسلامية. (رابعا) إثارة الشك فى وجود عبد الله ابن سبأ اليهودى والتوهين من شأن الروايات التاريخية الثابتة بإيراد الروايات الضعيفة. ومن هنا فإن القول بأن كتب طه حسين خدمت الإسلام هو قول فى حاجة إلى مراجعة كبيرة وإلى تصحيح واسع، هذا وبالله التوفيق.

ثانيا: تعقيبى على هذا الرأى

منذ البداية.. ينبغى الإشادة بهذا الإصرار الدؤوب للأستاذ الكبير أنور الجندى، الذى قلما نجده عند شباب الفكر.. بعد ذلك يكون التعقيب على الأمرين:

* الأمر الأول: أستميح الأستاذ الجندى عذرا فى تصحيح تاريخ عدد الهلال الخاص عن طه حسين وقد كان فى فبراير ١٩٦٦، كما أذكر القارئ بعنوان البحث فى هذا العدد وهو: "صفحات مجهولة من حياة طه حسين"، والذى قال فى بدايته عن دخول طه حسين الأزهر والجامعة:" قد صورت أروع تصوير فى الجزء الثانى من كتاب الأيام، ولا يهمنا هنا إلا أن نسجل بذور اتجاهه الأدبى والشعرى واتصاله بالصحافة وولادة شخصيته المفكرة النافذة"، وأما ماسماه الأستاذ الجندى فى رده تناقضا. فأعترف مخلصا أننى لم أقتنع حتى الآن بالرد رغم تقديرى له. فمن الذى يملك أن يغيّر لك رأيا قد اقتنعت به وصدرت الحكم فيه مسبقا؟! وهل يمنع كون العدد تذكاريا أن تقول ما تراه أنه الحق؟! وحتى لو رفض القائمون على تحريره أليس من حقك أن ترفض أيضا ما يخالف ضميرك؟! وهل يغيّر وجه الحقيقة عند الكاتب الموضوعى كون طه حسين حيا أو ميتا؟!

وقد نبهنى الأستاذ الجندى مشكورا إلى ثلاث إدانات سجلها فى هذا المقال بالذات. أولاها: تجاهل طه حسين للشيخ عبد العزيز (يقصد عبد العزيز جاويش) واختياره جانب لطفى السيد ووجهته السياسية الداعية إلى الإقليمية. وهنا أحيل الأستاذ الجندى إلى كتاب عن لطفى السيد للدكتور حسين فوزى النجار، فربما يقتنع مثلى بأن لطفى السيد كان أستاذا للجيل حقا، وليس رجلا إقليميا محدودا.

ثانيتهما: وهى الخاصة بزواج الأجنبيات والزى، ولنترك للأستاذ الجندى مهمة

الدفاع عن طه حسين فى نفس مقال الهلال ص ٨٥، حيث يقول: "ولا شك كانت تلك عبارات الحماسة المطلقة فى سن العشرين تريد أن تؤكد ذاتها، ولما تتسع بعد آفاقها الفكرية وترحب وتتصل بالفكر الإنسانى".

وثالثتهما: تلك التى تخص موقف طه حسين من جرجى زيدان والمنفلوطى. لندع الأستاذ الجندى يبرر هذا الموقف أيضا فى نفس المقال ص ٨٨: "ومهما يكن الأمر، فإن طه حسين فى هذه المرحلة كان يرد حقلا جديدا تحدوه فيه رغبة فى تأكيد الذات والتبرير وإثارة الضجيج. وقد أنكر هذا اللون من النقد فيما بعد".

* الأمر الثانى: كنت أود الاقتناع برأى الأستاذ الجندى الخاص بنقد إسلاميات طه حسين، ولا أدرى ما هى حكمته حين يذكر نصا للدكتور هيكل لا يحيلنا إلى مرجعه؟! ويتحامل الأستاذ الجندى على عميد أدبنا إلى درجة تضيع معها الدقة المطلوبة حين يقول عن كتب طه حسين التى تقررت على مدارسنا بأنها منعت من النشر، وأسأله: متى؟ وأين؟ وكيف؟ ثم أى هذه الكتب؟ ثم تعلو نغمة التحامل عند الأستاذ الجندى حين يقول: "وقد أجمع الباحثون" ياالله!! من هم هؤلاء الباحثون؟ هل من العلمانيين؟ أشك فى ذلك!

لأن أى زيارة لإحدى المكتبات العامة أو لواحدة من مكتبات جامعاتنا.. تدحض ذلك وتقدم عددا من الرسالات الجامعية وآخر من الكتب عن إسلاميات العميد. هل هؤلاء الباحثون من علمائنا بالأزهر؟ ربما. ولكن حتى لا نعمم، والتعميم فى الحكم داء أغبر. هناك من الأزهريين من أنصف إسلاميات طه حسين، وها هو مفخرة زماننا الشيخ الشعراوى يثنى عليها فى مذكرات "ما بعد الأيام" المنشورة بالمصور للدكتور محمد حسن الزيات. وهذا أيضا شيخنا الأستاذ الباقورى يثنى على هذه الإسلاميات وغيرهما:

رأى التعقيب على هذه الفرعيات، وأولها: أن إسلاميات طه حسين أذاعت التفسير المادى للتاريخ.. هكذا! لو صدق هذا الرأى، فإن طه حسين يصبح شيوعيا، وتهمته هى الترويج للمنهج الماركسى. وأين؟ فى الدين! وكيف؟ بجعل الوقائع الاقتصادية

أساس كل الظواهر من تاريخية إلى اجتماعية، وأن هذه الوقائع الاقتصادية هى المحددة لها. باختصار طه حسين – فى رأى الأستاذ الجندى – يدخل التاريخ الإسلامى من خلال إنجلز وماركس، مع أن الرجل كان متأثرا بأوجست كونت ودور كايم وقبلهما ابن خلدون فى تفسيره للتاريخ.

ثانيها: من قال إن طه حسين انتقص من قدر الصحابة رضوان الله عليهم؟!.. وحتى إن حدث ونظر إليهم كسياسيين، فهل هذا معيب بعد انقطاع الوحى بوفاة الرسول ﷺ؟!

وثالثها ورابعها: التشكيك فى البطولات والروايات التاريخية.. أمور يجانبها الواقع.

الثانية

هذه مساجلة ثانية حول آراء طه حسين طرفاها كريمة زكى مبارك الأديب الكبير، حيث علّقت على ما كتبته حول هذه الآراء التى تخص والدها.

وهذا هو نص التعليق، يتلوه التعقيب...

تعليق كريمة زكى مبارك:

لعل من المصادفات العجيبة أن نحيى ذكرى رحيل زكى مبارك إلى عالم البقاء فى الثالث والعشرين من يناير بحديث عجيب عن زكى مبارك.

فتحت عنوان: "طه حسين ضحية المعرفة بالسماع والنقل بغير عقل "..كتب الأستاذ سامح كريم على صفحات جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٨٨/١٢/٢ عن كتاب "مستقبل الثقافة فى مصر" لطه حسين وعن موقف زكى مبارك من الكتاب فقال: "ونشط البعض من إياهم فى الدس والوقيعة، وزينوا للدكتور زكى مبارك وكان يتسم بطيبة القلب أن فى الكتاب ما فيه من مخاطر، وأيقظوا فى الرجل نوازع هى أبعد ما تكون عن نفس العالم المدقق والأديب المرهف، فشرع قلمه مهاجما كالعادة بعض ما جاء فى هذا الكتاب دون بحث أو تمحيص لا ينتظر ممن فى علمه وأدبه".

وأنا أقول لك لو أنك قلت من سنوات إن زكى مبارك كان يتسم بطيبة القلب

لكانت سمة من سمات النبل والشهامة. أما أن تقولها الآن فأنت أدرى ماذا تعنى، ولعلك أنت الطيب القلب لأنك قلت إن البعض من إياهم نشط فى الدس والوقيعة. وزينوا للدكتور زكى مبارك.. إلخ.

فمن الذى قال ذلك؟ أم أن المعرفة بالسماع والنقل بغير عقل؟

لقد كتب زكى مبارك عن كتاب "مستقبل الثقافة فى مصر" فى الرسالة فى يناير سنة ٣٠، وعاد فكتب مرة أخرى فى معرض مناقشته لكتاب طه حسين "قادة الفكر" فى نوفمبر سنة ٤٣، والمقال منشور فى كتاب "زكى مبارك ناقدا"، ومما قاله زكى مبارك: "إن التاريخ المكتوب يحدثنا أن مصر أول أمة رفعت الحضارة الإنسانية، فما الذى يمنع من أن يتلطف الدكتور طه حسين، فيقول كما تقول الوثائق بأن مصر سبقت اليونان إلى رفع قواعد المدنية فى أقدم عهود التاريخ".

وحين ظهر كتاب "النثر الفنى" قال عنه طه حسين: "إنه كتاب من الكتب أخرجه كاتب من الكتّاب".

وقال المسيو دى كومنين رئيس البعثة العلمانية الفرنسية بمصر: "لن يذكر التاريخ أنك الدكتور زكى مبارك أو الدكاترة زكى مبارك، ولكن سيذكر أنك مررت بالحياة فتركت فيها أثرا هو كتاب النثر الفنى باللغة الفرنسية".

"وقال زكى مبارك: "كتاب النثر الفنى ظهر باللغة العربية سنة ١٩٣٤، واستقبلته جميع الجرائد بالترحيب.. ولم يقف فى وجه الكتاب غير كاتبين هما: طه حسين وأحمد أمين، ولكن إبراهيم عبد القادر المازنى وقف وقفة خطيرة يصد بها هذين الكاتبين، وقد خافا منه خوفا شديدا. فقد تحداهما أن يأتيا بكتاب مثله إن كانا صادقين".

ويقول سنة ١٩٣٣: "عاد زكى مبارك إلى منصبه فى الجامعة المصرية إبان الفترة التى كان فيها طه حسين خارج الجامعة، فلما عاد طه حسين إلى الجامعة رفض تجديد عقد زكى مبارك وقال: أنا لم أستشر فى تعيينه حتى أستشر فى تجديد عقده".

وكتب الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى يقول: "إنى لأحدث نفسى أحيانا بأنى لو كنت أقول الشعر فى هذه الأيام لرثيت طه حسين فإنه يخيل إلى أنه قد مات".

وكتب الأستاذ سلامة موسى فقال: "يجب بالحق أن نخجل من مجازاته على هذا الإحسان بمحاربته فى عيشه وعمله، ولست أشك فى أن الجامعة المصرية تخسر بإخراجه منها أكثر مما يخسر هو. فإن رجلا له مثل كفاءته يستطيع أن يجد العيش الرحب فى أى مكان بالقاهرة أو فى خارجها".

هذا ما قاله الأدباء حول إخراج زكى مبارك عن الجامعة، وما قاله زكى مبارك نشره فى مقاله الشهير تحت عنوان: "طه حسين بين البغى والعقوق".. فماذا قال الأستاذ سامح كريم؟

قال: "اتخذ الخلاف بين الاثنين مظاهر عدة وصفها بعض النقاد بأنها مسفة من جانب الدكتور زكى مبارك".. وأنا بدورى أتساءل: من هم البعض؟ أم أنه المعرفة بالسماع والنقل بغير عقل؟ والعجيب يا أستاذ سامح كريم أنك مع كل هذا تتمسك برأى زكى مبارك حين يدافع عن طه حسين!!

فلتعلم أن زكى مبارك لم يحاول أن يرتفع بالوقوف على الأنقاض، ولم يكن من أنصار هدم الشخصيات. ولكنه كان ناقدا حرا أبيا، صادقا وصريحا.. ولذلك كنت تراه يقدح الجانب الذى يستحق القدح. وفى الوقت نفسه يمتدح ما يستحق المديح، وهذا هو النقد الشريف البناء.

تعقيبى على هذا الرأى

لم يكن الهدف من الرجوع إلى معارك طه حسين مع غيره من جيل الرواد كالدكتور زكى مبارك إثارة معارك قديمة لها ظروفها وملابساتها الخاصة، ولأطرافها أسبابهم ومبرراتهم الخاصة أيضا، إنما الهدف هو الاستفادة من مواقف هؤلاء الرواد الذين أخذوا على عاتقهم مهمة التنوير العقلى والوجدانى للجماهير، وبذلوا فى سبيل ذلك الكثير من التضحيات الباسلة، حتى جسدوا قيم النهضة الثقافية تجسيدا حيا، على نحو لم يستطع السابقون عليهم أن يحققوه، بل واستطاعوا أن ينقلوا فى معاركهم الساخنة الجدل الدائر حول عدد من القضايا من المستوى الضيق إلى مستوى أوسع وأرحب، والأكثر يجعلونه جزءا لا يتجزأ من التكوين الفكرى لعصر بأكمله،

وبفضلهم أيضا - كما يقرر أغلب الدارسين - أصبح هذا الجدل حقيقة أساسية من حقائق العصر، وموضوعا من أكثر موضوعاته تداولا بعد أن كان محصورا داخل الصالونات لا تشارك الجماهير فيه بالرفض أو القبول.

ويوم أن يوضع الأدب الحديث فى موازين النقد الشاملة سوف يزيد حجم الاهتمام بهذه المعارك التى خاضها هؤلاء الرواد، أو حتى المعارك التى أثيرت حولهم. فالذى يعرف قدر هذا الجيل من الرواد يدرك كيف يمكن أن تمتد ظلال هذه الحفنة على الملايين التى عاصرتهم أو التى جاءت بعد رحيلهم.

وعلينا كمتلقين لهذه المعارك أن نستفيد من جوانبها الإيجابية، وليكن معلوما لدينا مقدما أن الواحد من أطرافها كان تيارا من التساؤل والشك، وبحرا من الهدوء والقلق، وعاصفة من الأفكار المتصارعة.. الواحد منهم كان طليقا وغير طليق فى آن واحد، فى سكونه أو فى تنقلاته على طريق المجد الأدبى.

مثلا لقد تحمس طه حسين لآراء مثيرة فى عنفوان شبابه، ولكنه تراجع وخفف من هذه الآراء، أو لعله شطبها بجرة قلم واحدة وكأنه لم يقلها، ولسان حاله يقول "فى جنة الشوك": "إنى أكره الطريق المطروقة التى يسلكها كل إنسان، ولا أشرب من الحوض المباح، وأعاف مما تبتذله الدهماء..".

وزكى مبارك تحمس أيضا لأشياء فى صدر شبابه، ولكنه نقدها بعد ذلك حتى وصل به الأمر أن ينتقد نفسه صراحة حين أثبت فى كتابه التصوف الإسلامى عام ١٩٣٧ أنه ظلم الغزالى عندما قدم كتابا هو "الأخلاق عند الغزالى" عام ١٩٢٤. ولم يتحرج من إعلان ذلك فى مقالة بمجلة الرسالة عام ١٩٤١ قال فيها: "أثبت فى كتاب التصوف الإسلامى ظلم الغزالى فى كتاب "الأخلاق عند الغزالى"، والحكم على النفس من مظاهر القدرة على مغالبة الأهواء".

ولا يعيب التنقل فى الرأى لتصحيحه واحد من هذا الجيل، بل ربما ينصفه فى ميزان التقييم العام، حين ندرك أن مهمتهم كانت تنويرية تتجاوز من يعاصرونهم إلى الذين يأتون بعد رحيلهم.

وعلى ضوء ذلك أتصور قراءة معارك هذا الجيل أو ما يتصل بها. ومنها هذا الرد الذى نقرؤه معا، وفى ذهننا مقولة: "المعرفة بالسماع والنقل بغير عقل "كمنهج نختبر به ما بين السطور.

* فمن البداية يتضح أن السيدة الفاضلة ترغب فى أن تحيى ذكرى رحيل والدها ولا بأس فى ذلك، إلا أن البأس هو أن تجعل لذلك مدخلا هو الرد على مقال نشر فى ١٩٨٨/١٢/٢ تكتبه - كما هو مؤرخ - فى ١٩٨٩/١/٩ ليواكب الذكرى فى ١٩٨٩/١/٢٣. وكنت كغيرى أتمنى ألا يكون لرغبتها مداخل لسببين: أولهما أن الكتابة عن زكى مبارك لا تحتاج إلى مداخل أو مقدمات، وثانيهما أن ما كتبته ووصفته السيدة مشكورة بأنه حديث عجيب، لم يكن خاصا بالدكتور زكى مبارك وحده بل شمل كثيرين، فى مقدمتهم المفكر القومى ساطع الحصرى والدكتور محمد محمد حسين وغيرهما ممن كانوا طرفا فى معركة كتاب "مستقبل الثقافة فى مصر".

وتتساءل عن "البعض من إياهم" الذين نشطوا فى الدس بين طه حسين وزكى مبارك. وأجيبها بأن ما تسأل عنه موجود بالفعل فى مقدمة الموضوع الذى ترد عليه ولها وحدها أكرر: "هم بعينهم أصحاب الاتهامات الظالمة التى استهدفت طه حسين منذ نشر كتابه "فى الشعر الجاهلى" فقد كان البعض يعرف تأييد زكى مبارك، فانتهزوا فرصة ما وقع بينهما من جفوة الدس، وجعل زكى مبارك يهاجم فى مقال الكتاب بالرسالة".

وبمناسبة ذكر هذا المثال أرجو من السيدة أن ترجع إلى مجلة الرسالة لتعرف أن تاريخ نشر مقال والدها كان فى يناير ١٩٣٩ وليس فى يناير ١٩٣٠ كما تذكر فى ردها. إذ بإعمال قليل من العقل كيف يمكن أن يهاجم زكى مبارك كتابا لطه حسين ربما لم يكن قد فكر فيه أصلا؟ حيث إن كتاب "مستقبل الثقافة فى مصر" صدر عام ١٩٣٨.. ونقد الكتب عادة ما يكون بعد صدورها لا قبل نشرها بسنوات.

* وتورد آراء لروادنا ومنهم: المازنى وسلامة موسى.. تزكية للدكتور زكى مبارك الذى لا يحتاج إلى تزكية.. وإبرازا لجحود كاتب هذه السطور الذى لا يكن لكبارنا الراحلين إلا كل مودة وإكبار. ومع تقديرى لهذه الآراء أسأل وماذا أيضا عن رأى المازنى: "لو أخلى زكى مبارك كتابته عن زكى مبارك لكان أحسن مما هو عليه الآن، أو رأى العقاد: "زكى مبارك هو موضوع زكى مبارك الوحيد، وإذا كتب ألف مقال فى هذا الموضوع وقرأت واحدا منها، ففى ذلك كل الكفاية". أو رأى طه حسين: "زكى مبارك لا يخلوا إلى قلمه إلا احتال على رأسه عفريت.. "..والإجابة أن الثناء لا يقيم أديبا عظيما كزكى مبارك، كما أن الهجاء لا يهدم صرحا شامخا شيده زكى مبارك بأعماله!

* ثم تتساءل عن ماذا قاله كاتب هذه السطور عن زكى مبارك، وأذكّرها بأننى قلت عن صلته بطه حسين: "زكى مبارك من تلاميذ طه حسين النابهين وأصدقائه المعدودين". وقلت عن طبيعته المصاولة: "إن كان طه حسين محاربا.. حصنه فى نفسه، فإن زكى مبارك مقاتل رماحه فوق ظهره". وقلت عن تكوين زكى مبارك الثقافى بأنه "يشبه تكوين طه حسين.." إلى آخر ما هو منشور بالمقال موضوع الرد.

* وتتساءل عن الذين وصفوا مظاهر الخلاف بين طه حسين وزكى مبارك بأنها مسفة وأجيبها: كثيرون. ويكفى أن أذكّرها بمصدر أشرت إليه فى المقال الذى ترد عليه هو "المعارك الأدبية" للأستاذ أنور الجندى لنقرأ فى ص ٦٣٨: "وتستمر المعركة بينهما (أى طه حسين وزكى مبارك) طويلة لا تنتهى، ويصل فيها زكى مبارك إلى حد كبير من الإسفاف.." .ومن مراجعة هذه المعركة فى وثائقها الأصلية يتبين دقة ما ذهب إليه هذا المصدر، يضاف إلى ذلك رأى المازنى فى شخصية زكى مبارك المسجل فى الكتاب الذى ذكرته فى ردها وهو "صفحات مجهولة من حياة زكى مبارك" للأستاذ محمد محمود رضوان. يقول المازنى: "إنه أى زكى مبارك (يحشر) فى كتبه كل ما يسمعه من الناس فى مواطن الجد والهزل.

ولا يعنيه أن يسوءهم أن يرى عنهم ما يمضون به أوقات الفراغ فى مجالس السمر واللهو". بماذا إذن نصف هذه المعرفة؟

* وتتعجب من رجوعى إلى رأى للدكتور زكى مبارك، مع أن العجب أن تخاطبنى بعد ذلك: "فلتعلم"! ليت الدكتور زكى مبارك كان حيا ليقرأ هذا الرد. عندئذ كان قد نصح كريمته بأن تترك أمر الدفاع عنه - إن كان هناك هجوم - لأدبه وعلمه، أو حتى تترك هذه المهمة للباحثين والدارسين الذين يؤثرون درهما من الوعى على قنطار من الحماس.

* * *

٦ - قضايا الشعر الجاهلى
والدرس المفيد

لا يزال البحث مستمرا حول ما نشره الدكتور طه حسين بكتابة الأشهر " فى الشعر الجاهلى" فى أبريل عام ١٩٢٦ حتى لو مضى على ذلك ما يقرب من ثلاثة أرباع قرن. والغريب أنه كلما تطور البحث الجاد الموضوعى فى هذه القضية نكتشف جوانب جيدة لم تكن واضحة أثناء الهجوم على صاحب هذا الكتاب وإدانته بشتى الاتهامات، والأغرب أن تكون هذه الجوانب المكتشفة مع طه حسين وليست ضده، وهو ما يؤكد أن الرجل لم يكن يريد للثقافة إلا الإصلاح ولا لعقيدته إلا التقدير والاحترام.

لقد رأينا فى أطروحة الدكتوراه للمفكر الكبير الدكتور ناصر الدين الأسد عنوانها: "مصادر الشعر الجاهلى" جوانب كثيرة تؤيد ما جاء به الدكتور طه حسين، ورأينا فى جهد المفكر الكبير الدكتور عبد الرحمن بدوى تأييدا له حينما قدم دراسة إضافية لترجمة آراء المستشرقين فى الشعر الجاهلى فى كتاب بعنوان: "دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلى"، ومن بين هذه الدراسات مقالة للمستشرق الإنجليزى مرجليوث عنوانها: "نشأة الشعر الجاهلى" كل ما جاء فيها أو فى غيرها من الدراسات الخاصة بالمستشرقين فى قضية الشك فى الشعر الجاهلى، إنما هو فى الأصل يرجع إلى ماكتبه ابن سلام الجمحى بكتابه "طبقات فحول الشعراء" قبلهم بما يزيد على الألف عام. ومعنى هذا أن طه حسين وجماعة المستشرقين قبله بمن فيهم مرجليوث ينهلون من معين واحد هو ما قاله ابن سلام وغيره من نقاد العرب الأقدمين فى الشك فى صحة الشعر الجاهلى.

كما رأينا فصولا ممتعة للدكتور إبراهيم عبد الرحمن حول هذه القضية ضمن فصول كتابه "بين الجديد والقديم" مؤكدا أن مرجليوث شك فى الشعر الجاهلى "كله"، على

حين كان شك طه حسين فى "بعضه"، طبيعى أن يختلف الكل عن البعض، ثم كانت بعد ذلك إشارة الباحث الكويتى الدكتور عبد الله المهنا فى رسالة للدكتوراه إلى وجود مقالة كان قد كتبها مرجليوث نفسه بمجلة الجمعية الملكية الآسيوية عام ١٩٢٧، وفيها تبرئة لطه حسين مؤكدا – أى مرجليوث – أن مسار بحث مرجليوث يختلف عن مسار بحث طه حسين، وأن ما وصل إليه من نتائج تختلف عما وصل إليه طه حسين.

وغير ذلك من جهود جعلت البحث فى هذه القضية مستمرا ومتطورا وفى صالح طه حسين، إلا عند الذين لا يهمهم إلا اتهام طه حسين حيا أو ميتا دون حجة أو دليل. وآخر هذه الجهود العلمية المنظورة كتاب جديد للدكتور محمد أبو الأنوار عنوانه: "قضايا الأدب الجاهلى والدرس الأدبى المعاصر"، وقبل التعرض لما جاء فى هذا الكتاب من جديد، لنا أن نتعرف أولا على صاحبه الدكتور أبو الأنوار الذى نعرفه باحثا مثقفا إلى أبعد الحدود، كما أنه ليس من تلاميذ طه حسين حيث كانت دراساته فى الليسانس والماجستير والدكتوراه بكلية دار العلوم التى لها أسلوبها العلمى الذى يختلف عن أسلوب كليات الآداب بالجامعة التى يسيطر عليها طه حسين. وأما إسهامات الدكتور أبو الأنوار فهى كثيرة متعددة، أخص بالذكر منها ما كتبه عن المنفلوطى فى ثلاثة مجلدات من القطع الكبير كلها إنصاف لهذا الأديب واعترافا بما له من فضل على الثقافة العربية، الأمر الذى تنبهت إليه مؤسسة الملك فيصل فوجهت إليه جائزتها العالمية فى الأدب. ولهذا ولغيره أقول: إن إنصاف طه حسين من أستاذ درعمى – أى من خريجى كلية دار العلوم – تعتبر شهادة جديدة للعمل الذى قام به طه حسين منذ ثلاثة أرباع قرن، كما أنه يعتبر إنصافا للبحث العلمى، وهذا هو الأهم. لقد تجرد هذا الباحث من كل ما يشين البحث العلمى من غرض أو هوى ليعامل المادة الأدبية معاملة الباحث فى معامل للكيمياء أو الفيزياء، بوضعها تحت مجهر البحث ليرى دقائقها وتفصيلاتها، ليخرج فى النهاية بنتيجة.. إما لهذه المادة أو عليها، لا أن يصنع بها كما صنع البعض عندما بحثوها مستخدمين المعارف السمعية وليست المقروءة.

إن الدكتور أبو الأنوار يمهد لحديثه عن الشعر الجاهلى بطرق موضوعات متصلة بهذا الشعر، فيعقد فصولا ممتعة حول معنى كلمة "الأدب" فى العصر الجاهلى بين الكتابة والرواية، وعندما يتطرق إلى قضية الشك فى الشعر الجاهلى ومفهوم الشعر فيه، ليطوف بنا فى موضوعات لا تقل أهمية حول المعلقات والشعر الجاهلى بين الكتابة والرواية، وعندما يتطرق إلى قضية الشك فى الشعر الجاهلى لا يند عن ذاكرته كتابات للعرب الأقدمين وأخرى للمستشرقين وثالثة للعرب المحدثين، متخذا أديبين كبيرين هما مصطفى صادق الرافعى وعباس محمود العقاد كمثالين حتى يصل إلى أفكار طه حسين فى قضية الشعر الجاهلى، ليناقشها من منظورات مختلفة منها: السياسة والدين والقصص والشعوبية والرواة، ليصل إلى معركة الشعر الجاهلى عام ١٩٢٦ غير مستغرق فى تفصيلات دارت حول هذه المعركة، لأنها نشرت عشرات المرات ليقدم لنا بعد كل ذلك الجديد الذى يميزه عن غيره من الباحثين حيث يخطو بالبحث العلمى – فى هذا المجال – خطوات جديدة، وهو الجزء الخاص "بحديث الوثائق بين إنصاف البحث العلمى وإنصاف طه حسين"، وفيه يرى (أى الدكتور أبو الأنوار) أن إنصاف طه حسين يتضح فى أنه رجع رجوعا صريحا فى كتابه "مرآة الإسلام" عما قاله بكتابه "فى الشعر الجاهلى".. وطبيعى أن يعتمد فى ذلك على مقابلة النصوص بين الكتابين.

ويدلل الدكتور أبو الأنوار على أسباب هذا الرجوع بالقول: "ومن المفيد الإشارة هنا إلى أن منهج طه حسين فى حياته الفكرية وطاقته الإبداعية يقوم على أنه يكتب ما يفكر فيه وما يقتنع به، فإذا انتهى منه كره ورفض الرجوع إليه، لأنه مشغول بقطع جسور الفكر والإبداع فى رسالته التى حمّلها لنفسه ولا وقت لديه للرجوع إلى الذى انتهى منه. فهكذا كان طه حسين كالإعصار الذى يعصف بصورة غير متوقعة. إنه يدمر ليعيد تشكيل الطبيعة حوله فى رؤى وأبعاد جديدة غير عابئ بما كان لها من وجود سابق" إلى أن يقول: "وإذن فطه حسين ليس على شاكلة كثير من المؤلفين والكتّاب والمفكرين الذين يندر الواحد منهم أن يعود إلى فكره بالتمحيص والتنقيح، وقد يضيف إليه أو يحذف منه أو يغير فيه،

وقد يعلن تغيير موقفه من فكرة سابقة كان قد عرض لها من قبل بالمعالجة. ولذا فإنه من الضرورى لدارس طه حسين أن يعاود النظر وأن يمحص الآراء والأفكار لديه، وأن يجيد مقابلات أقواله وتتبعها فى المصادر المختلفة".

ثم يقابل بين نصوص الكتابين: "فى الشعر الجاهلى" و"مرآة الإسلام" فى موضوعات مختلفة عددها اثنا عشر موضوعا منتهيا إلى نتيجة يعبر عنها قائلا: "وهكذا يتبين لنا من هذا العرض المهم الذى يمثل مرآة عاكسة دقيقة التحديد لطبيعة رجوع طه حسين عن آرائه وتصوراته فى الشعر الجاهلى التى قوبلت بمعارضة بالغة الشدة".

ثم يقول: "وبهذا العرض العلمى الموثق يتم إنصاف البحث العلمى فى حقيقة ما قاله طه حسين من قبل فى كتابه "فى الشعر الجاهلى"، وإنصاف العلامة طه حسين الذى أثرى حياتنا الفكرية والثقافية فى كل أوقات الاتفاق والاختلاف معه".

هذا الذى قام ببحثه الدكتور محمد أبو الأنوار بدقة وموضوعية فائقتين، أشار إلى شيء منه العلامة الراحل محمود محمد شاكر فى مقالة له بمجلة الكاتب فى مارس ١٩٧٥ العدد ١٦٨، وهو ما سجله بعد ذلك كاتب هذه السطور فى مقالاته عن طه حسين بالأهرام. قال الأستاذ شاكر: "لقد لقى طه حسين ما لقى ونسب إليه ما أقطع بأنه برىء منه، والدليل على براءته عندى هو أنه منذ عرفته فى سنة ١٩٢٤ إلى أن توفى فى ٢٨ أكتوبر ١٩٧٣ كان محبا للسانه العربى أشد الحب حريصا على سلامته أشد الحرص متذوقا لروائعه أحسن التذوق.. فهو لم يكن يريد قط باللسان العربى شرا، بل كان من أكبر المدافعين عنه المنافحين عن تراثه كله، ومحال أن يحشر من كانت هذه خصاله فى زمرة الخبثاء ذوى الأحقاد من ضعاف العقول والنفوس الذين ظهروا فى الحياة العربية لذلك العهد".

وقال (أى الأستاذ شاكر): ودليل آخر أنه (أى طه حسين) حين انجلى غبار ما أثاره بكتابيه "فى الشعر الجاهلى" و"مستقبل الثقافة فى مصر".. انجلت بعد ذلك

نفسه وناقض به ما كتبه وما قاله فى هذين الكتابين، ومرد ذلك إلى هذه الخصال التى كادت تكون فى نفسه، وفى حبه للعربية وحرصه على سلامتها، وما هداه الله إليه من حسن التذوق لروائع البيان".

ويستطرد الأستاذ شاكر إلى أن يقول: "لم تكد تمضى عشر سنوات على ظهور كتاب "فى الشعر الجاهلى" حتى أدرك طه حسين إدراكا واضحا جدا أن اللسان العربى قد صار فى محنة لا فى نفسه، بل فى هذه الأعداد الهائلة من المثقفين الذين رفضوا الأدب العربى كله ورفضوا القديم كله شعره ونثره، وأن أعدادهم إلى تكاثر كلما تقدمت الأيام، فأخذ يعبر عن ذلك بألفاظ محزنة باكية، وحاول أن يتألف - بكتاباته بعد ذلك - هؤلاء النافرين ويردهم إلى الطريق القويم إلى أدبهم القديم".

كذلك يسجل الأستاذ شاكر بمقدمة كتاب "المتنبى" ص٣٠، رجوع طه حسين عن بعض ما قاله بكتاب "فى الشعر الجاهلى" عندما أدرك الخطر الذى يحيق بالثقافة العربية ويهدد بناء المجتمع قائلا: "بدأ الدكتور طه حسين - رحمه الله - ينشر فى جريدة الجهاد مقالات انتهى منها فى ٢٢ مايو ١٩٣٥. وكانت ملخصها رجوعا صريحا عن بعض ما قاله فى الشعر الجاهلى عام ١٩٢٦".

ثم يورد الأستاذ شاكر أمثلة تدل على هذا التراجع. ومعنى هذا أن طه حسين فزع للانصراف عن الثقافة الأصيلة، وكان عليه أن يعدل عن آرائه.

وأما الدرس المفيد الذى يجب أن نتدبره من تأمل هذه القضية حسبما رآها اثنان من كبار علمائنا المتخصصين فى الأدب واللغة والنقد العلامة محمود شاكر والدكتور محمد أبو الأنوار، فهو أنه يحق للأديب المبدع أن يرجع عن رأى اتخذه واكتشف فيه خطرا على مجتمعه على اعتبار أن ما يكتبه ليس كلاما منزلا من السماء أو قانونا كونيا لا يجوز الرجوع عنه من الناحية العلمية البحتة. وقد تكون علة الأديب فى ذلك هى التجديد والتطور الذى ينبغى أن يواكب عصره وزمانه، والأهم أن يتمشى مع الصالح العام انطلاقا من أن حرية الرأى التى لا تقترن

بالمسئولية تتحول إلى تحرر ينتهى إلى الفوضى والعبث بقيم المجتمع. وفى المقابل فإن المتلقى لإنتاج الأديب حتى لو كان مسئولا ثقافيا عليه أن يعى ذلك جيدا، وأن يدرك فى ممارساته شهادات التاريخ القائلة بأن السلطة المطلقة مفسدة مطلقة، وأن سلطة بلا حدود تؤدى إلى استبداد غير محدود، هذا الدرس وغيره من دروس ينبغى أن نعيها جميعا - مبدعين ومسئولين - حتى نتقى الله فى مجتمع يعيد بناء نفسه بعد محن كثيرة مر بها طوال تاريخه الحديث.

* * *

سادسا: افتراءات وادعاءات

١- كتاب أسود يشوه تاريخ طه حسين.

٢- هجوم جارح وجهل فاضح.

٣- ادعاءات السكرتير الخاص بعد أربعين عاما.

٤- شباب الفكر بعد الثمانين.

١ - كتاب أسود يشوه تاريخ طه حسين

طه حسين عميد الأدب العربى، الذى أرسى شرعية قيم جديدة فى العلم، وابتدع موازين حديثة فى النقد، وزعزع المسلمات التقليدية فى البحث.

طه حسين صاحب الإرادة القوية التى هزمت حرمانه من حاسة البصر.. والذى أضاء تاريخ صدر الإسلام بلوامع وضاءة، ووجّه الدراسات الأدبية وجهة جديدة نقلتها من عصر الميوعة والتزمت والانحطاط إلى عصر القوة والحيوية والانطلاق، وسعى إلى نشر الفكر العالمى بين أبناء العربية إيذانا ببعث روحى جديد.

طه حسين صاحب فكرة تعميم التعليم.. والذى نادى والتزم بمسئولية التنوير الوجدانى للجماهير، وزرع ومارس كثيرا من التضحيات الباسلة قيم النضال، وآمن واقتنع بسيادة الإنسان العربى على أرضه ومصيره ومستقبله.

طه حسين الذى رحل عنا منذ سنوات، هذا المفكر بكل سنواته وأعماله ومواقفه.. يصدر عنه كتاب أسود فى السعودية عنوانه: "طه حسين فى ميزان العلماء والأدباء" يجتهد معده فى جمع كل الاتهامات التى وجهت للرجل على مدى نصف قرن.. ليقدمها فى ذكراه!

وواضح أن الكتاب يختار من العلماء والأدباء هذا الجانب المعارض تماما لفكر طه حسين، وكأن الجانب المؤيد لطه حسين لا يتشرف بكرامة العلم والأدب، مع أنه كان ينبغى أن يشتمل الكتاب على الجانبين معا. ولكن ماذا يفيد؟ والنية مضمرة للنيل من طه حسين وتشويه تاريخه بأكثر مما يمكن. ومتى؟ فى ذكراه وتقدمه منذ أيام قليلة صحيفة "المدينة المنورة" السعودية على صفحتين جاحظتين من ملحقها، مؤكدة أنه بهذا الكتاب ومعده محمود مهدى الاستانبولى - الذى لا يعرفه أحد فى أى قطر من الأقطار العربية وربما فى السعودية نفسها، واهتمامنا به فى الأصل هو اهتمام بمن وراءه

- يتبين الرشد من الغى، وحتى لا تظل سموم وأباطيل طه حسين متداولة ومبثوثة فى ثنايا كتبه، على حين الحق متوار ومهجور.. هكذا!!

وبالطبع الكتاب ملىء بالاتهامات التى أقلها أن طه حسين جاهل وكافر وسارق، وأنه تلميذ للمستشرقين، وصديق للمبشرين، وداع للإباحية، وعدو للعربية، وهادم للغتنا، ومخرب لثقافتنا.. إلخ.... مما لا يحتاج الدفاع بعد أن تولى ذلك فكر طه حسين وتلاميذه ومريدوه.. فقط هناك أمور لا يحسن السكوت عليها، ومنها:

أولا: تكفير الدكتور طه حسين ورميه بالإلحاد والخروج على الإسلام بمناسبة ومن غير مناسبة، أمر أصبح غير مستساغ من مسلمين يعرفون أمر دينهم. هذا الدين الذى يعلمنا احترام عقيدة أى إنسان ما دام يوجد دليل واحد على صدقها ضد تسعة وتسعين دليلا على الكفر، وإن أكبر جرم هو أن يحكم إنسان على عقيدة إنسان آخر لاختلاف فى الرأى. فإذا كان الرجل مسلما كما يعلن ذلك، فمن الذى يستطيع الحكم بكفره؟ والأغرب من ذلك أن مسألة تكفير طه حسين قد انسحبت أيضا على أسرته، فأصبحنا نقرأ أن طه حسين "عمد أبناءه على نحو ما يفعله المسيحيون". وليت هذه الكتابات تدرك أن أبناء طه حسين لهم مكانتهم فى الهيئة الاجتماعية، ومن حقهم رفع هذا الأمر للقضاء إذا كان المقصود منه الإساءة إليهم.

ثانيا: القول بأن طه حسين قد سرق آراء المستشرقين فى كتابه "فى الشعر الجاهلى" قول يتهافت أمام الدراسات الجادة. وقد أشار الدكتور عبد الرحمن بدوى إشارة عابرة فى تقديمه لكتاب "دراسات حول صحة الشعر الجاهلى" إلى أن الدكتور طه حسين قد تأثر فى ذلك بأجدادنا العرب، وفى مقدمتهم ابن سلام الجمحى. وتؤكد إشارة الدكتور بدوى مراجعتنا لما جاء فى كتاب "فى الشعر الجاهلى" للدكتور طه حسين، وكتاب "طبقات فحول الشعراء" لابن سلام، حيث يتبين وجه تأثير الثانى فى الأول. فمثلا يقول الدكتور طه حسين فى ص٦٦ من كتابه: "ولابن سلام مذهب الاستدلال لإثبات أن أكثر الشعر قد ضاع ولا بأس أن نلم به، فهو يرى أن طرفة ابن العبد وعبيد بن الأبرص من أشهر الشعراء الجاهليين وأشدهم تقدما، وهو يرى

أن الرواة والمصححين لم يحفظوا لهذين الشاعرين إلا قصائد بقدر عشر.. ونجد أن ابن سلام يقول فى كتابه: وما يدل على ذهاب العلم وسقوطه قلة ما بقى فى أيدى الرواة والمصححين لطفرة وعبيد بن الأبرص لهما قصائد بقدر عشر، وإن لم يكن لهما غيرهن فليس موضعهما حيث وضعا من الشهرة والتقدمة..".

ويقول طه حسين فى كتابه ص٦٧: "وقد رأيت أن القدماء قد سبقونا إلى هذه النتيجة (يقصد وضع الشعر ونسبته إلى الجاهلية)، وأريد أن نرى أنهم قد شقوا بها شقاء كثيرا. فابن سلام يحدثنا بأن أهل العلم قادرون على أن يميزوا الشعر الذى ينتحله الرواة فى سهولة. ولكنهم يجدون مشقة وعسرا فى تمييز الشعر الذى ينتحله العرب أنفسهم".. ونفس الفكرة قال بها ابن سلام فى كتابه: "ثم كانت الرواة بعد، فزادوا فى الأشعار وليس يشكل على أهل العلم زيادة ذلك ولا ما وضع المولدون. وإنما عضل بينهم أن يقول الرجل من أهل بادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم فيشكل ذلك بعض الإشكال...".

وهكذا نجد طه حسين قد تأثر فيما كتب فى كتابه الأشهر "فى الشعر الجاهلى" بأجداده العرب، وفى مقدمتهم ابن سلام الجمحى لا أن نقول عنه سارقا من مستشرقين أو أجانب.

ثالثا: اتهام طه حسين بأنه كان يعمل على هدم لغتنا العربية، وأنه كان يريد أن يكتبها بحروف لاتينية معلنا ذلك فى مؤتمر للمستشرقين، والرد على ذلك أننا جميعا نعلم كم كان طه حسين يقدس لغته العربية الفصحى، ومن كلماته التى عاشت: "لا أدب إلا أدب اللغة الفصحى، والذين يستخدمون العامية ليسوا واقعيين وإنما هم عاجزون" هذه واحدة. والثانية خاصة بكتابة اللغة العربية بحروف لاتينية. والتاريخ يحدثنا بأن المنادى بهذا المشروع هو الأستاذ عبد العزيز فهمى وليس طه حسين، وكانت معركة بينه وبين أساتذة فى مقدمتهم: العقاد وكرد على ومحمود شاكر فى يناير عام ١٩٥٤.

يبقى البحث الذى أشار إليه صاحب هذا الكتاب من أن طه حسين ألقاه أمام

مؤتمر المستشرقين.. أين هو؟ ولعلنا هنا نرجوه أن يدلنا عليه، فربما يسدى خدمة لعدد من الباحثين الذين أضناهم التنقيب عن هذا البحث.

رابعا: الادعاء بأن طه حسين قد نشر الإباحية من خلال نشره للشعر والقصص الفرنسى.. وهكذا. هل نسمى رسالته لتقديم عيوب الأدب العالمى نشرا للإباحية والفجور؟! إن هذا العمل من الإنجازات التى تحسب لطه حسين وليس عليه، وبنفس الطريقة اتهامه بأنه صبغ فكرنا الإسلامى بالصبغة الرومانية اليونانية. هل توصف محاولته الرائدة فى فتح نوافذ على الفكر العالمى بأنه أساء إلى فكرنا الإسلامى؟! ثم ماذا أراد طه حسين من تقديمه لهذا الفكر اليونانى؟ إنه أراد أن ينقلنا فى كتاب "قادة الفكر" إلى الشاعر هوميروس.. وإلى الفلاسفة سقراط وأفلاطون وأرسطو.. إلى الإسكندر الأكبر ويوليوس قيصر. وليقول لنا فى النهاية: إن المجتمعات فى تطورها تحتاج أولا إلى قيادة الشعراء والفلاسفة، ثم الحكام المفكرين، وإنه أراد أن يقدم فى كتاب ترجمه عن أرسطو هو "نظام الاثينيين" فائدة للمشتغلين بالتاريخ والنظم السياسية والإدارية والقضائية، حين يسجل نظام أمة قادت حركة الفكر زمنا طويلا. إن اعتراض صاحب هذا الكتاب على اهتمام طه حسين بالفكر اليونانى والرومانى شبيه باعتراض أحد السطحيين على الكتاب الذى قال: إن الأدب اليونانى أدب عفاريت، فكان رد طه حسين عليه بأنه رجل رضى بجهله، وجهله رضى به، فالأمران متشابهان.

إلى آخر هذه الادعاءات التى بالقطع تسىء إلينا حين تشوه تاريخ كبارنا، ونفعل هذا والأمم من حولنا تكرم كبارها. فهذه مثلا فرنسا تكرم شاعرها فيكتور هوجو فى عيد ميلاده الثمانين، وتعتبر ذلك اليوم عيدا قوميا أقيمت فيه أقواس النصر، واحتشدت الجماهير أمام بيت هوجو، وتوجه رئيس وزراء "جول فيرن" مع حكومته لتحية هذا الشاعر العظيم فى بيته. وفى نفس اليوم يدخل هوجو البرلمان الفرنسى ليهب رئيسه "ليون سى" واقفا ومعلنا: "لنقف جميعا تحية لهذا العبقرى الذى يشرف مجلسنا اليوم". وفى ألمانيا يكرمون شاعرهم جيتى، ويجعلون بيته قبلة للزائرين من كل صوب وحدب. وتطوف فى حجرات البيت بعد أن تخلع نعليك قبل أن تدخل حتى لا يمحو

وقع الخطى معالـــم الأرض الخشبية التى كان يمشى عليها جيتى! . وفى إنجلترا يصرون على تقديم شكسبير إلى أطفالهم قبل شبابهم حين يبسطون أعمال هذا العبقرى بشكل يستوعبها طفل المرحلة الأولى.

وفى روسيا يقدرون دستوفيسكن وبوشكين، حيث يقيمون لهما متحفين عظيمين يقصدهما زوار هذا البلد ليشموا رائحة الحياة التى كان يحياها هذان العظيمان. وحتى فى البلاد التى ليس فيها كبار يصطنعون الروايات الخيالية والأساطير التى يشحنونها بالمبادئ والقيم التى يريدون أن يغرسوها فى نفوس النشء وعقول الشباب.

أما نحن، فلدينا التاريخ ولدينا الكبار، ولكن لدينا أيضا عباقرة مثل صاحب هذا الكتاب يصرون على هدم هؤلاء الكبار وتشويه تاريخهم.

* * *

٢ - هجوم جارح وجهل فاضح

فى المكتبات كتاب غاضب وجارح، باللغة العربية عنوانه: "حضرات الزملاء المحترمين" استحل الكرامة والأعراض والأموال والأسرار للكاتب الفلسطينى ناصر الدين النشاشيبى، الذى عرفناه صحفيا كبيرا ورئيس تحرير جريدة الجمهورية فى أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات. وهذه من الأخطاء التى تمت فى المرحلة الناصرية والتى تنبهوا لها فأعفوه من موقعه - هذا الكتاب فيه غمز ولمز.. تهجم وتطاول على عدد كبير من كتّابنا الكبار، الذين شاء حظهم العاثر أن يكونوا زملاء له فى مهنة الصحافة، حيث يتهم بعضهم بالعمالة لأجهزة المخابرات الأجنبية والعربية، والبعض الآخر بالدس والوقيعة وسوء الخلق مثل ملازمة الراقصات والمطربات وبنات الليل.. سامحا لنفسه بالهجوم بغير دليل أو شهود. اللهم إلا إذا اعتبر نفسه هو الدليل الذى ليس بعده دليل وشاهد العيان الوحيد.. ولعله أدرك أن اتهاماته مردودة من أساسها حين سارع قائلا فى مقدمة كتابه وكأنه يصادر حق الآخرين فى الرد: "إننى لن أرد سلبا أو إيجابا، ولن أكترث لمن ينوى أن يسدد معى حسابات قديمة، أو يفتح معى حسابا جديدا".

ثم يهاجم زملاء المهنة جملة وتفصيلا، وكأنه ليس هو واحد منهم، حيث يذكر فى مقدمته أنه هبت على الميدان الصحفى فى أكثر من عاصمة عربية رياح سمومية، دمغت الصحفى العربى بأكثر من صفة.. تتعلق بحدود ثقافته، ونشأته وميوله فى الغيرة والدس والحسد، وحبه للمال والشهرة والأضواء وخضوعه للمشى فى ركاب الحكام، والمصاريف السرية، والتطاول على أصحاب الأقلام والصحف، واختلاق الأخبار والمواقف، والانحناء المذل أمام إغراء المال.. وغيرها من أسباب أقنعت الزعيم عبد الناصر بتأميم الصحافة المصرية.

ثم يسرد عددا من الأسماء اللامعة فى سماء حياتنا الصحفية يفرد لكل منهم فصلا

فى مقدمتها: مصطفى أمين وعلى أمين وإحسان عبد القدوس ومحمد التابعى وأحمد بهاء الدين وكامل الشناوى وموسى صبرى، وأنيس منصور... وأخيرا طه حسين.. ويستخدم مع بعضها الغمز واللمز، ومع البعض الآخر التطاول والاجتراء والاتهامات التى ينقصها الدليل. ومع أن ما كتبه من خطايا وأخطاء البعض يكفى ويزيد... لتدمير أى منهم أمام الأجيال... إلا أنه مع ذلك يعلن أنه لم يكتب كل ما عرف عن كل من عرف، وإنما اكتفى بسرد بعض الخفايا والخطايا..

والحق أن هذه الخفايا التى يذكرها النشاشيبـى بشعة بكل المقاييس، إلا أن الذى يقلل من بشاعتها أن المرء إذا تأملها بموضوعية وحياد اكتشف أنها لا تستند إلى حجة أو دليل.. وإن كاتبها يريد التنفيس عن دفين غضبه.

ولن تتعرض هذه السطور لما قاله صاحب الكتاب عن زملائه الذين قد استحلوا الكرامة والأعراض والأموال والأسرار، كما يصفهم فى وقت يقول عن نفسه إنه: "مقدسى الأصول، فلسطينى الهوى، عربى الميول، قومى النزعة، صميمى المبدأ "، وإنه فى شبابه تفوق فى مسابقات الكتابة الصحفية على كبار مثل: الأستاذين هيكل وإحسان عبد القدوس لينتزع منهما ومن غيرهما جائزة الملك، لتنهال عليه بعد ذلك عروض العمل فى الصحافة المصرية... الكل منبهر بهذا الصحفى الشامى. الذى جاء ليتقدم الجميع! فى حين يصف زملاءه بصفات ونعوت يعف عن ذكرها القلم.. ونكتفى بمناقشة رأيه فى عميد الأدب العربى طه حسين. بصرف النظر عما يتسم به كتابه بوجه عام من تفكك وتناقض وتكرار ممل.

منذ البداية لا يعترف النشاشيبـى بطه حسين عميدا للأدب، حيث يذكر فى السطور الأولى من الفصل السادس عشر الذى خصصه عنه وعنوانه: "عميد للأدب... أى أدب؟".. قائلا: "كان طه حسين... ويسمونه عميد الأدب العربى زميلا لنا فى رئاسة تحرير جريدة الجمهورية بالقاهرة، وكان يتقاضى راتب رئيس التحرير – وقتئذ – الذى لم يكن يقل عن خمسمائة جنيه مصرى فى الشهر، ولكنه وعلى مدى السنوات التى تزاملنا خلالها فى دار التحرير، لم يكتب على صفحات الجمهورية مقالا واحدا،

كان يأخذ الراتب مقابل وضع اسمه على ترويسة الجريدة كأحد رؤساء التحرير، جنبا إلى جنب مع صلاح سالم وكامل الشناوى وموسى صبرى وأنا – أى النشاشيبـــى– وذلك على الرغم من أن معظم قراء جريدة الجمهورية ليسوا من خريجى الجامعات، و لم يقرأوا الأدب الجاهلى – يقصد كتاب "فى الشعر الجاهلى"، و لم يسمعوا باسم طه حسين..."!

هذه سطور "معقمة" مما كتبه النشاشيبى عن عميد الأدب العربى طه حسين.. الذى شاء سوء حظه أن يتزامل معه فى رئاسة التحرير أو يعيش فى زمانه – يمكن مناقشتها بهدوء فى هذه النقاط.. أولا: الأحقية فى عمادة طه حسين للأدب هذا أمر صدر الحكم فيه من الرأى العام الثقافى بمصر وغيرها من بلدان الأمة العربية. ولعلنا نحيله إلى عشرات الدراسات التى أقرت أحقيته بعمادة الأدب العربى بلا منازع. وثانيا: بالنسبة لعدم معرفة الناس بطه حسين كما يدعى النشاشيبـــى فلنترك هذا للناس، حيث إن النشاشيبـــى لم يجر استفتاء بذلك، مع التأكيد على أن طه حسين أصبح رمزا شعبيا واسمه أصبح له معنًى جماهيريا.. طه حسين يعرفه القاصى والدانى لا فى العواصم والمدن المصرية، وإنما أيضا فى القرى والنجوع لأسباب كثيرة منها معاركه الأدبية والفكرية والسياسية التى استمرت طوال حياته، ومنها أيضا أنه صاحب نظرية: "التعليم حق لكل مواطن كحقه فى الماء والهواء". هذه النظرية تحولت إلى سياسة تعليمية يوم أن كان وزيرا للمعارف، ولا شك أن الكثيرين قد استفادوا منها، ولابد أنهم يعرفون صاحب هذه النظرية ومطبقها.

ثالثا: عن تهكم النشاشيبـــى على كتاب طه حسين "فى الشعر الجاهلى"، فلا ألومه على ذلك حيث لا يقدّر قيمة هذا الكتاب إلا أهل العلم الذين يدركون كيف أوجد شرعة جديدة لنقد الأدب قديمه وحديثه على أسس علمية، وهى أمور يعرفها طلاب المدارس. ولا لوم عليه ولا عتاب.. ففاقد الشيء لا يعطيه. ورابعا: عن تقاضى طه حسين لأجر دون أن يقدّم عملا أو كما يقول: " لم يكتب مقالا واحدا". هنا أحيل القارئ إلى أعداد جريدة الجمهورية ليرى هذا العدد الضخم من المقالات التى كتبها طه حسين، وإذا استحال هذا الأمر على القارئ فأحيله إلى هذه الدراسة العلمية

التى قامت بها الجامعة الأمريكية تحت عنوان: "أعلام الأدب المعاصر فى مصر"، والتى أشرف عليها الدكتور حمدى السكوت، والدكتور مارسدن جونز.. بالتحديد فى المجلد الأول الذى خصص لأعماله طه حسين، ومنها أعماله فى جريدة الجمهورية.. من هذا المجلد نكتشف أن طه حسين كتب أكثر من ٢٢٠ مقالا منذ بداية إصدار هذه الصحيفة حتى آخر حياته، وأنه كتب ما يزيد على الستين مقالا فى فترة رئاسته للتحرير الممتدة من أكتوبر ١٩٥٩ حتى سبتمبر ١٩٦٤، وإذا استحال على القارئ الاطلاع على هذا المجلد، فقد أعاد الدكتور طه حسين نشر هذه المقالات بكتبه مع الإشارة إلى مكان نشرها بجريدة الجمهورية.

إذن من الظلم البين أن يقال عن طه حسين إنه كان يتقاضى أجرا دون عمل، ومن المهانة أن نرميه بهذا الاتهام العارى من الصحة والدليل، والذى لا يبرره شىء سوى كراهية النشاشيبــــى للدكتور طه حسين، والتى اعترف بها فى أكثر من موضع فى هذا الكتاب... هذا إذا تناسينا أنه طه حسين الذى يعتبر رمزا للمثقفين الحقيقيين وليس المزيفين مثل هذا النشاشيبى!

هذه الكراهية - التى يعلنها النشاشيبــــى بسبب وبغير سبب - والتى جعلته يتجاهل حقائق التاريخ حين يصف طه حسين بأنه الخصم العنيد لحزب الوفد ناسيا أن طه حسين اختاره حزب الوفد عام ١٩٥٠ وزيرا للمعارف العمومية، أو فى اتهام طه حسين بعلاقاته بالصهيونية واليهود فى واقعتين.. الأولى: كانت عام ١٩٤٣ - كما يذكر فى كتابه - حين ألقى طه حسين محاضرة بدار المدارس اليهودية بالإسكندرية يوم ١٩٤٣/١٢/٢٣ عن اليهود والأدب العربى، وأنه - أى النشاشيبــــى - عثر على نص المحاضرة بمجلة تصدرها الجالية اليهودية عام ١٩٤٤ - وفات هذا الكاتب الهمام - كما يقول هو متهكما على الدكتور طه حسين أن الأدب العربى لم يتجاهل الأدب اليهودى، وأن أحد مؤسسى هذا الأدب والفكر موسى بن ميمون.. معترَفا به فى فكرنا العربى، إلى جانب أنه أضاف الكثير للبناء الفلسفى، وأنه مدفون بمصر على ما يقرر الأستاذ العقاد. وأن هناك فارقا كبيرا بين خصائص ومقومات الأدب اليهودى القائم على الديانة اليهودية، والأدب

الإسرائيلى القائم على أهداف مختلفة، والأهم أن ما حدث كان قبل عام ١٩٤٨ وقيام دولة إسرائيل.

والواقعة الثانية: التى يراها النشاشيبـــى ذريعة للهجوم على طه حسين والتطاول عليه هى فى قبوله رئاسة تحرير مجلة الكاتب المصرى عام ١٩٤٥، التى كانت تمولها شركة الكاتب المصرى للورق والأدوات الكتابية المملوكة لأسرة هرارى اليهودية المصرية، التى كان رأس أسرتها فيكتور هرارى باشا مسئولا عن إدارة الخزانة المصرية فى عهد الخديوى إسماعيل، أى بمثابة وزير الخزانة، وهو أمر حدث بعد ذلك حين كان من بين الوزراء المصريين وزير يهودى هو يوسف قطاوى للمالية فى وزارتى أحمد زيوار باشا عامى ١٩٢٤ و١٩٢٥، أو كما حدث من قبل حين كان يعقوب ابن كابس اليهودى الذى تقلب فى المناصب حتى وصل إلى الوزارة فى عهد كافور الأخشيدى. والأهم أن رئاسة طه حسين لتحرير مجلة الكاتب المصرى.. كانت قبل قيام دولة إسرائيل فليست جريمة ارتكبها طه حسين حين ترأس مجلة أثرت الثقافة المصرية وأفادتها؟! والأهم أنه تخلى عن رئاسة تحريرها قبل الصراع العربى الإسرائيلى بعديد من السنين.

وإمعانا فى كراهية طه حسين التى لا يخفيها النشاشيبـــى يذكر وقائع لا شهود لها إلا هو، ولا أدلة عليها إلا منه، وفى مقدمتها القول باعتراض طه حسين على أغنية "لا تكذبى" للشاعر الكبير كامل الشناوى ووصف طه حسين لها بالخلاعة والمجون، وبأن المغنية ترقص أثناء أدائها للأغنية، ونسى النشاشيبـــى أن طه حسين لا يرى حتى يحكم بخلاعة ومجون ورقص المغنية. إنه فى هذه الحالة لا يهاجم طه حسين وحده، وإنما يهاجم كاتب الأغنية كامل الشناوى حين ينقل رأيا ليس له شهود. ومنها أيضا واقعة أخرى خلاصتها مشادة تليفونية عنيفة بين طه حسين وجمال سالم عضو مجلس قيادة الثورة سببها استفسار طه حسين عن صحة شقيقه صلاح سالم الذى كان على فراش الموت، وكيف انتهت هذه المكالمة من جانب جمال سالم موجها هذه العبارة لطه حسين: "يا أخى روح اتلهى روح فى داهية.. الله يخرب بيتك". هل هذا معقول؟!.. وهل يحدث ذلك مع أى إنسان وليس طه حسين الذى يستفسر عن صحة مريض يرد

عليه شقيقه بالسب والشتائم!.. إن هذه الواقعة - إن كانت قد حدثت - لا تدين طه حسين بقدر ما تدين جمال سالم.. وقد يكون الاثنان أبرياء منها، والمتهم الكاذب هو هذا النشاشيبـــى.

ووقائع أخرى حول كبار كتّابنا يعف عن ذكرها القلم، لا تدين أحدا سوى قائلها.. وعلى هذا النحو جرى قلم النشاشيبـــى - الذى ابتليت بوجوده مصر على أرضها، وابتليت به الصحافة حين كان واحدا من كتّابها - مهاجما كبار كتّاب مصر متهما إياهم بأبشع الاتهامات، وليس هناك ما يبرر له ذلك سوى الرغبة فى التطاول على أصحابها.

وبعد فإننى أتصور رد طه حسين لو كان حيا وقرئ عليه هذا الفصل الذى كتبه عنه ناصر الدين النشاشيبـــى.. لما كان رده عليه بأكثر من كلمات عبارته المشهورة "رجل رضى بجهله، وجهله رضى به.." فهو بهذا الوصف يليق!

* * *

ادعاءات السكرتير الخاص
بعد أربعين عاما

حدثت هذه المعركة فى ربيع عام ١٩٧٢، وهو العام قبل الأخير لحياة عميد الأدب العربى، وعلى الرغم من أن هذه المعركة - فى ظاهرها - غير متكافئة الأطراف. إذ كيف يكون عميد الأدب طرفا فى معركة مع سكرتيره الأستاذ فريد شحاتة. إلا أنها مع ذلك اكتسبت أهمية خاصة، لعلها ترجع إلى إصرار العميد على أن يضع حدا فى حياته لما يذيعه سكرتيره قبل فوات الأوان، وإصرار الرأى العام على أن يدافع عن قيمه الثقافية المتمثلة فى طه حسين. ولعل أهميتها الخاصة ترجع أيضا إلى ما تضمنته تفصيلاتها من أمور خاصة جدا لم تحدث فى معارك طه حسين الأخرى، ومنها: أن الطرف المستهدف بالادعاءات والاتهامات وهو طه حسين فى الثالثة والثمانين من عمره، وأن الطرف الذى تولى كبر هذه الادعاءات هو سكرتيره الذى قضى فى خدمته أربعين عاما كان خلالها بمثابة العين التى ترى، واليد التى تكتب، والمستودع الذى يكتم السر. وأن هذه المذكرات تضمنت أمورا تشوه سنوات كفاح طه حسين، يضاف إلى كل ذلك أن الأهمية التى تمثلها هذه المذكرات لا تنبع من القيمة الأدبية لكاتبها، وإنما تنبع من هذه القيمة التى استمدها من عمله كسكرتير.. فكيف بدأت هذه المذكرات؟ وما موقف العميد منها؟ وما موقف الرأى العام؟ وكيف كان رد الفعل بالنسبة لصاحبها؟ وما هى أهم نتائج كشفها؟ وللإجابة على ذلك وغيره.. إليك عزيزى القارئ إشارة إلى ما نشرته مجلة الإذاعة والتليفزيون بقلم صاحب هذه الصفحات كبداية ومفتتح للمعركة.. من بعدها كانت ما نشرته الصحف والمجلات ابتداء من ٧٢/٤/٢٢، وما سجلته صفحات الكتب المهتمة بتسجيل معارك طه حسين، حيث كانت البداية عند انتهاء خدمة الأستاذ فريد شحاتة من عمله كسكرتير للعميد عام ١٩٦٨، وإذاعته أنه يمتلك ثروة هائلة من المعلومات المثيرة التى لا يعرفها

أحد عن طه حسين وأسرته وعلاقاته بالآخرين. كان قد سجلها على مدى الأربعين عاما الماضية. وأن هذه المعلومات تذاع لأول مرة فى مذكرات عن صحبته للعميد. وقد علمت بحكم ترددى على الدكتور طه حسين، وبالتالى علاقتى بالأستاذ فريد - بأمر هذه المذكرات، وما تتضمنه من جوانب خطيرة. وإنقاذا لما يمكن إنقاذه عرضت على الأستاذ فريد حق نشرها بمجلة الإذاعة والتليفزيون التى كنت أعمل بها، نظير مقابل مادى مناسب. لكن عند قراءة الحلقات الأولى وجدت أمرا بشعا وفظيعا.. وهنا صارحته بأنه لكى تنشر هذه المذكرات فلابد من حذف ثلاثة أرباعها لتعقيمها. ويعرض الجزء المتبقى بعد الحذف على الدكتور طه لإقراره كشرط أساسى للنشر. عندئذ ثار وغضب، ثم رفض، واتخذ رفضه أسلوبا غير مباشر كأن يضاعف فى قيمة المقابل المادى بشكل يستحيل الوفاء به من أى مجلة مصرية. وبديهى أن يكون الرفض من جانبنا. وظننت أن الأمر قد انتهى عند هذا الحد. إلا أن هذا الأمر لم ينته تماما من جانبه وكيف ينتهى. وقد كان هناك من يشجعه على النشر.. وأعنى فئتين على الأقل من الناس. الأولى يسرها تشويه تاريخ طه حسين فزينت له أنه بنشر هذه المذكرات يضرب عصفورين بحجر واحد، فهو يحقق كسبا أدبيا حين يدخل ميدان الأدب من بابه الواسع على كتفى طه حسين، كما يحقق كسبا ماديا. وأما الفئة الثانية فهى فئة أصحاب دور النشر فى الخارج التى لا يهمها طه حسين أو تاريخه، وإنما كان كل همها أن تنظر إلى هذا الأمر الخطير من ثقب مصالحها الخاصة، وهذه المصالح بالطبع تغلّب جانب الإثارة والتجارة على جانب مراعاة القيم والمبادئ.

والغريب أن هذه التحركات من السكرتير والذين معه كاتبين له أو ناشرين، كانت غير خافية على العميد، كما سنرى فى رده المنشور، والأكثر غرابة أنه على الرغم من علم كل المتصلين بالعميد - ومعظمهم من حملة الأقلام - لم يجرؤ أحد على نشر كلمة واحدة تعليقا على ما يحدث مراعاة لشيخوخته، وحفاظا على تاريخه.. حتى إذا بلغ السيل الزبى، وأصبح لا مفر من مصارحة العميد بحديث هو على كل لسان فى الأوساط الثقافية والعلمية، وحتى لا نفاجأ بهذه المذكرات وهى تقتحمنا بكل بشاعتها وفظاعتها، كان على كاتب هذه السطور أن يواجه العميد تلبية لواجبه الأدبى..

وكان اللقاء، وكانت المواجهة فى وجود اثنين هما الأستاذ عبد الكريم العزباوى مدير عام المجمع اللغوى، والدكتور محمد الدسوقى السكرتير الخاص للدكتور طه حسين. ويومها سألت العميد: هل سيكون راضيا لو أن مجلة الإذاعة تنشر شيئا عن هذه المذكرات؟ وكانت المفاجأة الكبرى حيث رد: "تمام الرضا". ثم سأل برفق: وماذا عرفت أنت من أمر هذه المذكرات؟ وقبل الإجابة ذكرت ما بذل من محاولات لنشر هذه المذكرات تحت إشرافه داخل مصر، وكيف باءت محاولاتنا بالفشل. بعد ذلك ألمحت من بعيد إلى أن هذه المذكرات عمل غير صالح. والحق أننى لم أجترئ كغيرى على ذكر التفاصيل الفظيعة البشعة، وإن كنت قد نشرتها كاملة بعد موافقة العميد. حيث قال: أما العمل غير الصالح فلتنشره بمجلتك.

وها هو الدكتور طه حسين يستهل إملاءه لى المنشور بمجلة الإذاعة والتليفزيون بتاريخ ٧٢/٤/٢٢ قائلا: "إنه كان الأكرم لى وللقارئ الكريم وللمجلة، ألا أجيب على ما يدعيه هذا الشيء الذى اسمه فريد شحاتة، لولا أنه ملأ الدنيا بأحاديثه، التى لا شك تجد آذانا مصغية حين يزعم بأن لديه مذكرات مثيرة عن عمله معى سيقوم بنشرها فى الوقت المناسب.. ولعل القارئ الكريم يسمح لى بهذا الحديث قبل أن يأتى ذلك الوقت المناسب الذى يرجوه فريد. ولا أستطيع أن أقول كلمتى عن حقيقة فريد ومذكراته".

وتنشر المجلة ادعاءات السكرتير ورد الدكتور العميد عليها وتتوالى عشرات الردود التى تنشر بعددها التالى ٧٢/٤/٢٩ مصحوبة بمقدمة كتبتها جاء فيها: "بدلا من أن يكون الحديث همسا فى الصالونات الأدبية، أو فى سراديب الأوساط الثقافية. فقد رأت المجلة أن النشر يعرضه للهواء والنور والشمس. فيتبدد ذلك الحديث الهامس كالغيم أو يزول كالهباء"!! فتنشر على سبيل المثال مقالات للأستاذ عبد المنعم الصاوى، وللأستاذ عبد المنعم شميس، وللمحقق الكبير الأستاذ إبراهيم الإبيارى وللأستاذ الدكتور أحمد الحوفى وغيرها من الردود، سواء من الخارج فى البلاد العربية أو من الداخل. كما تنشر هذه البيانات التى أصدرتها الجمعيات الأدبية والثقافية فى مصر أو فى العالم العربى.

وتوقف المجلة حملتها كما وعدت قارئها بعد وصول رد الأستاذ فريد شحاتة نفسه مقررا وملتزما بأنه لن ينشر هذه المذكرات. إلا أن النشر لم يتوقف فى غيرها من الصحف والمجلات. فنشرت الجمهورية مقالا لرئيس تحريرها الأستاذ إبراهيم نوار بتاريخ ٧٢/٥/٧. وقبله مقالا جاحظا غاضبا بسبب هذه المذكرات للأستاذ إبراهيم الوردانى بتاريخ ٧٢/٤/٢٧. ونشرت مجلة الأسبوع البيروتية سلسلة مقالات أبرزها مقال ساخط للشاعر السودانى محمد الفيتورى بتاريخ ٧٢/٥/٢٢. وأرسلت مجلة الحسناء البيروتية مندوبها إلى القاهرة لينشر تحقيقا عن هذا الحدث فى ٧٢/٦/٩ قال فيه ".. وقد يسر لى أن أشهد جلسة أدبية لبعض كبار الأدباء والمفكرين المصريين أثناء زيارتى الأخيرة لمصر. وكان محور حديثهم بالطبع هذه القضية الأدبية التى نشرتها مجلة الإذاعة والتليفزيون.. كان فى الجلسة راهب الفكر توفيق الحكيم، وروائى مصر الأول الكاتب العالمى نجيب محفوظ، والشاعر صالح جودت والكاتب إبراهيم الوردانى وغيرهم، وكان الغضب واضحا ضد السكرتير، وكانت أكبر النتائج أن يعود الأستاذ فريد والعود أحمد إلى ما سبق تقريره واحترامه للعميد. وهذا ما كان ينبغى أن يصنعه بعد صحبة الأربعين عاما".

* * *

٤ - شباب الفكر بعد الثمانين

من المعروف أن طه حسين ظل فكره يقظا إلى آخر يوم فى حياته، حتى وإن كان قد بلغ الرابعة والثمانين يوم وفاته فى ٢٨ أكتوبر عام ١٩٧٣. وقد تم فى هذه السنين العديد من الأحداث.

فمن الأحداث انتقاله من كُتَّاب "الكيلو" بمدينة مغاغة فى المنيا، إلى الأزهر الشريف بمدينة القاهرة، وخروجه من الأزهر دون الحصول على إجازة "العالمية"، والتحاقه بالجامعة الأهلية القديمة، وحصوله منها على أول رسالة دكتوراه ينالها طالب مصرى من هذه الجامعة. ومن القاهرة ومصر كلها يسافر إلى فرنسا لينال الدكتوراه من جامعة باريس ليعود إلى مصر، ويصبح أستاذا للأدب العربى بالجامعة المصرية عام ١٩٢٥، ثم عميدا لكلية الآداب، فمديرا لجامعة الإسكندرية.. فوزيرا للمعارف العمومية، فى وزارة الوفد الأخيرة قبل الثورة فى يناير عام ١٩٥٠، ليتفرغ تماما لحياته الفكرية التى شغل عنها إبان توليه المسئوليات..

وتكون باكورة العودة إلى هذه الحياة الفكرية صفحات الجزء الثانى من كتابه "الفتنة الكبرى"، الذى من أجله يغوص فى بطون أمهات الكتب القديمة، مستخلصا منها الأحداث الجسام التى مرت بها الأمة العربية الإسلامية، وكانت لها عظيم الأثر فى حياة المسلمين حتى اليوم، متأملا إياها حين فرقتهم هذه الفتنة إلى شيع وأحزاب!

ولعله بذلك كان يريد الهروب من هذا الإحساس العام المفعم بالقلق والاضطراب واليأس والقنوط، وغيره من أحاسيس سيطرت واشتد أوارها على نفوس المصريين عامة، والمثقفين خاصة بعد حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢.. فالأحوال فى مصر - وقتئذ - كانت تسير من سيئ إلى أسوأ.. احتلال غاضب يعربد، وملك مستبد

يحكم، وحكومات ضعيفة تتخبط، وشعب مقهور يداوى جراحه.. تلك التى سببتها تتابع الكوارث عليه، وأولها هزيمة العرابيين وبداية الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ لمصر وآخرها كارثة حرب فلسطين عام ١٩٤٨، وهزيمة الجيش المصرى بأسلحته الفاسدة أمام عصابات من شذاذ الآفاق وحثالة الشعوب.. ليتأكد الوجود الحقيقى لدولة تجمع هذه العصابات.. لمجرد وعد تم بين من لا يملك لمن لا يستحق!

لكن هل هذا الانصراف أو الهروب إلى الأعمال التأليفية يكفى هذا العقل المفكر اليقظ المتمرد الثائر؟ إذن لابد من حدث وطنى يهز صاحبه من الأعماق.. ويتمثل هذا الحدث فى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.. هذه الثورة التى جاءت كالربيع تبشر بالحرية والكرامة.. أمة أضناها صقيع الاستعباد والمذلة، ليخرج أبناؤها كما ولدهم أمهاتهم أحرارا.. ويكون طه حسين الذى كان يمثل فى يوم من الأيام رمزا لحرية الجماهير - وحقها فى حياة كريمة - واحدا ممن ترحب بهم هذه الثورة، فتنزله منزلة كريمة تليق بكفاحه الطويل الذى قارب نصف القرن.

صحيح أن طه حسين كان من باشوات العهد الماضى، ولكنه ليس ككل باشوات مصر السابقين، فهو لم يكن مجرد رمز للمثقفين فحسب، وإنما كان رمزا شعبيا ديمقراطيا، وأنه لم يمثل استقلال الجامعة فحسب، وإنما كان يمثل حرية الجماهير التى طالب بأن يكون حقهم فى التعليم كحقهم فى الماء والهواء.

وصحيح أن طه حسين تولى وزارة المعارف العمومية قبل قيام الثورة بسنتين وتركها قبل هذه الثورة بأقل من خمسة شهور.. إلا أنه عندما تولى هذه الوزارة أحدث فيها تغييرا جذريا.. لعله أذكى فى النفوس جذوة الروح المصرية الأصيلة.. التى تهب فجأة فتصنع الأحداث، وتأتى بعظائم الأمور.

ثم صحيح أيضا أن طه حسين ككل، كان يمثل للثوار الجدد عهدا بائدا قديما، ولكن بالرجوع إلى تاريخه ومواقفه يجد الثوار أنه لا خلاف بينهم وبينه، إذ كيف يختلفون مع صاحب "المعذبون فى الأرض"، ومجانية التعليم.. الثائر دوما على كل ما فى الحياة من ضعف وعجز.. هو إذن ثائر من قبلهم، ولعلهم تأثروا به وبثوريته.

ثم أليس هو طه حسين الذى غير من المسمى الذى كان يطلقه قادة هذه الثورة على أنفسهم بأنهم "قادة الحركة المباركة" إلى اسم "ثورة"؟!.. ومن يومها سميت هذه الحركة بالثورة، مدللا بأن حركة هؤلاء الضباط هى ثورة بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان ودلالات.

لهذا ولغيره من أسباب.. كرمت الثورة طه حسين، وتركت له الحرية فى أن يفعل ما يريد.. أن يكتب، أن يحاضر، أن يسافر، أن يرأس تحرير جريدة الثورة نفسها، وهى جريدة الجمهورية، أن ينال فى عهدها أرفع الأوسمة، وأكبر الجوائز، فالثورة كانت تعتبره رمزا للإنسان المصرى المثقف الذى يضطلع برسالة ومبدأ.. ولذلك كانت هذه الثورة ترى فى تكريمه.. تكريما لكل المثقفين فى مصر.

وهكذا لم تخيب الثورة أمل طه حسين حين قال عنها بعد عشرة أيام من قيامها فى رسالة بعث بها من إيطاليا لأحد عمالقة الفكر المصرى.. توفيق الحكيم.. ونشرها الأهرام على لسان الحكيم بعد ذلك بواحد وعشرين عاما، لقد قال مخاطبا الحكيم: "كم كنت أحب أن أكون معك فى مصر أو أن تكون معى فى أوروبا أثناء هذه الأيام التى تنشر فيها مصر من تاريخها كتابا، وتطوى كتابا.. وما أكثر ما نشرت مصر وما طوت من الكتب فى تاريخها الحافل الطويل، ولو كنت معى أو كنت معك لكانت بيننا أحاديث لا تخلو من متعة ونفع. فقد يخيل إلىّ أن للأدب حقه فى هذه الثورة الرائعة.. هيأ لها قبل أن تكون، وسيصورها بعد أن كانت..".

وأن تنشر صحيفة مومنتوسيرا الإيطالية مقالا بتاريخ ٢٧ سبتمبر ١٩٥٢ عن طه حسين بقلم السنيور "جيوفرامى فرارى"، فى مجال اهتمامها بأخبار الثورة المصرية تحت عنوان: "الكاتب الضرير والأب الروحى للثورة التى كافح من أجلها منذ حداثة سنه".

ومما جاء فى صلب هذا المقال: "الكاتب المصرى طه حسين ملهم هذه الثورة الاجتماعية والاقتصادية القائمة فى مصر الآن.. إذ يذكر فقدان بصره.. يصيح

فى كتاباته من أعماق سجنه الإنسانى الذاتى إلى شعبه بالثورة حتى لا تفقد أبصار بريئة أخرى لأطفال صغار.. وقد استجاب المصريون لصيحته فكانت ثورتهم".

وأن يقول طه حسين بعد ذلك عن الثورة: "وما أشك فى أن ثورتنا هذه القائمة ثورة أصيلة لا يكفيها أن تسقط حكومة وأن تنفى ملكا.. وإنما سقوط الحكومة، ونفى الملك عندها وسيلة إلى هدف هو إصلاح أعمق وأكمل وأشمل من هذه الأحداث الخطيرة الظاهرة التى يتحدث عنها الناس الآن فى أقطار الأرض، والتى سيتحدث عنها التاريخ فيحسن الحديث".

هكذا كان موقف طه حسين من أهم الأحداث التى مرت بمصر، وهو الثورة وموقفها منه كمفكر اجتماعى سخّر فكره من أجل تقدم الإنسان المصرى سواء فى داخل الجامعة أو خارجها. والعجيب أن هذا الفكر كان يزداد شبابا وحيوية كلما تقدم صاحبه فى العمر، حتى إن وهن وضعف جسد صاحبه كان لا يستوعب فى الوقت نفسه قوة ونضج عقله، فأصبح ذلك الجسد الهرم الضعيف لا يحتمل ما ينوء به هذا العقل الشاب اليقظ من طاقة فكرية متأججة.

ولم يكن غريبا والأمر كذلك أن يستمر طه حسين فى معاركه التى كان لا يفرغ من معركة حتى يبدأ معركة أخرى. هذه المعارك التى نقلت الخلاف الدائر بين القديم والجديد من المستوى الضيق الذى كان عليه من قبل، إلى مستوى أرحب وأوسع، بل وأكثر من ذلك أصبحت هذه المعارك التى خاضها طه حسين ونفر قليل من أفراد جيله جزءًا لا غنى عنه من التكوين الفكرى والوجدانى لهذه النهضة الأدبية والفكرية التى عاشتها حياتنا الثقافية بعد ذلك.

ولم تقف شيخوخة طه حسين بعد الثمانين، ووهن وضعف جسده، حائلا منيعا بينه وبين ما يخوض من المعارك الأدبية والفكرية، بل على العكس كانت قوة عقله تزيده إصرارا وتحديا واستمرارا. وكانت المعركة الأخيرة للدكتور طه حسين – وقد

تجاوز الثمانين من العمر - هى معركة سكرتيره الخاص فريد شحاتة وادعاءاته الباطلة فى مذكرات كان يريد أن ينشرها ليهدم طه حسين وتاريخه، لا لسبب إلا لأنه كان يريد زيادة راتبه الشهرى. وقد سجل هذه المعركة وعاشها بكل تفاصيلها كاتب هذه السطور. حيث سجلت لها فى فصل كامل من كتابى "معارك طه حسين الأدبية والفكرية"، ومازلت أذكر يوم أن صارحت طه حسين بما يريد أن يفعله سكرتيره فريد شحاتة من وراء نشر مذكراته - وقد كانت مهمة صعبة بالنسبة لى خاصة وأن طه حسين فى هذه السنوات الأخيرة من عمره - ومازلت أذكر هذا الموقف الصعب حين عرضت ما يريده فريد شحاتة - رغم قسوته - على الدكتور طه حسين ليرد بحسم قاطع: "قبل الإجابة عما جئت من أجله - يقصد كاتب هذه السطور - لى أن أذكر. أنه كان الأكرم لى وللقارئ وللمجلة التى تقوم بالنشر - يقصد مجلة الإذاعة والتليفزيون التى نشرت فيها تفاصيل هذه المعركة - ألا أجيب عما يدعيه هذا الشىء الذى اسمه فريد شحاتة - لولا أنه ملأ الدنيا بأحاديثه التى لا أشك فى أنها وجدت آذانا مصغية حين يزعم بأن لديه مذكرات مثيرة عن عمله معى، وبأنه سيقوم بنشرها فى الوقت المناسب. أقول: كان الأكرم لنا جميعا عدم الإجابة.. فذلك الحديث عن فريد شحاتة ومذكراته.. سوف يسبغ عليه نوعا من الأهمية ما كانت لمثله. ولكن لعل القارئ الكريم.. يسمح لى بهذا الحديث قبل أن يأتى ذلك الوقت المناسب الذى يرجوه فريد بعد موتى، ولا أستطيع أن أقول كلمتى الأخيرة عن حقيقة فريد شحاتة، ومذكراته المزعومة".

ثم استطرد طه حسين فى حديثه لى ليضع حدا لما يردده فريد شحاتة، ويقضى بذلك على هذه المهزلة - فى مهدها - لتبدأ الصحف والمجلات العربية فى دفاعها المجيد عن طه حسين رمز المثقفين.

ولا مبالغة إن قلت: "إن طه حسين وقد تجاوز الثمانين من العمر، قد تمثلته وقتئذ مقاتلا صنديدا.. لديه خبرة ودراية على مواجهة مثل هذه الأزمات.. والسبب شباب

فكره الذى كان يستطيع أن يستوعب كل الأحداث، ويواجه شتى المواقف، وأن يخوض أكبر المعارك.

إنه درس مفيد لكل ما فى الحياة من ضعف وعجز، خاصة للذين يستذلون أنفسهم ساعة أمام أصحاب السلطان ليضمنوا العيش سنوات ناشرين طغيانهم على من دونهم من عباد الله.

* * *

سابعا : طه حسين وهؤلاء

١- طه حسين وأعلام عصره.

٢- طه حسين وشوقي ضيف.

٣- طه حسين وناصر الدين الأسد.

٤- طه حسين كما يراه عالم أزهري.

٥- طه حسين كما يراه صهره.

١ - طه حسين وأعلام عصره

مازال طه حسين يتحدث حتى بعد وفاته، ولا عجب فإن كان طه حسين قد مات لحظة أن فارق النبض قلبه إلا أنه لم يمت - على الأقل - فى نظر وسائل الاتصال الحديثة من كتاب وصحافة وإذاعة وتليفزيون، فمازال هذا المفكر محور اهتمام هذه الوسائل فى مماته بالضبط كما كان نقطة ارتكاز دائرة الضوء فى حياته، ولا عجب على ذلك أيضا - كما يقولون - فالذى أفسح لطه حسين طريقه إلى القمة كان هو طه حسين ابن عصره وابن زمانه، والذى جعل طه حسين كاتبا لعشرات الكتب ومتحدثا إلى قراء الصحف ومستمعى الإذاعة ومشاهدى التليفزيون هو طه حسين أحد أعلام المرحلة التنويرية فى تاريخنا الثقافى، والذى قرّب طه حسين من قلوب الملايين هو طه حسين صاحب الإرادة القوية التى هزمت حرمانه من حاسة البصر، والذى جعل طه حسين مفكرا جماهيريا هو طه حسين الداعى لتعميم التعليم فى مصر.

ولكن طه هذا الغائب عنا، الحاضر بيننا كيف يتحدث عن أعلام عصره؟ سؤال للإجابة عليه نلتقى ضيوفا مباركين على صفحات كتاب "طه حسين يتحدث عن أعلام عصره" للدكتور محمد الدسوقى، وقبل هذا اللقاء للقارئ أن يتعرف على رواية هذا الكتاب، فعسى أن تكون هذه المعرفة الموجزة جواز المرور إلى الكتاب نفسه.

إن مبلغ علمى عن كاتب هذا الكتاب أنه من أساتذة الجامعة الذين تخطى نشاطهم قاعات التدريس إلى خارجها، حيث يعرفه القارئ من خلال عدد من الكتب وعشرات المقالات فى الفكر الإسلامى والأدب العربى، وأنه - وهذا هو المهم - صحب الدكتور طه حسين فى فترة بدأت من أواخر عام ١٩٦٤ وامتدت إلى صيف ١٩٧٢، وأنه لازمه ملازمة الظل كسكرتيره الخاص أكثر من نصف هذه الفترة.. هذا

عن الكاتب، وأما عن الكتاب فهو أشبه ما يكون بالخطرات التى لا تعرف التسلسل أو الترتيب. وأنه كان متباينا بالنسبة للحديث عن هؤلاء الأعلام من حيث القصر والطول، من حيث الغزارة أو القلة، من حيث العمق أو السطحية. وعلى الرغم من أن هذا الأمر فى ظاهره يوجه مأخذا للكتاب إلا أنه فى جوهره يعتبر حسنة تضاف إلى جهد الكاتب، فما أسهل على كاتبه من أن يفتعل ترتيب أفكار طه حسين على النحو الذى يريده هو، وليس الذى يريده طه حسين، كذلك ما أسهل من أن يضيف كتابه إلى أحاديث طه حسين القصيرة عن أعلام عصره مادة أخرى عن طريق الرجوع إلى بعض المصادر التى فى مقدمتها كتب طه حسين نفسه.. من السهل هذا وغيره، لكن فى هذه الحالة يصبح الكتاب وصاحبه متهمين بالتكلف وعدم الدقة، ولهذا فقد اختار المؤلف إحدى الطريقتين.. وهو أن يقتصر ما كتبه على ما سمعه على لسان طه حسين مهما كان مقداره وقيمته، ولهذا أصبحت روايته أقرب ما تكون لخطرات طه حسين.. لك أن تسميها كتابا، ولك أن تسميها صوتا منبعثا من قرارة النفس، ولك أن تسميها سمرا رفيعا يتحدث به طه حسين عن أعلام عصره حديثا عامرا بضروب التأملات العميقة واللفتات الذكية، التى لا تخلو من موقف يشعره القارئ لطه حسين من أحد هؤلاء الأعلام السياسيين أو المفكرين أو الأدباء أو اللغويين. وفى هذه المواقف يبرر طه حسين ابن عصره.

فعن السياسيين تحدث طه حسين حديثا يصلح موقفا تجاه هؤلاء الساسة الذين برزوا قبل الثورة وبعدها، ووجهوا الحياة المصرية.

عن علاقته بالزعيم الخالد عبد الناصر يقول: "كانت الثورة تعتقل بعض الناس، فقلت للرئيس عبد الناصر ما ذنب الأسر حين تعتقلون المنفق عليها؟ فقال لى: اطمئن إذا اعتقلنا شخصا وكان موظفا فإن أسرته تأخذ راتبه. وإذا لم يكن موظفا سأطلب من الأوقاف أن تدبر له ما يكفى أسرته كل شهر.. ".وتتكرر لقاءاته بالزعيم الخالد.

وعن الملك فؤاد يقول طه حسين عن زيارة الملك له حين كان عميدا: "وكانت عادة الملك أن يدخل المدرجات ويستمع إلى بعض المحاضرات، وكنت قد نبهت على الأساتذة ألا يغيروا شيئا من برنامج محاضراتهم، وحدث أن دخل الملك وأنا فى صبحته

محاضرة الأستاذ فى التاريخ، وكان موضوعها تطور الدستور الإنجليزى، ففهم الملك أن فى هذا تعريضا به.

وعن الملك فاروق الذى قال لطه حسين أثناء حلف اليمين عندما تولى وزارة المعارف العمومية: "أنا بامتحنك يا دكتور طه ولا أريد هذا الكلام الفارغ - يقصد تيسير التعليم على الفقراء - الذى يتحدث به الناس وتكتبه الجرائد". ويقول العميد: "ولزمت الصمت، و لم أرد على الملك، ولكن ردى عليه كان بعد ذلك اللقاء بيوم واحد فقط أعلنت مجانية التعليم الابتدائى والثانوى فى مص"ر.

وعن علاقته بالزعيم مصطفى النحاس يقول: "كنت أزوره فى مترله، وكان يلقانى باشا مداعبا قائلا: طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى. وكان الرجل يستنصحنى فى بعض الأمور، وكان يأخذ بما أشير عليه، كما كان يترل عند رأيى إذا اختلفنا. ولما توليت الوزارة كنت دائما أهدد بالاستقالة إلى أن أقيلت الوزارة فاتصل بى النحاس، وقال ضاحكا: وهكذا نستريح من تهديداتك".

وعن نجيب الهلالى يقول: "حين كان وزيرا للمعارف: "دعانى للمشاركة فى حفل بمناسبة مرور ألف سنة على مولد الفردوسى، فجاءنى قائلا: والله يا أخى لا أعرف شيئا عن الفردوسى، وكتبت له الكلمة التى ألقاها فى الحفل، وبعد انتهاء الحفل اقترب منى لطفى السيد وهمس فى أذنى: عليك أن تغير أسلوبك إذا كتبت لغيرك حتى لا تسبب لمن تكتب لهم إحراجا".

كذلك تحدث عن أعلام عصره من مواقف من المفكرين والأدباء والشعراء حديثا لا يخلو من موقف، فمثلا عن أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد يقول العميد: "كان لى أب وصديق وأستاذ". ويذكر أنه تعلم من لطفى السيد شرب الدخان، فقد ظل يشرب الدخان إلى أن منعته زوجته عن التدخين، وكان سبب شربه الدخان أنه حين زار جمال الدين الأفغانى فى استنبول قدم إليه سيجارة، ولما اعتذر قال له الأفغانى اشرب فإن ظهور الدخان ساعد على تطور الحضارة، وأخذ لطفى السيد سيجارة الأفغانى التى يبدو أنها كانت السيجارة الأولى فى حياته.

وعن علاقته بعملاق الفكر عباس محمود العقاد يذكر طه حسين أنه فى إحدى جلسات مجلس الفنون والآداب، قال العقاد موجها الحديث للسيد كمال الدين حسين وزير التربية والتعليم وقتئذ: "أنا ألفت أكثر من سبعين كتابا، والمدهش أن الجامعة لا تعير إنتاجى اهتماما مع أنها قدرت مَنْ يقل إنتاجهم عن إنتاجى مثل أحمد أمين". وكان العقاد يقصد أن تمنحه الجامعة درجة الدكتوراه الفخرية، وسئل طه حسين عن ذلك فقال: "لا أدرى".

وللعميد رأى فى مؤلفات الدكتور هيكل، فهو حين يتحدث عنه يذكر: "قال لى الدكتور هيكل لم يكن يؤلف كتبه، وإنما كان يكتبها له أناس آخرون، ثم ينسبها لنفسه، ومع هذا تشتمل على أخطاء علمية ضخمة ".ويذكر العميد غلطه منكرة وقع فيها الدكتور هيكل فى كتابه "حياة محمد" حين قال لم يكن فى البحر الأحمر إلا أسطولان هما الحبشى والمصرى.

وعن أمير الشعراء أحمد شوقى يقول العميد: "أذكر أننا كنا فى بيروت ومعنا الشاعر أحمد شوقى، وكان هناك اتفاق على أن يغنى عبد الوهاب هناك شعر شوقى، ولكن حدث أن والد عبد الوهاب توفى قبل الحفل، وعرف عبد الوهاب ذلك فامتنع عن الغناء، فذهبت إليه وجعلته يغنى شعر شوقى، وفى أثناء غنائه انفرط باكيا، وكان غناؤه وبكاؤه مؤثرين جدا".

وعن الأستاذ الحكيم يقول طه حسين: "لقد كنت سببا فى شهرة الحكيم، فقد كتبت عن مسرحية أهل الكهف مقالا أشرت فيه إلى أن هذه المسرحية عمل فريد وجديد فى تاريخنا الأدبى، لكن الحكيم غضب منى لأنى كتبت عن شهرزاد وقلت إن الحكيم فى حاجة إلى مزيد من القراءة الفلسفية، فقد أرسل إلىّ خطابا يشتمنى فيه، ويقول بأنه قرأ فى الفلسفة أكثر منى، وأنه ليس فى حاجة إلى نصائحى".

وعن مصطفى صادق الرافعى يقول العميد: "إنه بعد وفاة الرافعى وكنت عميدا لكلية الآداب، وكانت إحدى بناته طالبة وعجزت عن دفع المصروفات وعرفت ذلك، فطلبت أن تمنح بنت الرافعى المجانية تقديرا لدور والدها العظيم".

وعن أحمد أمين يقول العميد: "يسرت لبعض أبنائه فرصة السفر للخارج على حساب الدولة، غير أن أحمد أمين تنكر لى وانضم للدكتور السنهورى فى التآمر ضدى. والغريب أننى أحسنت إلى كليهما!".

وعن الأستاذ المازنى يقول: "كنت أحب المازنى وأقدره رغم هجومه علىّ، ولما مات لم يكن له معاش لأنه ليس موظفا حكوميا، ولكنى وأنا وزير للمعارف طلبت من مجلس الوزارة لورثة المازنى معاشا تقديرا لدوره العظيم فى الأدب، فتقرر للأسرة معاشا كريما".

وعن الأستاذ أحمد حسن الزيات يقول: "حين تقدمت للجامعة الأهلية كان علىّ أن أدفع جنيها واحدا رسم تسجيل، و لم يكن معى ما أدفع، فطلبت من الزيات أن يدفع هذا الجنيه و لم أرده له".

وعن الشيخ على عبد الرازق يقول: "صلتى به كانت وثيقة، وأذكر أن عليا وهو طالب بالأزهر استأجر حجرة قرب الأزهر ليستريح فيها بين المحاضرات نظرا لبعد مترل الأسرة، وكنا نقضى وقتنا فى القراءة".

وعن شاعر النيل حافظ إبراهيم يقول: "لقد قاسى حافظ كثيرا فى حياته، وكان الإمام محمد عبده يعطف عليه ويعطيه كل شهر مبلغا من المال وكذلك سعد زغلول، ومع هذا أصبح من أعلام العصر".

وغير هؤلاء الدكاترة السنهورى ومنصور فهمى وزكى مبارك والأستاذ عبد العزيز جاويش وحفنى ناصف وسيد المرصفى ومحمد المهدى.. تحدث عنهم طه حسين حديثا ممتعا يليق هم وبه.

* * *

٢ - طه حسين وشوقى ضيف

لماذا لا تكون قضيتنا اليوم عن الحب؟ هكذا بدأت مقالى الأسبوعى بالأهرام الأدبى، حيث تعوّد القارئ منى الجدية.

نعم عن الحب الذى لا نعرفه اليوم عبر المسلسلات التليفزيونية والأفلام السينمائية، والقصص والروايات الرخيصة.. وإنما من خلال رؤية أدبية لاثنين من علماء اللغة والأدب مشهود لهما بإسهاماتهما فى مجالات الأدب ونقده، واللغة وفقهها، إلى جانب اسهاماتهما فى مجالات الحياة العامة التى تبدأ من أستاذية الجامعة إلى رئاسة مجمع اللغة العربية، أو من خلال رؤية عميد أدبنا العربى الدكتور طه حسين رئيس مجمع اللغة العربية الأسبق بمناسبة إصدار طبعة جديدة من كتابه "ألوان" واشتماله على حديث عنوانه: "فى الحب"، ثم من خلال مؤرخ أدبنا العربى وشيخ علماء اللغة والأدب الدكتور شوقى ضيف رئيس مجمع اللغة العربية الحالى بمناسبة إصداره لكتابه الجديد "الحب العذرى عند العرب".. حيث يتحدث هذان العالمان عن الحب كشعور راق ونبيل.. لا الذى يوقظ الغرائز الحيوانية ويثيرها.

وليس الحديث عن الحب لهذين العالمين الجليلين بمستغرب.. فقد سبقهما إلى ذلك مفكرون وفلاسفة وعلماء فى الأدب والنقد واللغة، سواء فى الثقافة العربية أو غيرها من الثقافات الأجنبية، وسواء كانت هذه الأحاديث فى العصر القديم أو فى العصر الحديث.. إلا أنها تتفق جميعها على أن للحب معنى آخر غير الذى نعرفه فى هذه الأيام.

ومن هؤلاء المفكرين والفلاسفة نقرأ الكثير عن الحب لآباء الفلاسفة اليونانية سقراط وأفلاطون وأرسطو ومعهم أريستوفان وأنبادوقليس والقيبادس فى الثقافة الأوروبية القديمة، كما نقرأه للعديدين من الثقافة الأوروبية القديمة، كما نقرأه

للعديدين فى الثقافة الأوروبية الحديثة إلى درجة أن هذا الجديد غطى صفحات كتاب بأكمله عنوانه: "فلسفة الحب" للدكتور زكريا إبراهيم، وقد رأى فلاسفة اليونان أن هناك عنصرا رفيعا تأتلف منه نفس واحدة قد قسمت أجزاؤها على المخلوقات، فقد يحدث اتصال بين هذه الأجزاء فيكون الحب أو انفصال فيكون البغض.

أما ثقافتنا العربية قديمها وحديثها، فهى غنية بهذا الحديث من العصر الجاهلى إلى اليوم. وقد تتفق الثقافة العربية القديمة مع ما جاء على ألسنة فلاسفة اليونان حين جاء معنى الحب على ألسنة المفكرين والفلاسفة العرب، حيث قالوا: "الحب هو الاتصال بين أجزاء النفوس المقسومة فى هذه الخليقة فى أصل عنصرها الرفيع".

لكن اللافت للنظر فيما كتبه كل من طه حسين وشوقى ضيف عن الحب، أن كليهما كتب عنه وكأنه مضطر إلى ذلك، أو كأن الحديث عن هذا الشعور النبيل يقلل من وقار العلم وجلاله. وليس العيب فيهما بقدر ما هو فى تفكيرنا نحن الشرقيين حين نرى أن الحديث عن الحب فيه هزر ولعب، لكن العجيب فى ذلك أن هذا التفكير ينتسب إلى مجتمعاتنا العربية الحديثة أكثر مما ينتسب إلى مجتمعاتنا العربية القديمة، وكأن هذه المجتمعات العربية القديمة تمتعت بسعة الفكر وتحرره أكثر من مجتمعاتنا الحديثة. وإلا فما معنى أن يتحدث كتّابهم وأدباؤهم عن الحب، ويفردون له الصفحات الطوال دو حرج أو اضطرار؟ ما معنى ذلك سوى اعترافهم بسلطان هذه العاطفة النبيلة. وبأنها تنبت كالزهرة فى تربة من الشعور بالعدل والخير والحق والجمال، مع القدرة على ممارسة الاختيار والانتقاء!!

فعميد أدبنا العربى طه حسين يستهل حديثه عن الحب قائلا: "سيبسم لهذا العنوان قوم، وسيعبس له آخرون، وسيكون بين الباسمين من يبتسم عن رضا لأنه يريد أن يقرأ عن الحب شيئا، ومن يبتسم عن سخرية لأنه لا يرضا أن يكون الحب موضوعا لصفحات ينتظر منها الجد الصارم، ولا يحب فيها الإقبال على لغو الحديث. وأما العابسون فسيكون عبوسهم سخطا خالصا لأن حديث الحب فى رأيهم.. لهو كله، وما أكثر الصفحات التى تلهج باللغو وتغرق فيه".

كذلك نرى الدكتور شوقى ضيف يستهل كتابه بقوله: "دفعنى إلى جمع هذا القصص المتصل بأحاديث الحب والصبابة من كتاب الأغانى وغيره من كتب الأدب العربى، أنى وجدت الشباب يقبلون على قراءة قصص الحب إقبالا شديدا. غير مفرقين فى هذا الإقبال بين الجيد منه الذى يسمو بالأحاسيس والمشاعر، والردىء الذى تطغى فيه الغرائز وتجمح الأهواء والعواطف فى غير تردد ولا خجل ولا استحياء".

وإذا ما تتبعنا رؤية كل منهما على حدة.. نجد أن عميد الأدب العربى يعقد - فى صدر دراسته عن الحب - مقارنة بين حياة العرب المعاصرين، وحياة العرب الأقدمين. ويخلص إلى نتيجة مؤداها أن حياتنا فى العصر الأول كانت أسمح وأيسر من حياتنا المعاصرة، فكانت أحاديث الحب لا تثير سخطا ولا عبوسا، وإنما تثير رضا وابتهاجا. بل وتدعو إلى الروية والتفكير مؤكدا أنه مضى عصر من الزمن فى تاريخنا الأدبى والعقلى لم يكن الحب فيه هزلا ولا دعابة.. وإنما كان جدا خالصا لا يخلو من صرامة وحزم. ويضرب مثلا على ذلك بحب الغزلين فى "شمال الحجاز" وفى "نجد" حيث لم يكن الحب لهوا ولا مجونا، ولا مصدرا للدعابة والفكاهة، وإنما كان جزءا من جد الحياة اقتضته ظروف من السياسة والدين. فدفع إليه الغليون فى شىء من التصوف لعله خير ما يستحق البقاء فى أدبنا العربى القديم، ويصف أدب الغزل قائلا: "نحن نقرؤه فنجد راحة إليه، واستمتاعا به، لا يشوبهما مجون.. لا يتصل بهما ميل إلى العبث واللهو، وإنما تجد فيهما النفوس غذاء روحيا يرتفع بها عن صغائر الحياة، ويعزيها عن هذه السفاسف اليومية التى تنزل بها عما تحب لنفسها من مكان رفيع".

وهكذا يتناول الدكتور طه حسين الحب كموضوع للدرس والتأليف فى البيئات العلمية والأدبية والفكرية كمقدمة للمقارنة بين الحب عند العرب والحب عند الأوروبيين من خلال المقارنة بين أديبين عظيمين، أحدهما: عربى مسلم قديم عاش فى القرن الحادى عشر وهو ابن حزم الأندلسى، وثانيهما: أديب فرنسى مسيحى حديث عاش فى القرن الماضى وهو ستندال. ولا يجمع بينهما سوى أنهما أوروبيان كل منهما عاش فى "الأندلس - إسبانيا الحالية" و"فرنسا"، وأنهما عاشا فى عصر فتنة واضطراب. فقد عاش ابن حزم فى عصر انهيار الدولة الأموية فى الأندلس. وعاش ستندال فى عصر

الثورة والحروب التى أثارها نابليون أو أثيرت عليه، وكان كلاهما ساخطا على ما يرى منكرا لما يشهد، عاكفا على نفسه يتسلى بعلمه وأدبه عما يجرى حوله من خطوب.

فابن حزم فى كتابه "طوق الحمامة" يرى أن الحب حقيقة واقعة لا منصرف عنها، ولا تخلص منها، وأنه من أجل ذلك هو شيء مباح لا ينكره الدين أو العرب. وهو يذكر الحب الذى ألمّ بطائفة من خلفاء بنى أمية فى الأندلس، أو فى خلفاء الفاطميين بمصر. والحب الذى ألمّ ببعض الفقهاء والتابعين، وما أفتى به ابن عباس ﷺ فى بعض الأمور المتصلة بالحب وأحواله.

وأما ستندال فيرى فى كتابه عن الحب أن هناك أربعة أنواع للحب. أولها: الحب الجامح الذى يملك كل أقطار النفس وعواطفها وحسها وشعورها، والذى يندفع كالسيل لا يلوى على شيء، ولا يترك لصاحبه حظا من أناة أو روية أو تفكير. وثانيها: الحب المترف الذى ينشئه التكلف وما تقتضيه الحضارة الراقية من إتراف فى الذوق، وتأنق فى فنون المتاع، وهو الذى لا يكاد يتصل بالقلب أو بالنفس. وثالثها: الحب الجسدى الذى تدفع إليه الغرائز دفعا، والذى يشترك فيه الإنسان والحيوان. ورابعها: حب الغرور الذى ينشأ عن الكبرياء، وإيثار النفس بهذه الظواهر الخداعة التى يكبر بها الإنسان أمام نفسه، وإن لم يكبر بها فى نفوس الآخرين.

وتنتهى المقارنة إلى إيمان كل من الأديبين العربى القديم والأوروبى الحديث إلى تقدير الحب كمعنى إنسانى لا يحرج من يتكلم فيه.

وأما الدكتور شوقى ضيف فيشير فى بداية كتابه "الحب العذرى عند العرب" إلى محاورة أفلاطون فى الحب. وفيها تم الحوار بين سقراط وبعض معاصريه من الفلاسفة والأطباء والشعراء والسوفسطائيين ورجال السياسة.. كتصوير لمذهب سقراط فى الحب، وإن عبر كل متحاور عن وجهة نظره، وطبع كلامه بطابع شخصيته الخاصة لينتهى - أى الدكتور شوقى ضيف - إلى معنى الحب الجسدى الذى يتيح للإنسان نوعا من الخلود عن طريق ذريته. إذ يحل أولاده محله، ثم الحب الروحى وفيه يعشق المحب نفس المحبوب، وهو أرفع من الأول وأكثر خلودا. إذ يلقن فيه المحب محبوبه

خصال الفضيلة والحكمة. ولهذا الحب الروحى ذرية كذرية الحب الجسدى - تتمثل فى الآراء والأفكار التى يرثها المحب عن محبوبه.

ويقول الدكتور شوقى ضيف عن هذا الحب الروحى: "ولا نرتاب فى أن أفلاطون إنما يريد بهذا الحب الروحى العلاقة الوثيقة بين الأستاذ وتلاميذه أو مريديه.. فتصبح له بذلك ذرية يفوق جمالها، جمال ذرية الحب الجسدى. إذ شتان بين ذرية الدم والجسد، وذرية الروح والعلاقة الروحية"..

يضاف إلى هذين النوعين من الحب عند أفلاطون الحب المثالى الذى يرقى فيه العقل فوق العالم الحسى، ويرتفع عن العالم الروحى المقيد بالأشخاص والناس إلى عالم الجمال المطلق أو عالم المثال. وهو الحب الذى ليس وراءه غاية، والذى يتطلب مجاهدات ممن يكابدها فى تأمله للمثل، بحيث يحب هذه المثل محبة تملك عليه أقطار نفسه حتى لا يستطيع عن حبها حولا أوحتى يستغرق فيه استغراقا خالصا. وهو استغراق شبيه باستغراق الصوفية عندنا فى حب الذات الإلهية وكمالها المطلق.

وكما أن الحب له درجات عند أفلاطون واليونانيين. فله أيضا درجات ومنازل ومراتب عند العرب، وأول مراتبه: الهوى وهو الميل إلى المحبوب، ويليه الشوق وهو نزوع المحب إلى لقائه، ثم الحنين وهو شوق ممزوج برقة، ويليه الحب وهو أول الألفة، ثم الشغف وهو التمنى الدائم لرؤية المحبوب، ويليه الغرام وهو التعلق بالمحبوب تعلقا لا يستطيع المحب الخلاص منه، ثم العشق وهو إفراط فى الحب ويغلب أن يلتقى فيه المحب بالمحبوب، ويليه الهيام وهو شدة الحب حتى يكاد يسلب المحب عقله، ثم الجنون وهو استلاب الحب لعقل المحب، والشجن وهو الهم والكرب، واللوعة وهى الألم، وتباريح الحب وهى شدائده، والجوى وهو كتمانه والضيق به، والكمد وهو الحزن العميق، والوجد وهو الصبابة وشدة الحب، إلى غير ذلك.

والحب العذرى فى رأى الدكتور شوقى ضيف ينتسب إلى قبيلة بنى عذرة إحدى قبائل قضاعة فى شمال الحجاز، والتى تمتد عشائرها وبطونها من المدينة إلى الشام. ولأن هذه القبيلة كانت تعيش فى رغد من العيش ونماء هيأ لها شيئا من الفراغ والاستقرار،

خاصة أن الحياة كانت فيها هادئة فليس فيها منازعات مثل التى تحدث فى القبائل الأخرى. كان لذلك أثره فيما خلفت هذه القبيلة من شعر حيث نجد عندها نمطا من الشعر الغنائى الذى قوامه التعبير عن آلام النفس إزاء الحب. وكأن أصحاب هذه القبيلة لما فرغوا لأنفسهم أخذوا يتغنون بهذا اللون من الشعر الوجدانى.

ويذكر الدكتور شوقى ضيف أن مثالية الإسلام أضافت الشيء الكثير إلى شعر بنى عذرة. فقد أخذت هذه المثالية تطبع أشعارهم بطوابع واضحة من البراءة والطهارة والتسامى. فلم نعد نقرأ لهم شعر الحب الإباحى الذى كان يردده امرؤ القيس وغيره من شعراء نجد فى الجاهلية. وإنما أخذنا نقرأ لهم شعرا عفيفا فيه نبل وفيه حزن يصدر ان عن نفس ملتاعة.

هذا النبل والطهارة فى شعر بنى عذرة يبدو أنه أصبح من سمات شخصياتهم، وإلا فما معنى إجابة الرجل منهم حين تسأله: من أنت؟ فيرد قائلا: من قوم إذا عشقوا ماتوا. أو إذا سئلت امرأة عذرية بها هوى يدنيها من الموت: ما بال العشق يقتلكم معاشر عذرة من بنى أحياء العرب؟ فترد: فينا تعفف، والعفاف يورثنا رقة القلوب والعشق يفنى آجالنا. وقيل لبثينة محبوبة جميل: هذا جميل يتعذب فى حبك، فهل عندك شيء تنفسين به وجده؟ فقالت: ما عندى أكثر من البكاء إلى أن ألقاه فى الدار الآخرة أو أزوره وهو ميت تحت الثرى!

كذلك نجد أن هذا الحب العذرى يشبه إلى حد كبير حب الصوفية، فما الحب العذرى كما يقول الدكتور ضيف إلا صوفى خالص، صوفى فى ظمئه الذى لا ينتهى إلى رؤية الحبيب ولقائه، وصوفى فى تغنيه بعشقه الجامح الذى يملك كل قلبه وكل أهوائه وعواطفه ومشاعره، وصوفى تعييه الحيلة وتعوزه الوسيلة إلى لقاء المحبوب، وإنه ليسير فى طريق لا نهاية لها، ولا سبيل إلى الدنو من غايتها إلا بإسلام الروح، وصوفى فى ارتفاعه عن كل صغائر الحياة.. وما أشبه شعره كله بالتراتيل الدينية.. لذلك كله لا نغلو إذا قلنا إن هذا الحب العذرى هو الذى أتاح لنا هذه الثورة البديعة من الحب الصوفى السامى.

وهكذا نقرأ للدكتور شوقى ضيف فصولا ممتعة من كتابه الجديد "الحب العذرى عند العرب" تدور حول "مجنون ليلى"، و"جميل وبثينة"، و"قيس بن ذريح ولبنى"، و"عروة بن حزام وعفراء"، و"كثير وعزة"، و"توبة وليلى الأخيلية"، و"مالك وظريفة"، و"ابن أبى عمار وسلامة"، و"العباس بن الأحنف وفوزه".

وهكذا نجد أن ما نقرأه لطه حسين أو لشوقى ضيف عن الحب يختلف عما نراه ونسمعه ونقرأه فى هذا الزمان!

* * *

٣ - طه حسين وناصر الدين الأسد

وزير التعليم العالى الأسبق، ورئيس الجامعة الأردنية الأسبق، وعضو مجمع اللغة العربية الأردنى ورئيس المجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية الحالى، وعضو مجامع اللغة العربية ومنها مجمع الخالدين بالقاهرة.. المفكر الدينى الأردنى الكبير الدكتور ناصر الدين الأسد. معروف فى عالمنا العربى بصلته الحميمة بالشعر الجاهلى، فبينه وبين هذا الشعر صلة رحم وقربى لعلها بدأت - كما يذكر فى مقدمة كتابه "مصادر الشعر الجاهلى" - من أيام أن كان يحفظ المعلقات، وتزداد هذه الصلة بعد قراءة كتاب الدكتور طه حسين عن الشعر الجاهلى، وتقوى وتشتد بعد التحاقه بكلية آداب القاهرة وتلمذته على الدكتور طه حسين، وتزداد أكثر وأكثر حيث يكون هذا الشعر موضوعا لرسالته فى "الماجستير" و"الدكتوراه" من جامعة القاهرة، واكتشافه جوانب جديدة من قيمة هذا العصر وأهميته فى دراسة الأدب العربى فى عصوره المختلفة.

ولهذا فخير الحديث وأطيبه مع الدكتور الأسد - كان عن الشعر الجاهلى عامة وكتاب الدكتور طه حسين خاصة.

* أسأله عن رأيه فى كتاب "فى الشعر الجاهلى"، وهدف صاحبه الدكتور طه حسين من تأليفه، وعن تقييمه لما حدث من معارك حوله؟

- كتاب "فى الشعر الجاهلى" قصد منه مؤلفه الدكتور طه حسين أمرين واضحين:

أولهما: أن يهز العقل العربى ويحركه من جموده، وأن يجدد أفكاره ويجنبه من تكراره لنفسه، وأن يدعوه إلى استحداث أفكار جديدة لا أن يجتر أفكاره القديمة، وأن يحرره من عقاله ويجعله قافزا إلى عالم المعارف الحديثة.. باختصار هذا الكتاب كان صدمة قوية للعقل العربى.. أيقظته من سباته العميق الذى دام سنوات طويلة.

- وثانيهما: أن الدكتور طه أراد أن يحدث زلزلة ملفتة بين القراء تجعلهم يتنبهون

لما يتم فى العالم المتقدم من نهوض. وأما ما حدث بعد ذلك، فأعتقد أن الدكتور طه ظلم فيه ظلما فادحا، وحامت حوله شكوك كثيرة كانت فى غير محلها. وربما كان هو المسئول عن جانب من ذلك، لأنه كان يريد إثارة الرأى العام العربى.. حتى ولو كان الثمن فقدان راحته وهدوء باله والتهجم عليه.

وأستطيع القول مطمئنا: إن الدارس الحقيقى لنتائج فكر الدكتور طه حسين لا يملك إلا أن يقدر عبقريته الفذة التى تكاد لا تتكرر.

* وبماذا تفسر عدم رد الدكتور طه - طوال حياته - على مهاجميه ممن سببوا له هذا الظلم وتلك الشكوك وتوابعها من محن ومكاره؟

- تفسيرى ينطوى على أمرين: إما ترفع من الدكتور طه عن الرد. حيث كان مشهورا بترفعه عن صغائر الأمور. وإما عناد منه وقد كان معروفا بعناده وصلابة رأيه. وخير مثال على ذلك أنه لم يعلن إطلاقا أنه تراجع عن آرائه فى الشك، مع أنه تراجع بالفعل عن بعض هذا الشك عمليا فيما كان يكتب من أعمال أدبية ونقدية توضح ذلك إلى حد بعيد.

* وإذا كان الشك فى صحة الشعر الجاهلى أمرا علميا معترفا به، فلماذا التراجع بصورة علنية أو ضمنية؟

- الشك فى الشعر الجاهلى فى جوهره أمر علمى صحيح إذا أخذناه فى حجمه الحقيقى. لكن الخطأ هو فى إثارة البعض للمسائل الدينية على اعتبار أن الشعر الجاهلى هو منبع اللغة العربية، وأن تفسير القرآن الكريم فى كثير من ألفاظه يعتمد على الرجوع إلى الشعر الجاهلى.. والتشكيك فى الشعر الجاهلى - فى رأى هذا البعض - يمس هذا الجانب ولا يقتصر على الجانب الأدبى واللغوى.

* فى هذا المجال ألا ترى أن العلامة الراحل محمود شاكر - فى تناوله لقضية كتاب "فى الشعر الجاهلى" بمقدمة كتابه عن المتنبى - كان متأثرا بوجهة نظر الكاتب الراحل مصطفى صادق الرافعى وموقفه الشخصى من طه حسين؟

- الأستاذ شاكر لا ينكر إعجابه بالرافعى، بل لا ينكر تلمذته له وصلته الوثيقة

به. فلا يستبعد أن يكون قد تأثر بشيء من أفكاره وأسلوبه. لكنى أرى أن الأستاذ شاكر له موقفه المتميز الأصيل فى هذه القضية. وهو موقف لم يجد عليه وإنما نشأ معه منذ الصبا والشباب.

إن من يقرأ الأستاذ شاكر فيما كتب عن هذه القضية يدرك مدى أصالته. وأشهد أننى ما رأيت أحدا فى عالمنا العربى لا يستطيع تذوق أسرار لغتنا العربية ويغوص فى أعماقها مثل الأستاذ شاكر. ولهذا فإننى أعتقد أن الأستاذ شاكر مع تأثره بالرافعى، وهذا أمر مشروع - له موقفه الخاص المتميز الذى ينبع من ذات نفسه.

* وبماذا تفسر أن الأستاذ شاكر شرح وحقق وقرأ متعمقا منذ الخمسينيات كتاب "طبقات فحول الشعراء" لابن سلام الجمحى وما ينطوى عليه من منهجه الخاص فى الشك فى الشعر الجاهلى، ومع هذا نجده يغض الطرف عن ذلك ويصر على اتهام الدكتور طه حسين بسرقة منهج الشك من المستشرق الإنجليزى مرجليوث، مع أنه كان عليه أن يشير إلى تأثره بابن سلام أو غيره مع العرب الأقدمين على اعتبار أنهم أسبق من مرجليوث وزملائه بألف سنة؟!

- أنا لا أستحضر - الآن - فى ذاكرتى تفاصيل ما تسأل عنه لكى أتبين ما ينبغى وما لا ينبغى. إلا أننى أقول لك إن شك العرب الأقدمين فى الشعر الجاهلى أمر معروف حتى لطلاب أقسام اللغة العربية بالجامعات. ولا يمكن أن يغيب ذلك سبقه. عن الاستاذ شاكر. وابن سلام لم يكن أول من بدأ الشك فهناك من سبقة. إن كتاب "السيرة النبوية" لابن إسحق ورد فيه شعر جاهلى كثير وقف عنده ابن هشام أثناء كتابته لهذه السيرة وقفات متأنية، فشك فى بعضه واستبعده.

على أن الأمر يحتاج إلى مراجعة بعدها يعود المرء إلى ما كتبه الأستاذ شاكر ليستبين هذه النقطة التى ذكرتها، لأنها جديرة بالإثارة والاهتمام.

* وما رأيك فيما ذهب إليه أستاذنا الدكتور عبد الرحمن بدوى فى تصديره لكتابه "دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلى" من نفى تام لتهمة سطو الدكتور طه حسين على مقالة مرجليوث، ودلل على ذلك بأدلة قاطعة مرجحا أن الدكتور طه

ومرجليوث وغيره من المستشرقين ينهلون جميعا من منهل واحد هو ما أقره العرب الأقدمون، وفى مقدمتهم ابن سلام فى الشك فى الشعر الجاهلى؟

– جهد الدكتور بدوى وفضله فى هذا العمل وغيره لا ينكر. ولكن الشبه كبير بين آراء الدكتور طه حسين وآراء مرجليوث، وربما يكون الشبه بسبب أن المعين أو المنبع واحد بالنسبة للاثنين. أما موضوع السطو والسرقة، فهو أمر مرفوض تماما ويجب أن ندفعه دفعا كاملا، إذ لا يمكن أن يكون الدكتور طه حسين سرق من مرجليوث، لأنه لم يطلع أصلا على مقالته حتى يسرق منها لأسباب ترجع إلى لغتها الإنجليزية، وأنها ظهرت أثناء إلقاء طه حسين لمحاضرته بالجامعة عن الشك فى الشعر الجاهلى، إلى جانب قصر الفترة التى فيها يرجع طه حسين إلى هذه المقالة إن وجدت أمامه وترجمتها، ثم تحويلها إلى محاضرات، ثم إلى كتاب فى شهور قليلة وهى بكل المقاييس فترة قصيرة لا تسمح بكل ذلك!

إننا لا يمكن أن ننكر فضل الدكتور طه فى بناء نظرية متكاملة شاملة تختلف ولا شك عما جاء بمقالة مرجليوث.

* وما رأيك فى اعتراف مرجليوث نفسه الذى كتبه بالمجلة الآسيوية الملكية عام ١٩٢٧ معلنا فيه براءة طه حسين من تهمة السرقة، وأنه – أى طه حسين – استطاع أن يتفوق عليه شخصيا، وأن يكون أكثر إيجابية فى نظريته عن الشك فى الشعر الجاهلى؟

– أولا: جميع الذين يعرفون الدكتور طه يقدرون علمه وفضله، ويسارعون إلى نفى هذه التهمة. ثانيا: نحن لا نحتاج إلى رأى مرجليوث أو غيره لكى نبرئ طه حسين. فمرجليوث ليس هو الجهة المخولة التى لها حق البراءة أو الاتهام.

نحن الذين نقول ذلك وفق أحكام معروفة فى ثقافتنا العربية بمقتضاها يمكن تقرير عملية السطو أو نفيها.

* كما ذكرت منذ قليل أن كتاب "فى الشعر الجاهلى" أحدث هزة فى العقل العربى. ترى هل يعتبر هذا الكتاب خطوة على الطريق الصحيح فى النقد العربى؟

- بلا ريب أن هذا الكتاب له تأثيره فى الدراسات الأدبية والنقدية. لقد استطاع الدارسون والنقاد العرب من خلاله أن يطلعوا على أفكار جديدة. إن هذا الكتاب استطاع أن يحدث حياة فكرية متحركة فى الدراسات الأدبية والنقدية. ولهذا أعتقد أن حركة النقد العربى ظلت متأثرة به لفترة طويلة.. كان ينبغى أن يحدث فيها جديد يواصل ما بدأه هذا الكتاب، ونحن فى انتظار هذا الجديد، ربما من هذه الأجيال المعاصرة أو من الأجيال التالية بعد ذلك.

* وفى الجامعة كانت أطروحتكم للدكتوراه عن مصادر الشعر الجاهلى.. من الأعمال العلمية الجادة التى نضرت وجه البحث العلمى بعد كتاب "فى الشعر الجاهلى".. ترى هل هناك خطوات علمية أخرى استطاعت أن تضيف جديدا إلى البحث فى هذه القضية بالجامعة؟

- منذ صدر كتاب "فى الشعر الجاهلى" والخطوات العلمية داخل الجامعة لا تتوقف، وربما يكون ظهور عدد كبير من الكتب والمقالات حول موضوع الشعر الجاهلى هو أكبر دليل على ما أحدثه هذا الكتاب من صدى وما أصاب من هدف. ولكن كل هذا لم يأت بجديد يقدم إضافات علمية حقيقية من تلك التى تشير إليها فى سؤالك.

* وإذا كان نسج حديثنا الآن عن كتاب "فى الشعر الجاهلى" الذى هو فى الأصل عمل نقدى شاء صاحبه أن يقيّم من خلاله التراث الشعرى للعرب الجاهليين، فهل أسألك عن حياتنا النقدية المعاصرة، وإلى أين تتجه؟

- حياتنا النقدية الآن تحتاج إلى وقفة طويلة، ومراجعة حقيقية لأن الشكوى الكبرى من توجهات النقد الأدبى الحديث الذى يستمد نظرياته من بيئات غير البيئة العربية. ثم إن كثيرا ممن يترجمون هذه النظريات لا يحسنون الترجمة. فتجىء غامضة شديدة الغموض ليتناولها نقادا دون أن يطلعوا على مصادرها الأولى، وبذلك يزيدون من الغموض غموضا ويوقعوننا فى ارتباكات كثيرة، وأقلها حين نقرأ مقالات النقد

فلا نفهم منها شيئا. إلى جانب ذلك، فهناك المجاملات التى يقوم بها مجموعات من النقاد. فيرفعون من شأن البعض دون النظر إلى نتاجهم الإبداعى وهل يستحق؟ ومن أجل هذا أصبحنا نشكو.

* لقد وقفت طويلا عند تساؤل صلاح عبد الصبور قبل وفاته، وهل أخطأ فى التجديد فى الشعر العربى الحديث بحيث نشأ بعده جيل لا يفهم عنه ما وصل إليه هو وزملاؤه من تجديد للشعر. كذلك تبرأ محمود درويش من تلاميذه وتحدث عن الاتجاه الجديد فى الشعر حديثا يزرى هذا الشعر وينتقص من قيمته، وقرأت لنازك الملائكة كتابا نقدت فيه التجديد فى الشعر مع أنها واحدة من رواده.. وإننى أسأل لماذا يقوم الشعراء بمهمة النقاد ويتقاعس النقاد عن أداء دورهم النقدى؟ ولماذا لم يدرك تلاميذ هؤلاء الرواد طبيعة هذا التجديد؟

* أليس النقد كالمصباح يضىء الطريق أمام المبدع، فيرشده إلى ما يحسن وما لا يحسن؟!

يؤسفنى أن أقول إن النقد الحديث وقع أسيرا فى خضم النظريات الأجنبية دون فهم أو وعى لما ترمى إليه هذه النظريات.

- إن هذه النظريات الأجنبية متلاحقة متتابعة لا نكاد نمسك بتلابيب نظرية حتى يكون أصحابها فى الغرب قد هجروها. ونتمسك بهذا المهجور، فنكشف تخلفنا.. فننتقل إلى النظرية التالية فنجد أوانها قد فات، ويكون أهلها قد استحدثوا واحدة غيرها. فإلى متى نظل نلهث وراء نظريات لا تنبع من واقعنا ولا تتنفس فى أجوائنا؟ ثم متى يستطيع نقادنا أن يضعوا أصولا ثابتة تتصل بأذواقنا ولغتنا وثقافتنا..؟ وهذا لا يعنى الانفصال عن الاتجاهات النقدية الأجنبية، بل يجب علينا أن نطلع عليها.. لكن لا يجوز أن نتعبد فى محرابها عازفين عن أصالتنا العربية.

وتنتهى الساعة التى قضيتها مع الدكتور ناصر الدين الأسد فى حديثه الممتع عن الشعر الجاهلى.

* * *

٤ - طه حسين كما يراه عالم الأزهر

بين ذكرى وفاة عميد الأدب طه حسين فى ٩٣/١٠/٢٨ وذكرى ميلاده فى ١٤/ ٩٣/١١ يتأمل المرء الكثير من مواقفه العظيمة التى جسدت أعماله الخالدة. ومن بين هذه المواقف التى خلدتها أعماله كتابه "مستقبل الثقافة فى مصر" الذى يرجع تأليفه إلى موقف وطنى ضد ما يريده الاستعمار البريطانى لمصر.. وخلاصته الدفاع عن الشخصية الثقافية لمصر، ولكن كما استهدف طه حسين لوابل من الاتهامات التى أقلها أنه سارق وأكبرها أنه ملحد بعد نشره كتاب "فى الشعر الجاهلى"، استهدف أيضا لوابل مماثل من الافتراءات التى أقلها أنه عميل للمستشرقين والمبشرين وأكبرها أنه يريد تغريب الثقافة العربية بكاملها.. والعجيب أنه على الرغم من هذه الاتهامات الظالمة منذ نشر كتابه "فى الشعر الجاهلى"، والتى أثبت تطور البحث العلمى بطلالها إلا أنه أصبح من المؤكد وجود منهج علمى خاص به.. على ضوئه يمكن تقييم الآثار الأدبية داخل الجامعة وخارجها، والأغرب أن أصحاب هذه الاتهامات وهم أشد الناس خصومة لطه حسين أكثرهم تأثرا بمنهجه، وكأنهم لا يستطيعون الخروج من عباءته حتى وإن شاءوا تمزيقها.

والزوبعة نفسها حدثت بعد تأليفه كتاب "مستقبل الثقافة فى مصر" مع أن الرجل أراد أن يقدم نظرية متكاملة للثقافة العربية بدأها بالتأكيد على الثقة بأنفسنا كعرب، والإيمان بأننا لسنا أقل شأنا من الأوروبيين، والعلم بأنه كان لأجدادنا العرب فضل على بلاد الحضارة الحديثة.. ويقتضيه ذلك أن يبحث فى كون مصر من الشرق الثقافى أم من الغرب الثقافى.

فيروى أن الشرق الثقافى الذى (لا) تنتسب إليه مصر هو الشرق الأقصى، أى الهند واليابان والصين. ولذلك فنحن أقرب إلى عقلية الفرنسى أو اليونانى أو الإيطالى

فى حوض البحر المتوسط. هذا كل ما قصد إليه طه حسين من قوله: "بأننا أكثر تأثرا بحضارة البحر الأبيض المتوسط أو بحر الروم أو حضارة الغرب". ومع تطور البحث العلمى حول أهداف ومقاصد طه حسين من تأليف كتاب "مستقبل الثقافة فى مصر" يطالعنا كتاب جديد ومهم عنوانه: "الاستشراق رسالة استعمار" للأستاذ الدكتور محمد إبراهيم الفيومى.. أستاذ الفلسفة الإسلامية بالأزهر، ورئيس قسم أصول الدين به، وعميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية الأسبق بجامعة الأزهر. يتصدى فيه هذا العالم الجليل للدفاع عن كتاب "مستقبل الثقافة فى مصر"، ويعتبر ذلك - من وجهة نظره - ليس كما ضجت الساحة الثقافية من أنه دعوى إلى تغريب الثقافة العربية.. أو أنه دعوة إلى العلمانية مما علق به من دعاوى أساسها عدم التحرى والدراسة.. إنما هو من وجهة النظر الثقافية رسالة موجهة إلى تقرير المعتمد البريطانى - كرومر - الذى رفعه إلى الإدارة البريطانية، الذى بيّن فيه لماذا كانت الاعتمادات هزيلة جدا بالنسبة لتعليم الشعب المصرى. وكانت حجته أن المصريين يفقدون الوسائل الضرورية لذلك، وكان من الطبيعى أن يستنكر المصريون صنيع إدارة كرومر.

ويقرر الدكتور الفيومى أن كتاب "مستقبل الثقافة فى مصر" جاء نقضا لتقرير كرومر، وليس كما قيل عنه بأنه يخطط للثقافة فى مصر ليسلكها فى الثقافة الغربية. وللعالم المفكر الدكتور الفيومى نقول: قرأت وتأملت واجتهدت فأصبت. ولغيره ممن يقرأون ولا يتأملون ولا يجتهدون نقول: "درهم من الوعى خير من قنطار من الحماس"!

* * *

٥ - طه حسين كما يراه صهره

فى كتاب بعنوان: "ما بعد الأيام" للدكتور محمد حسن الزيات وزير الخارجية الأسبق وصهر الدكتور طه حسين يسجل العديد من الذكريات التى يمكن أن تكون امتدادا لكتاب "الأيام".

والحق أن الكتابة عن أيام ما بعد أيام طه حسين.. بالنسبة لأى عالم أو أديب أو باحث.. تكليف بما لا يطاق، لأسباب خاصة بطه حسين كرجل من رجال التاريخ المحدثين، وأسباب خاصة بالأيام التى تكتب بعد رائعته الأدبية المعروفة بالأيام.

فأما الأسباب الخاصة بطه حسين.. التى تجعل الكتابة عنه - على الرغم من كثرة المادة - مشقة هى حضور ووجود طه حسين نفسه فى حياتنا إلى اليوم، صحيح لقد مات طه حسين لحظة أن فارق النبض قلبه، لكنه ما زال على قيد الحياة الفكرية والأدبية والإعلامية. فمازال لطه حسين "حضور" و"وجود" فى نظر وسائل الاتصال والنشر من كتاب وصحافة وإذاعة وتليفزيون وسينما. فلم يمت طه حسين المفكر القلق بين مواقع أفكاره ومواقع أفكار معاصريه من الأحياء. ولم يمت فى نظره هذه الأجهزة.. طه حسين ذلك المزيج الفريد من الحضارتين الشرقية والغربية أو العصارة الطيبة بين المعهدين العريقين "الجامع الأزهر" و"جامعة باريس"، بل لم يمت طه حسين فى نظرنا جميعا، حيث ترك بصماته على صفحات حياتنا فى مستويات عديدة.

ترك طه حسين بصماته على المستوى الوطنى يوم اهتدى إلى جسم المأساة الوطنية وروحها متمثل فى "الجهل"، فنادى أنه إذا أردنا الاستقلال فوسيلتنا "التعليم"، وإذا أردنا الحرية فلنلجأ إلى التعليم. ولم يجعل فكرته هذه فى إطار "النظرية"، بل تجاوزها إلى "التطبيق" يوم علّق مستقبله السياسى بشرط هو أن تضمن الحكومة الوفدية التى اختارته ليكون من بينها: "أن تجعل التعليم حقا لكل مواطن مثل حقه فى الماء والهواء"،

و لم يوافق على الوزارة إلا بعد تنفيذ شرطه. وعلى المستوى القومى ترك بصماته حيث وضع أسس البحث العلمى لتقييم الثقافة العربية. وقد يقول قائل إن المستشرقين قد سبقوه إلى هذا المنهج إلا أنه سرعان ما ينصفه بالقول، ولكنه كان أول باحث عربى معاصر اتبع المنهج العلمى الذى تسلكه الأمم المتحضرة فى دراسة ثقافتها. لقد ابتدع موازين جديدة للنقد النافذ إلى أعماق الآثار الأدبية والفكرية، ووجه الدراسات الأدبية والفكرية العربية وجهة جديدة نقلتها إلى عصر القوة والحيوية والانطلاق. وأصبحت مدرسته تمد الحياة الفكرية فى الوطن العربى بالأفكار والطاقات التى تنقلها الكوادر المسلحة بالعلم والموهبة.

وعلى المستوى العالمى كانت بصماته.. حيث نراه أقام الجسور بيننا وبين ذلك الفكر العالمى. فبعد أن استوعب تراثه القومى وأنتج فيه الكثير من الأعمال العظيمة، اتسع أفقه للتراث العالمى لنقله إلى العربية، ودافع عنه بنفس الروح التى كان يدافع بها عن تراث أجداده، حتى اتهم بالارتماء فى أحضان الغرب. وربما كنا أكثر إنصافا له لو علمنا أن ولادة عقله كانت فى زمن المخاض الأول لنهضتنا الفكرية. ذلك الزمن الذى كان يتطلب منه ومن غيره أن يفتح النوافذ على الفكر العالمى ينقله لنا ويقربه منا، و لم يكتف بنقل ذلك التراث العالمى.

وإنما حاول أن ينقل ذلك الصراع القائم بين الجديد والقديم من مستواه الضيق إلى مستوى أوسع، بل ويجعله جزءا من التكوين الفكرى لعصر بأكمله.

وتبقى الأسباب الخاصة بهذه "الأيام" التى كتبها الدكتور الزيات بعد رائعته "ما بعد الأيام"، وهى بعينها الخاصة بأسلوب طه حسين فى كل كتبه بوجه عام، والمتميز فى كتابه "الأيام" بوجه خاص – وهو كما اتفق أغلب نقاده أسلوب لا تقرأ فيه كلمات مرصوصة، وعبارات يشد أزرها أزر بعض، بقدر ما نستمع فيه إلى نفس وصاحبها يتناجيان ويتهامسان ويتذكران ما كان من مر الأيام وحلوها، وشظف العيش قبل نعيمه، وقهر الزمان قبل التغلب عليه.

وهذه ولا شك مشقة يكابدها من يحاول استكمال "أيام طه حسين"، وربما

تذلل هذه المشقة بالنسبة للدكتور الزيات الذى نعرفه رجلا يجمع بين الأدب والعلم والسياسة إلى جانب عمق العلاقة التى تربطه بعميد الأدب، والتى امتدت إلى ما يقرب من الأربعين عاما كما يقول فى تقدمته لحلقات "ما بعد الأيام" على اعتبار أنه زوج كريمته.

وقد تكون لنا ملاحظات هامشية.. لا تقلل من قيمة هذا العمل.

من هذه الملاحظات اهتمام مذكرات "ما بعد الأيام" بأن تكتب خصيصا للتليفزيون، وأن كاتبها الدكتور الزيات ينشرها كما هى دون إعادة لصياغتها فى الأسلوب المألوف فى تأليف الكتب. أقول إذا كتبنا للتليفزيون، فمعنى هذا أن يكون الاهتمام بالصور التليفزيونية، وهذا الاهتمام يجعل الكاتب يختار ما يصلح للتصوير التليفزيونى المبهر.. كزيارة العميد للسيدة زينب رضى الله عنها للدعاء لابنته فى الحلقة الخامسة، وسخط البستانى إسماعيل على حكومة إسماعيل صدقى التى تشتت حياة العميد فى الحلقة السادسة، وحوار والد العميد مع الفلاحين حول أهمية كتاب "مستقبل الثقافة فى مصر"، وأنه لا يعمل على تغريب مصر فى الحلقة الثامنة، والحديث عن مجلة الكاتب المصرى وأهميتها بين قراء مجهولين فى الحلقة ١٣، وهدهدة العميد لحفيده الطفل الرضيع إذا بكى بقراءة أبيات من الشعر الجاهلى فى الحلقة ١٣، وزيارة العميد وهو وزير للمعارف لمستشفى الولادة ومفاجأته للطبيب وهو يغنى "آه يا.." فى الحلقة ١٤.

كذلك يشدنى الدكتور الزيات بقدرته الفائقة على الحديث الممتع. لكى أسترق السمع إلى حديث العميد فى صفحات "ما بعد الأيام" وأدقق السمع فيما يجرى على لسان العميد، فأجد التساؤل: هل هذا أسلوب عميد الأدب أم أنه أسلوب الدكتور الزيات؟! أقول كثيرا ما توقفت أمام فقرات من المذكرات أذكر منها على سبيل المثال أحاديث الحرب فى الحلقة ١٠، وحديث العميد حين كان وزيرا للمعارف لمعاونيه بالوزارة فى الحلقة ١٤. والحق أن للدكتور الزيات أسلوبه الذى نذكره جيدا أيام كان متحدثا رسميا لمصر، ووزيرا لإعلامها، ورئيسا لوفدها

الدائم فى الأمم المتحدة ووزيرا للخارجية، وبالطبع للدكتور العميد أسلوبه الخاص المميز.

لكن هذه الملاحظات الهامشية لا تنسينا الكثير من الإيجابيات، فقد يحمل لهذه المذكرات أنها كشفت عن جوانب كانت مجهولة. حتى بالنسبة للباحثين، ومنها "مساهمة طه حسين فى تحويل الجامعة من أهلية إلى حكومية"، و"اختيار طه حسين للاشتراك فى ندوة علمية ببروكسل"، و"إلقائه بحثا يصلح بداية لعمل علمى كبير عام ١٩٢٤"، و"اختياره لعمادة الأدب عام ١٩٢٥ وإلغاء ذلك خوفا من الملك والإنجليز"، و"طه حسين صاحب فكرة إنشاء معهد التمثيل"، و"دعوة طه حسين إلى ترشيح نفسه فى البرلمان واعتذاره بعد ذلك"، و"رفضه العمل أستاذا جامعيا بأمريكا إبان عزلته"، و"الخطاب الذى كتبه للنحاس باشا والذى يعتبر نواة لكتاب مستقبل الثقافة فى مصر"، و"موقفه العظيم من صدقى باشا ومحمد محمود باشا وغيرهما من زعماء الأقليات"، و"طلب طه حسين تغيير الأساتذة الأجانب بمصريين ومساهمته مع الدكتور السنهورى لإنشاء كليتى الآداب والحقوق فى العراق وهما النواة لجامعة بغداد"، و"تسهيل مهمة لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية التى قام بها بعض من الشباب"، والعمل على التقريب الثقافى بين البلاد العربية ومصر"، وأساسه التقريب فى المناهج العلمية"، و"اقتراح مشروع واسم كتاب اقرأ والمساهمة فى الكتابة فيه فى أول عدد"، و"قصة مجلة الكاتب المصرى وتحديد موقف طه حسين مما يشاع حولها"، و"زيارة النحاس باشا لطه حسين فى بيته بعد فوز الوفد بالانتخابات واختياره وزيرا للمعارف وبدء سياسة الماء والهواء فى التعليم".

وغير ذلك من جوانب هامة، ومع أهميتها كانت غير واضحة، حيث قام هذا الكتاب بتوضيحها. الكتاب بكل المقاييس يصلح لاعتباره امتدادا لأيام الدكتور طه حسين، فكاتبه كان أقرب الناس إليه وبمثابة أحد أبنائه. وعلى هذا يمكن اعتباره مصدرا من المصادر الهامة فى دراسة حياة وفكر طه حسين.

* * *

ثامنا : طه حسين والثقافة العالمية

١- تكريم اليونسكو لطه حسين لإيمانه بحوار الحضارات.

٢- طه حسين والثقافة المتوسطية.

تكريم اليونسكو لطه حسين
لإيمانه بحوار الحضارات

ليس غريبا أن ينال الدكتور طه حسين هذا التكريم العالمى فى ذكرى مرور مائة عام على ميلاده.. فطه حسين – ونفر قليل من جيله – استطاع أن يقيم جسورا قوية بين فكرنا العربى الحديث والفكر العالمى، واستطاع فى وقت مبكر أن يدرك قيمة الحوار بين هذا الفكر العربى، والفكر العالمى الحديث، على اعتبار أن مثل هذا الحوار أحد السمات البارزة فى عالمنا المعاصر. وأنه مطلوب بين اللسان العربى وغير هذا اللسان بصورة ملحة تفرضها ضرورة التطور العالمى فى كل المجالات ومنها الثقافة.

وطه حسين حين أدرك قيمة هذا الحوار بين ثقافتنا والثقافة العالمية.. كان يؤمن أساسا وقبل كل شىء بأن لثقافتنا العربية أبعادا حضارية ضاربة فى التاريخ تمت فى إطارها إنجازات مبدعة وخلاقة، وتحققت بفضلها اكتشافات حضارية جليلة، قامت على القدرة العربية المبدعة للإنسان العربى، سواء فى تعامله مع الطبيعة واستئناسها، أو فى تعامله مع المجتمع بتوسيع مدركات أفراده فى مجالات كثيرة منها الفكر والأدب والفن. وكان أحد أوائل من سعوا إلى تجديد تلك الأبعاد وتوسيعها وإقامة الجسور بينها – فى حياتنا الجديدة – وبين ثقافات العالم العريقة الأخرى، قديمها وحديثها.

ولقد كان آخر تكريم عالمى حظى به طه حسين فى حياته، إبلاغه بأن الأمم المتحدة قررت منحه جائزتها مع أربعة من علماء العالم "عن حقوق الإنسان".. تلك التى رأت أن تهديها له فى العاشر من ديسمبر عام ١٩٧٣، ولكن الموت لم يمهله حين وافاه الأجل و لم يمض على سماعه نبأ هذا التكريم العالمى أيام قليلة..

فلا غرابة إذن فى أن تحتفل اليونسكو بتكريم طه حسين فى ذكرى ميلاده المئوية.

إن المجلس التنفيذى إذ يدرك أن الاحتفال على المستوى الدولى بالذكرى السنوية لأحداث تتعلق بشخصيات بارزة يشكل إسهاما هاما فى تحقيق أهداف اليونسكو المعلقة بتدعيم التفاهم والتعاون بالدوليين..

وإذ يذكر بالقرار ١٨م/٤٠٣٥١ الذى اعتمده المؤتمر العام بشأن الاحتفال بذكرى الشخصيات البارزة والأحداث الكبرى..

وبالنظر إلى أن عام ١٩٨٩ يوافق ذكرى مرور مائة عام على ميلاد الكاتب الكبير طه حسين الذى تعطى أعماله صورة حية عن ثراء الحياة السياسية والروحية بمصر والأمة العربية، فضلا عن أنها أصبحت تشكل جزءا لا يتجزأ من الثقافة العالمية.

وبالنظر إلى أن من شأن معرفة أفضل أعمال طه حسين وترجمتها إلى لغات أجنبية، أن تسهم فى إثراء العالم الروحى للذين لم يتعرفوا على أعماله بعد.

وعلى ذلك فالمجلس التنفيذى بالقاهرة يوجه نداء إلى اليونسكو والدول الأعضاء فيها إلى الاحتفال على نطاق واسع بهذه الذكرى السنوية الهامة.

ويدعو المنظمات الدولية غير الحكومية التى تتعاون مع اليونسكو إلى الاشتراك عام ١٩٨٩، فى الاحتفال بذكرى مرور مائة عام على ميلاد الكاتب الكبير طه حسين، وذلك عن طريق الاضطلاع بأنشطة ثقافية.. ونص هذا النداء:

يحتفل العالم العربى هذا العام بمرور مائة عام على ميلاد الأديب والمفكر المصرى و"عميد الأدب العربى" الدكتور طه حسين الذى ولد فى ١٤ نوفمبر/ تشرين الثانى سنة ١٨٨٩، وتوفى فى أكتوبر/ تشرين الأول سنة ١٩٧٣. كان طه حسين أديبا مجددا وروائيا مبدعا ومفكرا جريئا حمل بشجاعة راية التجديد والنهضة والدفاع عن حرية الرأى وحقوق الإنسان وحقوق المرأة، كما كان علما من أعلام التعليم والإصلاح التربوى.

وقد اقترن إسهامه فى النهوض بالأدب العربى والثقافة العربية اقترانا وثيقا بالطابع الإنسانى لفكره واهتماماته. فقد جمع فى إبداعه بين القديم والجديد.. بين الأصالة والحداثة، وناصر طيلة حياته قضية الحوار بين الثقافات والتعاون والتكامل بين الشعوب من أجل السلام.

وكان لطه حسين نشاط حافل على الصعيد الدولى. فبالإضافة إلى حرصه على المساهمة فى المؤتمرات والمجامع العلمية (مثل مؤتمرات المستشرقين ومؤتمرات الدراسات التاريخية واللغوية) أتيح لطه حسين منذ الثلاثينيات من هذا القرن أن يشارك فى كثير من الندوات والمؤتمرات الدولية الهامة، ومن بينها اجتماعات المعهد الدولى للتعاون الفكرى التى كانت نواة لإنشاء اليونسكو، وعدة مؤتمرات واجتماعات عقدت تحت رعاية هذه المنظمة بعد إنشائها. وكان لطه حسين على هذا الصعيد حضور بارز وصوت مسموع مازلنا نجد بعض آثاره فى سجلات اليونسكو.

وقد منح طه حسين الدكتوراه الفخرية من جامعات كثيرة من بينها اكسفورد ومدريد وليون ومونبلييه وروما، ومنحته منظمة الأمم المتحدة جائزة حقوق الإنسان.

وترجم عدد من مؤلفاته إلى لغات الشرق والغرب، ومـ ـنها: الفرنسية والإنجليزية والإسبانية والإيطالية والألمانية والروسية والفارسية والأردية والتركية واليابانية والهندية، كما نشرت بعض هذه الأعمال فى سلسلة الروائع العالمية التى تصدرها اليونسكو.

ويختم النداء كلماته بالقول:

إن طه حسين ملك للثقافة والآداب العالمية بقدر ما هو ملك للثقافة والأدب العربيين. وهو نموذج للمفكر الإنسانى وقدوة تحتذى فى مجال مناصرة المثل العليا التى حددت لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة. وهو لذلك جدير تماما بأن يدرج اسمه فى سجل احتفالات اليونسكو بالشخصيات والمناسبات ذات الأهمية التاريخية والإنسانية. وإنا لنرجو أن تتخذ اليونسكو التدابير اللازمة للاحتفال بالذكرى المئوية لهذا الأديب العظيم فى نوفمبر/ تشرين الثانى من هذا العام.

وقد استجابت لجان وهيئات اليونسكو لهذا النداء واحتفلت بطه حسين على مستوى العا لم.

* * *

٢ – طه حسين والثقافة المتوسطية(*)

منذ أن نشر الدكتور طه حسين كتابه "مستقبل الثقافة فى مصر" عام ١٩٣٧، والاتهامات لا تكف، والأقلام لا تجف، والحديث لا ينقطع.. حول تغريب الثقافة المصرية على يديه، وتحويلها من ثقافة عربية إسلامية إلى ثقافة أوروبية غربية، يونانية حينا، أو فرنسية حينا آخر، متوسطية تابعة للبلاد الواقعة على البحر المتوسط فى كل الأحيان... حتى يمكن القول أنه أضيف إلى قائمة اتهاماته بالسطو تارة، والإلحاد تارة أخرى، والخروج على موروثاتنا العربية الإسلامية تارات.. اتهام جديد هو الاتهام بالتغريب. وخلاصته أنه طه حسين رجل الغرب فى مصر بما يعنى هذا الغرب عند أصحاب هذا الاتهام من استشراق وتبشير كوجهين لعملة واحدة – عند أصحاب هذا الاتهام – هى الاستعمار.. مع أن طه حسين فى الأحوال التى اتهم فيها سواء فى استحداثه منهجا لتقييم التراث العربى بكتابه "فى الشعر الجاهلى" أو فى تصوره لمستقبل الثقافة المصرية بكتابه "مستقبل الثقافة فى مصر" لم يرد لثقافته العربية، أو لثقافته المصرية سوى الخير.

لكن ما العمل، وقد تزعم الهجوم على طه حسين نفر ممن يمثلون الاتجاهات غير المستنيرة.. أو التى لا تطلب من وراء الهجوم على رائد فى طول قامة طه حسين سوى الشهرة والمال، أو نفر من الأزهريين الذين يريدون إثارة معارك جديدة تصفية لحسابات قديمة ترجع إلى رأى طه حسين فيهم وليس فى الأزهر كمؤسسة تعليمية يريد لها التقدم والتطور حتى فى كتاب "مستقبل الثقافة فى مصر" أو غيره من كتاباته.

ولو أن أصحاب هذه الاتهامات العشوائية سلكوا فيما يكتبون مناهج منصفة.

(*) محاضرة للمؤلف ألقاها فى وجود المستشرقين الأسبان والأوروبيين بالمعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد بمناسبة خمسين عاما على إنشائه فى إسبانيا.

لأدركوا قيمة طه حسين، أو حتى على الأقل وجدوا فيما يقول أو يكتب دفاعا عن ثقافته العربية الإسلامية، كما وجدوا فيه أيضا إيمانا لدينه، بل وخدمة لهذا الدين بقدر ما يستطيع. لقد عاش الرجل ومات ولم يثبت خروجه على هذا الدين وكتابه الكريم، إلا إذا زعم أحد أصحاب هذه الاتهامات العشوائية بأنه شق قلب طه حسين واكتشف مسألة إلحاده وكفره.. فعليه فى هذه الحالة أن يثبت ذلك - رغم استحالته - وعلى ذلك فسيبقى طه حسين واحدا ممن خدموا الإسلام.. فيما كتب أو فيما دعا إليه من دعوة مبكرة للكتابة عن هذا الدين الحنيف، والتمسك به فى مواجهة التيارات الضارة وقتئذ من ناحية، وتبصير أبناء هذا الدين بأمر دينهم بمنهج مبسط يخلو من الأساليب العقيمة المتبعة فى الكتب القديمة من ناحية أخرى.. وهو ما يعرف بمشروعه فى إعادة كتابة تاريخنا بشكل يتقبله القارئ الشاب، ولا يرفضه السلف الصالح من العلماء الذين كتبوه من قبل بحيث لا يعتدى على ما أوردوه من معلومات صحيحة ومفيدة، وفى الوقت نفسه يقدم جوانب فكرية تجدد هذا الدين.

إن هذا المشروع كان يهتم بتقديم الإسلام فى صورة يقبلها المتلقى المعاصر. ليتحصن به فى مواجهة بعض التيارات الضارة، فدعا الأستاذ أحمد أمين للكتابة عن الإسلام فى جانبه الفكرى والاجتماعى، والأستاذ عبد الحميد العبادى للكتابة عنه فى جانبه السياسى، وتولى هو - أى طه حسين - الكتابة عن الجانب الأدبى فى الإسلام.. وهو فيما عرفناه بعد ذلك بمشروع إعادة كتابة التاريخ الإسلامى، والذى كان من نتائجه ظهور عدد من الكتب المفيدة لهؤلاء الثلاثة، تبعه اهتمام مكثف من الأستاذ عباس محمود العقاد بالكتابة الإسلامية غطى ما يقرب من الثلاثين كتابا عن الإسلام، واستمرار دؤوب من الدكتور محمد حسين هيكل فى الكتابة الإسلامية بعد كتابه الأشهر (حياة محمد)، بل وامتد الاهتمام بالكتابات الإسلامية تلك التى بدأها طه حسين واثنان من رفاقه، فشمل أيضا غير المتخصصين من الكتّاب والأدباء، وفى مقدمتهم الأساتذة: عبد الرحمن الشرقاوى، وعبد الحميد جودة السحار، وعلى أحمد باكثير، والدكتورة بنت الشاطئ.. وغيرهم.

أقول لو أن أصحاب هذه الاتهامات العشوائية رجعوا إلى ما كتبه طه حسين

وقرأوه بعين يقظة وأخرى مخلصة لما اهمه أحد بأى من هذه الاهمات العشوائية التى لم تصمد طويلا أمام البحث العلمى، وثبتت توجهاهما العدوانية. والمثل هنا كتاب "مستقبل الثقافة فى مصر" الذى اهموه بسببه بالتغريب، والذى هو موضوع الصفحات التالية.

وبداية يمكن القول بأن أحد تعريفات الثقافة بمعناها الواسع والتى أجمع عليه أكبر عدد من العلماء بأنها "هى كل ما فيه استنارة للذهن، وتهذيب للذوق، وتنمية لملكة النقد والحكم، وبأنها – أى الثقافة – تشتمل على معارف الأمة ومعتقداتها وتقاليدها، كما تشتمل على قدرات أفرادها وإبداعهم ومبتكراهم، وأن للثقافة طرقها وأساليبها ونماذجها العملية والفكرية والروحية.." إلى آخر هذه الجوانب التى يمكن أن تستوقف طه حسين عند الشروع فى كتابة بحث على غرار "مستقبل الثقافة فى مصر". ذلك أنه كمفكر أدرك فيما فكر أن الثقافة وتطويرها هى من مسئوليات المثقفين، قبل أن تكون من مسئوليات الدولة. لأن الدولة ليست هى نفسها صاحبة العطاء الثقافى الذى يوجد الثقافة وتطورها، وإنما هى وسيلة لدعم أصحاب هذا العطاء من المثقفين بالرعاية، وأن طه حسين كعالم قد تجاوز حدود هذه البديهية التى تقول بأن الثقافة تميز المجتمع الإنسانى عن التجمعات الحيوانية، فعادات الجماعة وأفكارها واتجاهاتها تستمد من تاريخ هذه الجماعة، لتنتقل تراثا اجتماعيا لكل الأجيال المتعاقبة، ليكون لكل جيل قيمه الثقافية التى استمدها من الماضى. مضيفا إليها ما يضيف من الحاضر، ويثريها بما يكتسب من الأفكار النظرية، والتطبيقات العملية، والإبداعات الفنية، حتى يستشرف آفاق مستقبله.

يبدو أن كل ذلك كان فى ذهن الدكتور طه حسين دون أن يسجله هكذا صراحة فى خطة كتابه "مستقبل الثقافة فى مصر"، وإن بدا واضحا وجليا فيما وراء سطوره.

لقد كانت بداية التفكير فى هذا الكتاب فى فترة كانت فيها مصر تبحث عن شخصيتها الثقافية بعد أن حققت شيئا من الاستقلال بمعاهدة ١٩٣٦، حيث شعر طه حسين كواحد من المثقفين الرواد بأن عليه مسئولية تقتضيه أن يحدد ملامح هذه

الشخصية وموقفها من الثقافات المحيطة بها، وما الذى ينبغى أن تصيغه مستقبلا، ولعله أشار إلى شىء من ذلك، حيث أشار فى مقدمة هذا الكتاب إلى الدافع الذى جعله ينشئ هذا البحث قائلا:

"أغرانى بإملاء هذا الكتاب أمران: أحدهما ما كان من إمضاء المعاهدة بيننا وبين الإنجليز فى لندرة، ومن إمضاء الاتفاق بيننا وبين أوروبا فى منترو، ومن فوز مصر بجزء عظيم من أملها فى تحقيق استقلالها الخارجى وسيادتها الداخلية.. وقد شعرت كما شعر غيرى من المصريين، وكما شعر الشباب من المصريين خاصة، وإن باعدت السن بينهم وبينى.. بأن مصر تبدأ عهدا جديدا من حياتها إذا كسبت فيه بعض الحقوق، فإن عليها أن تنهض فيه بواجبات خطيرة، وتبعات ثقال".

كان ذلك هو الدافع الأول إلى التفكير فى تأليف هذا الكتاب، وأما الدافع الثانى فهو حين سافر فى صيف ١٩٣٧ إلى باريس بعد أن ندبته وزارة المعارف العمومية لتمثيلها فى مؤتمر "اللجان الوطنية للتعاون الفكرى"، كما ندبته الجامعة لتمثيلها فى مؤتمر "التعليم العالى"، ثم حضوره مؤتمرات أخرى تدرس الثقافة من بعض جوانبها، أو كما يقول: "وكانت كل هذه المؤتمرات على اختلافها تدرس الثقافة من بعض أنحائها، وقد سمعت فيها آراء، وشهدت فيها أشياء، وأثار ما سمعت وما شهدت فى نفسى خواطر وعواطف وآمالا، لم أر بدّا من تسجيلها، فمنيت نفسى بأن أنتهز فرصة هذه الخواطر والعواطف، لأنجز ما وعدت به الشباب الجامعيين فيما بينى، وبين نفسى".

ويقول: "وكان الحق علىَّ أن أرفع بعد عودتى إلى مصر تقريرا إلى وزارة المعارف العمومية، وتقريرا إلى الجامعة، وأن أعرض على هذه ما رأيت فى مؤتمر التعليم العالى، وعلى تلك ما رأيت فى مؤتمر اللجان الوطنية للتعاون الفكرى. وأى شىء أيسر على مَنْ شهد مؤتمرا من أن يرفع تقريرا عن هذا المؤتمر، إلى الذين أرسلوه إليه.. ذلك شىء جرت به العادة، وقضى به النظام، وليس المهم أن يدرس ما فى التقرير من رأى، ويؤخذ بما فيه من صواب، وإنما المهم أن يحفظ التقرير فى

عطف من أعطاف الوزارة، وفى غرفة من غرفاتها، ليُرْجَعْ إليه ذات يوم، أو لينام إلى آخر الدهر".

ولكن قبل أن يُقَدَّم التقريرين حدثت ظروف سياسية لا يذكرها، ولكن ذكرها صهره الدكتور محمد حسن الزيات فى كتابه "ما بعد الأيام"، وخلاصتها أن الملك فاروق بعد أن وصل إلى سن الرشد، عين على ماهر باشا رئيسا للديوان الملكى دون أن يُعْلم رئيس الوزراء وقتئذ مصطفى النحاس باشا، ثم قرر الملك بعد ذلك إقالة وزارة النحاس باشا، وتولية محمد محمود باشا رياسة الوزارة، وإزاء هذه الأحداث السياسية عدل طه حسين عن تقديم التقريرين، وأسرَّ بينه وبين نفسه أن ينشر كتابا يذاع بين الناس، ويقرؤه المثقفون سواء منهم مَنْ وَلِىَ أمر من أمور السلطان فى الوزارة أو الجامعة، أو مَنْ لا ناقة له بالسلطان ولا جمل..

كما يقرؤه غير الجامعيين وسيجد الجميع فيه صورة لتفكير طه حسين فى الثقافة بعد تحقيق شىء من الاستقلال.. صورة من تفكيره كمواطن مصرى يقول عن نفسه فى هذا الكتاب "مهما يقل فيه، ومهما يظن به. فلن يتهم فى حبه لمصر وإخلاصه للشباب المصريين..".

حين يخص طه حسين هؤلاء الشباب الجامعيين أولئك الذين سألوه كما سألوا غيره من المفكرين عن واجب مصر بعد توقيع المعاهدة حيث يقول: "وما كان أشد تأثرى بهذه الحركة اليسيرة الساذجة التى دفعت فريقا من الشباب الجامعيين فى العام الماضى، إلى أن يسألوا المفكرين وقادة الرأى عما يرون فى واجب مصر بعد إمضاء المعاهدة مع الإنجليز، فقد أقبل الشباب الجامعيون يسألوننا أن نبصرهم بأمورهم، ونهديهم إلى واجباتهم، وجعل كل منا يتحدث إليهم فى ذلك حديثا سريعا مرتجلا بمقدار ما كان يسمح له وقته وعمله وتفكيره السريع فى حياة سريعة تمر بنا أو نمر بها مر البرق...".

يعنى أن الكتاب كان بمنزلة الإجابة على تساؤلات الشباب وغير الشباب عن واجب مصر بعد المعاهدة.

هذا عن ظروف تأليف الكتاب.. وأما عن أفكاره، فمن مراجعة وقراءة مجلدى الكتاب، وبعض الصفحات التى سجلها الدكتور محمد حسن الزيات بكتابه "ما بعد الأيام".. تلك التى تتحدث عن هذا الكتاب، والمعارك التى دارت حوله نرى أن طه حسين كان يرغب فى أن يدير حديثا مع المثقفين المصريين والشباب الجامعيين موضوعه "مستقبل الثقافة فى مصر"، داعيا إياهم والقراء إلى الثقة بأنفسهم، وإلى أن يؤمنوا بأنهم ليسوا أقل شأنا من الأوروبيين، وأن يعرفوا أنه كان لأجدادهم العرب فضل على بلاد الحضارة الحديثة فى أوروبا، وأنهم شركاء فى حضارة البحر المتوسط التى كان للمصريين وللعرب مشاركة بعيدة الأثر. ولعله يشير إلى شىء من ذلك حين يقول: "أريد كما يريد كل مصرى مثقف محب لوطنه حريص على كرامته ألا نلقى الأوروبى فنشعر بأن بيننا وبينه من الفروق ما يبيح له الاستعلاء علينا، والاستخفاف بنا، وما يضطرنا إلى أن نزدرى أنفسنا، ونعترف بأنه لا يظلمنا فيما يظهر من الاستطالة والاستعلاء...".

وتقتضيه طبيعة هذا البحث أن يتعرض لمسألة على جانب كبير من الخطورة، ولكن على حد قوله: "لابد من أن نجلّيها لأنفسنا تجلية تزيل عنها كل شك"، وهى الخاصة بالإجابة على سؤال: هل مصر من الشرق أم من الغرب؟ وينبه مسبقا إلى معنى الشرق الذى يقصده بقوله: "أنا لا أريد الشرق والغرب الجغرافى، وإنما أريد الشرق الأقصى أو بالتحديد الهند والصين واليابان". ويعيد طرح السؤال بصورة تقربه من الأذهان فيقول: "هل العقل المصرى شرقى التصوير والإدراك والفهم والحكم على الأشياء، أم هو غربى التصور والإدراك والفهم والحكم على الأشياء؟ وبعبارة موجزة: أيهما أيسر على العقل المصرى أن يفهم الرجل الصينى أو اليابانى، أو أن يفهم الرجل الفرنسى، أو الإنجليزى، أو الإيطالى وغيرها من الأقطار التى تقع فى حوض البحر المتوسط؟.

ويرى طه حسين أن هذه هى المسألة التى لابد من توضيحها وتجليتها قبل التفكير فى الأسس التى نبغى أن نقيم عليها ما ينبغى لنا من الثقافة والتعليم. ويرى أن أيسر الوسائل لتحقيق ذلك هو الرجوع إلى تاريخ العقل المصرى منذ أقدم عصوره ومسيرته فى تاريخه الطويل، فأول ما يلاحظه – بعد ذلك – أن مصر لم يكن بينها وبين

الشرق البعيد صلات مستمرة منظمة من شأنها أن تؤثر فى تفكيرها أو فى سياستها أو فى نظمها الاقتصادية.

ويستشهد فى ذلك بآراء علماء التاريخ القديم حيث يقول: "وما أظن أن علماء التاريخ المصرى القديم يستطيعون أن يدلونا على آثار أو نصوص تشهد بوجود هذه الصلات المستمرة المنظمة بين مصر فى عصورها الأولى وبين الشرق الأقصى..

ولعل أقصى ما يستطيعون – أى علماء التاريخ المصرى القديم – أن يتحدثوا به إلينا فى ذلك، إنما هى محاولات يكاد ينم عنها التاريخ فى آخر العصر الفرعونى، تظهر ميل المصريين إلى أن يستكشفوا سواحل البحر الأحمر مبعدين فى ذلك بعض الشىء، ولكن فى شىء من الحذر والاحتياط والاستحياء، وما أظن أنهم تجاوزوا بذلك بعض المطامع الاقتصادية التى كانت تثيرها فى نفوسهم بعض بلاد الشرق الأقصى كالهند والصين واليابان. فهم من هذه الناحية قد حاولوا شيئا، ولكنهم لم يمضوا و لم يبعدوا و لم ينظموا أى نوع من أنواع المواصلات التى يمكن أن يؤثر تأثيرا عميقا فى التفكير والسياسة والاقتصاد".

لكن طه حسين يستثنى من هذا الشرق كله، الشرق القريب، حيث يرى أن هناك صلات وعلاقات.. "وما أظن أن الصلة بين المصريين القدماء والبلاد الشرقية تجاوزت هذا الشرق القريب الذى نسميه فلسطين والشام والعراق، أى هذا الشرق الذى يقع فى حوض البحر المتوسط.. وليس من شك فى أن الصلة بين المصريين القدماء، وبين هذه الأقطار من الشرق القريب كانت قوية مستمرة منظمة إلى حد بعيد، وكانت بالغة الأثر فى الحياة العقلية والسياسية والاقتصادية لهذه البلاد كلها، فأساطير المصريين تنبئنا بأن آلهتم قد تجاوزوا الحدود المصرية، وذهبوا يحضرون الناس فى أقطار الشرق هذه. وتاريخ المصريين ينبئنا بأن ملوك مصر قد بسطو سلطانهم على هذه الأقطار أحيانا، كما يحدثنا بأن مصر قد تعرضت لبعض الخطر السياسى فى هذه البلاد".

ومن هنا يأتى تأكيد طه حسين بأن الشرق الذى لا ننتسب إليه هو الشرق الأقصى أى الهند والصين واليابان، وأما الشرق الذى ننتسب إليه فهو الشرق القريب أو كما

نعرفه الآن بالشرق الأوسط، وثقافته بالشرق أوسطية. ويشمل بلدان الأمة العربية التى كانت شريكة مع مصر فى بناء حضارة البحر المتوسط.

كذلك ينبه فى حديثه عن بلدان الشرق القريب أو ما نعرفه الآن بالشرق الأوسط أن من بينها بلدانا عربية لا تقع على شواطئ البحر المتوسط كدمشق، وبغداد، والسودان، وموريتانيا.

ويثبت أنها أيضا كانت شريكة فى صنع هذه الحضارة.

معنى هذا وفق نظرية طه حسين أننا لسنا شرقيين وغير شركاء فى صنع حضارة الشرق إذا كان هذا الشرق يعنى الشرق الأقصى أى الهند والصين واليابان. ويشير إلى شيء من ذلك فى كتابه، حيث يذكر "أن التلاميذ يتعلمون فى المدارس أن أمة شرقية بعيدة عن مصر بعض الشيء قد أغارت عليها وأزالت سلطانها فى آخر القرن السادس قبل الميلاد، وهى الأمة الفارسية. فلم تذعن مصر لهذا السلطان الشرقى الأجنبى إلا كارهة. وظلت تقاومه أشد المقاومة وأعنفها، مستعينة على ذلك بمتطوعة اليونان حينا، وبمحالفة المدن اليونانية حينا آخر.. حتى عصر الإسكندر الأكبر..".

بعد ذلك يؤكد الدكتور حسين أن العقل المصرى لم يتصل قديما بعقل الشرق الأقصى، و لم يعش عيشة سِلم وتعاون مع العقل الفارسى، وإنما عاش معه عيشة حرب وخصام. وفى الوقت نفسه اتصل من جهة بأقطار الشرق القريب اتصالا منظما مؤثرا فى حياته ومتأثرا بها، كما اتصل من جهة أخرى بالعقل اليونانى منذ عصوره الأولى، اتصال تعاون وتوافق، وتبادل مستمر منظم للمنافع فى الفن والسياسة والاقتصاد.

ومعنى هذا – كما يقول الدكتور طه حسين: "بديهى أن يبتسم الأوروبى حين تنبئه به لأنه عنده من الأوليات والخلفيات. ولكن المصرى والشرقى العربى يلقيانه بشيء من الإنكار والازورار يختلف باختلاف حظهما من الثقافة والعلم. فالعقل المصرى منذ عصوره الأولى عقل إن تأثر بشيء فإنما يتأثر بالبحر المتوسط، وإنْ تبادل المنافع على اختلافها، فإنما يتبادلها مع شعوب البحر المتوسط".

وعندما يجيء الإسلام وينتشر فى أقطار الأرض، تتلقاه مصر لقاء حسنا – كما

يسجل طه حسين بكتابه، وتسارع إليه إسراعا شديدا، وتتخذه لها دينا، وتتخذ لغته العربية لها لغة.. فهل أخرجها ذلك عن عقليتها الأولى؟ وهل جعلها ذلك أمة شرقية المعنى الذى يفهم من هذه الكلمة الآن؟

ويجيب بالنفي. لأن المسيحية فى رأيه التى ظهرت فى الشرق قد غمرت أوروبا، واستأثرت بها دون غيرها من الديانات ولم تصبح أوروبا شرقية، وإذا كان فلاسفة أوروبا وقادة الرأى الحديث فيها يعدون المسيحية عنصرا من عناصر العقل الأوروبى، ثم يتساءل: ما الذى يفرق بين المسيحية والإسلام، وكلاهما قد ظهرا فى الشرق الجغرافى، وكلاهما نبع من منبع كريم واحد، وهبط به الوحى من لدن إله واحد. يؤمن به الشرقيون والغربيون على حد سواء؟

وكيف يقرأ الأوروبيون الإنجيل، ولا يرون أنه ينقل العقل من الغرب إلى الشرق، وإذا قرأوا القرآن الكريم رأوه شرقيا خالصا، مع أن القرآن كما يقول فى غير عوج ولا التواء، إنما متمما مصدقا لما فى الإنجيل؟

ويجهل الدكتور طه حسين كل ما تقدم من أفكار ليصل إلى نتيجة مؤداها. أنه إذا أردنا أن نحلل مكونات العقل المصرى فسوف نجدها تنحل إلى هذه الآثار الأدبية والفلسفية المتصلة بحضارة اليونان، وإلى هذه السياسة والفقه المتصلة بالرومان، وإلى هذا الدين الإسلامى الثرى بعلومه وحضارته وتراثه الهائل.

وإلى جانب المعنى الثقافى، والجانب التعليمى الذى أفاض الدكتور طه حسين فى الحديث فيه.. وعن كيفية إصلاحه وتكوينه وحل مشاكله فى أغلب صفحات الكتاب. هناك جانب سياسى لعله يعطى المغزى الحقيقى من تأليف هذا الكتاب فى ذلك الوقت بالذات.. الذى يتطلب إعادة الثقة إلى المصرى بعد أن نال شيئا من استقلاله، وخلاصته أننا كمصريين عرب لا نقل عن هؤلاء الأوروبيين؟ وكيف نقل عنهم وقد كنا شركاء لهم فى صنع حضارة العالم القديم، وأساتذة لهم فى صنع حضارة العصر الحديث؟!

إن طه حسين وهو يطرح هذه الأسئلة وغيرها يرى أن علينا واجبات منها أن

نبذل كل ما نملك من القوة والجهد والمال لنشعر أن الله خلقنا للعزة لا للذلة، وللقوة لا للضعف، وللسيادة لا للاستكانة، وأن نمحو من قلوبنا هذا الوهم الآثم الشنيع الذى يصوّر لنا أننا خلقنا من طينة غير طينة الأوروبيين، ومنحنا عقولا غير عقولهم إلى آخر هذه الفروق التى تمتلئ بها قلوب العاجزين منا، وتنتفخ لها أوداج الطامعين والمستعمرين من الأوروبيين.

إذن فنظرية الدكتور طه حسين الثقافية كانت لها دلالتها السياسية والاجتماعية إبان نشرها بعد عامين من تحقق شىء من الاستقلال بمعاهدة ١٩٣٦، وهل هناك أكبر دلالة من عمل فكرى يهدف إلى إعادة ثقة المصرى بنفسه وإمكاناته وأمجاده وتاريخه وتراثه؟!

إننا نلمح من بين خطوطها العريضة: الاهتمام بتاريخ الأمة وتراثها الثقافى، والاهتمام بما يدور حولنا فى ثقافات الآخرين وموقفنا منهم، والاهتمام الملحوظ بالعملية التعليمية وكيف ينبغى أن تكون؟ والاهتمام بألوان الإنتاج العقلى من فنون وآداب وفلسفات إلى آخر هذه الاهتمامات، التى مع غيرها تتكون ثقافة الأمة. ولكنه عندما شرع فى معالجتها ضمنها رأيه كعالم ومفكر. وهنا اختلف حولها المثقفون بين مؤيدين ومعارضين.

فلكى يصل الدكتور طه حسين إلى تحديد لملامح شخصيتنا الثقافية، ولكى يصل إلى أن هذه الملامح هى فى التراث الفنى المصرى القديم، والتراث العربى الإسلامى، ثم ما اكتسبته من خير ما أثمرت الحياة الأوروبية الحديثة. هذه الملامح المختلفة المتناقضة فيما بينها أشد الاختلاف والتناقض تلتقى فى مصر فيصفى بعضها بعضا، وينفى بعضها بعضا. ليتكون فيها ذلك المزاج الرائق الذى يورثه الآباء للأبناء، وينقله المعلمون إلى المتعلمين، لكى يصل طه حسين إلى أن فى مصر ثقافة مصرية أصيلة فيها شخصية مصر القديمة. فهى فى الوقت نفسه إنسانية قادرة على أن تغزو قلوب الناس وعقولهم وتخرجهم من الظلمات إلى النور، وقادرة على أن تتيح من اللذة والمتاع مما يجدونه أو لا يجدونه فى ثقافتهم الخاصة.

لكى يصل إلى كل ذلك.. كان على الدكتور طه حسين أن يبحث فى التفصيلات والجزئيات التى على أساسها تكون الثقافة أو لا تكون.. فيبحث فى كيفية أن الاستقلال والحرية وسيلتان إلى كمال شخصيتنا، وسبب من أسباب رقينا الثقافى. وأن مستقبل الثقافة فى مصر مرتبط بماضينا وأنه لا ضرر ولا ضرار على شخصيتنا الثقافية من الاستفادة بخير الحضارة الأوروبية، وعلى الأخص دول البحر المتوسط. فالإسلام فى أزهى عصوره كان من قوام سياسته الاستفادة بما حقق غير المسلمين من تقدم وتطور، كان عليه أيضا أن يتناول قضية التعليم حيث يراه وسيلتنا إلى التقدم. فإذا أردنا الاستقلال الكامل فوسيلتنا التعليم، وإذا أردنا الحرية فلنلجأ إلى التعليم، وإذا أردنا الرخاء الاقتصادى فليستعن بالتعليم، كذلك إذا أردنا الثقافة المميزة لشخصيتنا المصرية فلابد لنا من التعليم، ولذلك رأى وجوب إشراف الدولة على التعليم فى كل مراحله، وتتبع العملية التعليمية من بدايتها الأساسية إلى نهايتها العالية. فنبه إلى مهمة التعليم الأساسى وطالب بأن يكون المشرفون عليه من صفوة رجال الأمة، وأشار إلى مكانة التعليم الابتدائى بين التعليمين الأساسى والثانوى، كما أشار إلى التعليم الثانوى ومتى ينتهى؟ وإلى التعليم الجامعى وحقه فى الاستقلال المالى والإدارى والعلمى حتى يتمكن من حل مشكلاته. كذلك نصح فى حديثه عن العملية التعليمية إلى العناية بإعداد المعلم، والاهتمام باللغة العربية وإصلاح علومها وتيسيرها ودراسة اللغتين القديمتين اليونانية واللاتينية بوصفهما لغتى العلم، إلى جانب الاهتمام باللغات الحديثة. كما نصح بوجوب مراقبة الدولة للتعليم فى المدارس والمعاهد الأجنبية، وأكد على ضرورة فرض التعليم الدينى ليس فى المدارس العامة، وإنما أيضا فى المدارس والمعاهد الأجنبية. كذلك رأى أن إصلاح التعليم يتم بإنشاء مجلس أعلى للتعليم وإعادة تنظيم مراقباته، وإصلاح نظام التفتيش.

وحتى يحيط بأساس الثقافة المصرية من جميع أقطارها الوقوف عند التعليم الأزهرى لأهمية دوره حيث يسجل فى كتابه بأننا مؤمنون بأن مهمة الأزهر فى تكوين الثقافة أعظم خطرا وأبعد أثرا فى حياة مصر والعالمين العربى والإسلامى لأسباب كثيرة، منها أن الأزهر أكثر معاهد التعليم فى مصر وفى الشرق الإسلامى حظا من الطلاب، ومنها

أن الأزهر كمعهد دينى شديد الاتصال بطبقات الشعب على اختلافها.. ومنها أن الأزهر مظهر من مظاهر المجد المصرى القديم. فقد حمل لواء المعرفة فيها قرونا متصلة، ومنها أن الأزهر مصدر الحياة الروحية للمسلمين عامة. ويرى أنه إذا تم التقريب بين التعليم العام المدنى والتعليم الدينى الأزهرى، لأصبحت أمور التعليم العالى فى الأزهر هينة يسيرة كأمور التعليم العالى بالجامعة.

وكان على الدكتور طه حسين أيضا أن يبحث فى مصادر الثقافة فى غير مراحل التعليم المختلفة. فيرى أن الثقافة ليست محصورة فى داخل المدارس والجامعات ومعاهد الأزهر، وبذلك تنتهى مسئولية الدولة. بل هناك مسئولية أخرى للدولة ليست أقل شأنا من مسئوليتها عن التعليم. فلابد أن تتعاون الدولة مع الشعب فى أمور منها تمكين المثقفين من الإنتاج الفكرى فيضيفون إلى الثقافة إضافات جديدة يشاركون بها فى تنمية الثروة الثقافية. ومنها نشر أعظم حظ ممكن من الثقافة فى طبقات الشعب، ومنها تجاوز الثقافة الوطنية حدود الوطن، ومنها تحقيق الصلة المنظمة الخصبة المنتجة بين مصر والثقافات الأجنبية على اختلافها وتباين لغتها ومناهجها. ويقرر الدكتور طه حسين بأنه إذا كان الاستقلال السياسى يقوم على تبادل المنافع والاستقلال الاقتصادى يتحقق بالتعاون بين الشعوب.. فإن الاستقلال الثقافى لا معنى له إلا إذا كان أخذا وعطاءً.. أخذا لما تنتجه الأمم الأخرى من أنواع المعارف.. وعطاءً لما ننتجه نحن من أنواع المعرفة.

وطه حسين وهو فى صدد الحديث عن مسئولية الدولة تجاه الشعب ينصح بوجوب تشجيع الهيئات الأدبية والفنية على الإنتاج. كما ينصح بوجوب رعاية الإنتاج العقلى للأفراد مكتوبا أو مسموعا أو مرئيا.

وكان عليه أيضا أن يبحث فى كيفية قيام مصر بواجبها الثقافى تجاه شقيقاتها من الدول العربية فتصل بثقافتها إلى هذه الأقطار التى تستطيع أن تنتفع بها، وأن تتعاون فى تنظيم ذلك.

كان عليه أن يبحث كل ذلك مما اضطره إلى بحث التفصيلات والجزئيات التى كانت

جديدة فى حينها. فكان هناك بالطبع مَنْ يؤيده، وهناك من يعارضه. والطرف الأول يمثله كثير من المستنيرين، ولكنهم يصمتون. ومن الطرف الثانى يمثله ثلاثة ممن لهم تقديرهم العلمى الأول، منهم المفكر الكبير ساطع الحصرى، المعروف باتجاهاته القومية، وعلى الرغم من ذلك كان أقرب المعارضين للموضوعية، وأكثرهم تعليقا على هذا الكتاب، حيث نشر سلسلة من المقالات بمجلة الرسالة بدأت فى ١٩٣٩/٧/١١، سجل فى الأولى منها اتفاقه مع طه حسين بأن عقلية الأوروبى ليست أفضل من عقلية المصرى. ولكنه يختلف مع طه حسين فى المنهج الذى سلكه، حيث يتسم بعدم التناسق وكثرة التداخل والارتجال والاستعجال والاستطراد. ويسجل فى مقالته الثانية مأخذه على المقدمات والبراهين التى بنى عليها طه حسين أحكامه. ولا يشاطر الحصرى طه حسين فى اهتمامه باللغتين اليونانية واللاتينية، ويرى أنهما من اللغات الميتة، ويتفق معه فى الاهتمام باللغات الحديثة وفى مقدمتها الفرنسية والإنجليزية.. وعلى الإجمال يلمس القارئ لردود ساطع الحصرى جدية وعلما وموضوعية ودقة.

والثانى هو الدكتور زكى مبارك المعروف بموقفه الحاد من أستاذه طه حسين. فقد تصور يوما أن طه حسين يتجنى عليه ويحاربه فى رزقه ومستقبله، إلى درجة أنه قال عبارته المشهورة: "إن أطفالى لو جاعوا لشويت طه حسين وأطعمتهم من لحمه".. ولذلك فإن الدكتور زكى مبارك يكتب فى الرسالة مقالا مطولا بتاريخ ١٩٣٩/١/٢٣ يفتقر كثيرا إلى الموضوعية، كما يحفل بالتناقض فهو حين يثنى على الكتاب وصاحبه فى البداية حيث يراه أصدق شاهد على تقدير المؤلف لمسئوليته كعميد لكلية الآداب، وأنه رجل متحرك مقتحم وسط الكثيرين من الجاحدين والكسالى، وأن الكتاب إن كان ليس به بريق أدبى فيكفيه جلاله التعليمى.. نراه من ناحية أخرى ينهال عليه نقدا وذما وتهجما وتهكما.. حين يأخذ عليه كثرة التطويل فى شرح البديهيات، ثم يختلف معه فى الكثير من الأحكام.

والثالث هو الدكتور محمد محمد حسين أحد تلاميذ طه حسين الناهين والمرء

يندهش فى أسلوب هذا العالم فى الهجوم على قادة فكرنا الإسلامى، وفى مقدمتهم الأفغانى والإمام محمد عبده، حتى إن كتابه "الإسلام والحضارة الغربية" يعتبر خير مرجع لمن يريد التهجم عليهما أو غيرهما من علماء المسلمين ممن يمثلون التجديد فى الإسلام. وبديهى والأمر كذلك أن يختلف مع طه حسين فيسجل فى كتابه "الاتجاهات الوطنية فى الأدب العربى ثلاثة مآخذ على كتاب طه حسين هى: الدعوة إلى حمل مصر على الحضارة الغربية وطبعها بطابعها، وقطع ما يربطها بقديمها وإسلامها، ثم الدعوة إلى إقامة الوطنية وشئون الحكم على أساس مدنى، وأخيرا الدعوة إلى إخضاع اللغة العربية لسنة التطور ودفعها إلى طريق ينتهى بها إلى أن تصبح لغة دينية فحسب.

وأما غير هؤلاء الثلاثة من المهاجمين لطه حسين ونظريته الثقافية، وفى مقدمتهم جماعة الإخوان المسلمين، وبعض الكتّاب المشكوك فى مواقفهم من طه حسين حيث كان الواحد منهم يمدحه فى حياته، ويذمه فى مماته، ويتقدمهم الأستاذ أنور الجندى.. فكتاباته مع غيره من كتّاب الإخوان المسلمين تفتقر إلى الدقة والموضوعية، ويبدو فيها الكثير من الاتهامات العشوائية المحمومة التى لا تستند على حقائق أو مصادر علمية. بل إن أغلبها يعتمد على المعرفة بالسماع لا أكثر ولا أقل. ولذلك فالإهمال لما كتبوه أفضل من الاهتمام بها فى هذه الصفحات. والأكرم أن نواصل البحث فيما هو إيجابى. ومن هذه الجوانب الإيجابية لتفكير طه حسين، وتأثره بالثقافة المتوسطية كان حلمه فى إيجاد كيان أو شكل ثقافى بمصر يكون مسئولا عن السياسة الثقافية والمثقفين، شأنه شأن بقية أمم البحر المتوسط استكمالا لنظريته فى الثقافة.

هذا الحلم راود عميد الأدب العربى بعد أن حققت مصر شيئا من استقلالها بمعاهدة ١٩٣٦. فقد كان فى شكل رعاية الدولة لمجهود المثقفين الذين يقدمون أعمالا إبداعية تجعلنا نسهم بنصيب فى التراث الإنسانى، وذلك بإنتاج فكرى وأدبى وفنى يعبر عن شخصيتنا المعاصرة. كما يعبر عن ماضينا ويستشرف آفاق مستقبلنا، حتى تأخذ مصر مكانها المشروع بين الثقافات العالمية. كان حلم طه حسين أن تشمل الدولة برعايتها شجرة الثقافة، وأن الأمل الجديد هو الذى يراود المثقفين الآن فى استمرار تجدد رسالة الثقافة.

ولقد أشار عميد الأدب إلى شيء من ذلك فى كتاب "مستقبل الثقافة بمصر"، حيث كان يرى شجرة الثقافة باسقة قد ثبتت أصولها فى أرض مصر، وارتفعت فروعها فى سمائها، وامتدت أعضاؤها فى كل وجه فأظلت ما حول مصر من البلاد العربية، وحملت إلى أهلها ثمرات حلوة فيها ذكاء للقلوب، وغذاء للعقول، وقوة للأرواح، وهم يسعون إليها فى هدوء واطمئنان. ولا يستبعد العميد وهو ماض - فى تصوراته أن تأخذ مصر بنصيبها، فهى التى انتصرت على الخطوب وثبتت للأحداث وظفرت بحقها فى هدوء وأناة.. أن تنتصر على نفسها لترد إليها مجدا قديما.

وما كان العميد ليدرى حين أملى كتابه أن القدر كان يمكر به ذلك المكر الجميل حيث دفعه إلى أن يرسم منهاجا جريئا للثقافة ليطالبه بعد بضع سنين أن ينفذ ما أملته عليه نفسه التى هامت بحب مصر حين اختير مراقبا عاما للثقافة بوزارة المعارف العمومية. وهنا نرجع لرصد تفاصيل هذه الفترة إلى كتاب "ما بعد الأيام" للدكتور محمد حسن الزيات، لنقف على إنجازاته الثقافية التى بدأت حين اختاره محمود فهمى النقراشى باشا وزير المعارف وقتئذ فى وزارة على ماهر باشا لهذا العمل الجديد الذى رأى فيه فرصة لتحقيق أفكاره فى التعليم والثقافة، سجلها فى كتاب "مستقبل الثقافة فى مصر". فهذا عمل تبنته مراقبة الثقافة التى يشرف عليها يتيح الفرصة لإنشاء أكاديمية مصرية يمكن أن يكون لها دور خطير فى حياتنا الثقافية وهناك إدارات الآثار المصرية والرومانية والقبطية والإسلامية وعلينا واجب تمصير ما يشغله الأجانب من مناصبها، وتنشيط العمل الذى تقوم به لإلقاء مزيد من الضوء على حضارتنا ودورها فى مسيرة الحضارة الإنسانية. وهناك أيضا شئون المسرح والموسيقى والأوبرا فى المراقبة.

وتتحول المراقبة العامة للثقافة فى وزارة المعارف العمومية التى يديرها العميد إلى خلية عمل. فهذه إدارة الترجمة والنشر يعرض مديرها محمد بدران قائمة بالكتب الأجنبية التى اختارتها إدارته ويوافقه العميد، وهذا مدير مصلحة الآثار المصرية المسيو "آتيين دريوتدن" يعرض ما لديه على العميد الذى يطلب منه إنشاء قسمين جديدين الأول للنشر والاتصال، والثانى يختص بالحفائر، وينبهه إلى أن هناك من المصريين من سيحل محله بعد الحرب. وهذا مدير إدارة الآثار العربية "المسيو جاستون فييت"، يعرض

على العميد ما لديه فيستمع إليه، ثم ينبهه إلى أن لدينا فى القاهرة أكبر دار للآثار الإسلامية فى العالم... وهكذا كانت تعمل كل الإدارات المتفرعة من مراقبة الثقافة وكأنها وزارة للثقافة، وهكذا أيضا يديرها طه حسين راضيا على الرغم مما كان يعانيه من نظرة وزارة المعارف إلى شئون الثقافة، حيث إنها فى الأصل وزارة للتعليم هدفها أن تعد المتعلم لكى يحشد ذهنه بالمعلومات، فى حين المراقبة هدفها أن ترعى المثقف وتعينه على الارتقاء بذوقه ومداركه بشكل يكون له أثر فى إحداث تغيير جوهرى فى المحيط الذى يعيشه، فالهدفان مختلفان. ومن هنا كانت نظرة الوزارة وهو ما لم يرض العميد أمرا جعله يطلب إعفاءه من العمل مرارا، وقبل أن يبت النقراشى فى طلب طه حسين ترك الوزارة ليخلفه الدكتور محمد حسين هيكل.. الأخ والصديق لطه حسين. فلا يجد مفرا من الاستمرار. وحتى بعد أن ترك الدكتور هيكل المعارف، وخلفه أحمد نجيب الهلالى وزيرا للمعارف.. يطلب منه الاستمرار ويضيف إلى عبئه منصبا آخر هو المستشار الفنى لوزارة المعارف حتى تتيسر له بعض الأمور. وبالطبع يستطيع أن يحقق جانبا كبيرا من حلمه الثقافى على الرغم من ضيق الاعتمادات والميزانيات المتخصصة للمراقبة العامة للثقافة، ويحقق جانبا آخر بعد أن أصبح العميد وزيرا للمعارف حتى ٢٦ يناير عام ١٩٥٢ قبل الثورة.

وفى السنوات الأولى بعد قيام الثورة بدا الاهتمام بالثقافة شاحبا، وأكثر ما يكون هو اعتبارها مراقبة من المراقبات الثانوية التابعة لوزارة المعارف التى أصبح اسمها وزارة التربية والتعليم. كان العمل الثقافى فى ظل هذه التبعية عملا متقطعا غير متصل أو منتظم خاضع لاعتبارات كثيرة تعوق تقدمه إلى أن صدر قانون بإنشاء المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية عام ١٩٥٦ فى شكل هيئة مستقلة تابعة لرئاسة مجلس الوزراء. فظهر أول اهتمام حقيقى من الدولة بالثقافة، وبقيت الإدارة العامة للثقافة تابعة للتربية على حالها، فلم تقدم سوى مشروع الألف كتاب الذى صدر عام ١٩٥٧.

وفى فبراير ١٩٥٨ ظهر اهتمام جديد من الدولة بالثقافة حين أضافتها إلى الإرشاد القومى فأنشأت وزارة الثقافة والإرشاد القومى التى تولاها الأستاذ فتحى رضوان.

الذى اهتم رغم اضطلاعه فى المقام الأول بالمهمة الإعلامية الكبرى بالشئون الثقافية. فأنشأ مصلحة للفنون تضم المسرح والسينما والفنون التشكيلية وإدارة للثقافة والنشر، ومركزا للفنون الشعبية، ومحطة إذاعية للمثقفين هى البرنامج الثانى. ولكنه ترك الوزارة بعد ثمانية أشهر.

لقد وضح الاهتمام الحقيقى من الدولة بالثقافة. وهو الحلم الذى راود طه حسين، حيث اختارت حكومة الثورة الدكتور ثروت عكاشة ليقوم بمهمة صياغة العقل المصرى ثقافيا، وكان ذلك حين أسندت إليه مسئولية وزارة الثقافة والإرشاد فى نوفمبر ١٩٥٨. وبالطبع انصرف كل اهتمامه إلى الثقافة كعمل تجنى ثمراته الأجيال. وكذلك يمكن القول باطمئنان أن وزارة الثقافة بمعناها الحقيقى بدأت عملها فى عهد ثروت عكاشة متحملة عبء الإنشاء والإنتاج معا، وتحددت قيمتها بمدى مساهمتها فى تغيير حركة المجتمع ودفع الأحداث فى اتجاه تحقيق مهمة خلق التلاحم الفكرى والوجدانى بين أصحاب العطاء من المثقفين وأصحاب الحق من أبناء الشعب. كان على هذه الوزارة الوليدة أن تحقق مهمة صياغة العقل المصرى، وعليها أيضا أن تستفيد من جهود المثقفين فى إدارة مرافقها والربط بين الدولة وهؤلاء المثقفين حتى يتهيأ المناخ المناسب لإنتاجهم. كانت لوزارة الثقافة منذ بدأت رؤية هى على سبيل المثال ترى أن للقلم رسالة فى شحذ وجدان الأمة لا تقل عن رسالة المدفع فى حماية حدود الوطن.. باختصار كان لابد وأن يكون للمثقفين دور قيادى من خلال وزارتهم فى معركة التغيير والبناء. وإذا ما وُضعت هذه المفاهيم موضع التنفيذ بعدها تتضح الرؤية وتظهر قسمات صورة العمل الثقافى الذى كان يحلم به طه حسين.

وبدأت سياسة المؤسسات فى الثقافة. فكان للكتاب مؤسسة هى التأليف والترجمة والنشر، وكان للمسرح والموسيقى مؤسسة ضمت الفرق الشعبية ودار الأوبرا، كما استحدثت إدارة التفرغ للمبدعين من الفنانين والأدباء وأنشئت أيضا مؤسسة السينما، وأنشئت قصور الثقافة الجماهيرية لتثقيف أبناء الأقاليم.. وللاهتمام بآثارنا وإنقاذها كان مشروع الصوت والضوء، ثم هيئة للآثار.. وللاهتمام بتقديم عناصر فنية دارسة

أنشئت أكاديمية الفنون لتقدم كوادر فنية مسلحة بالعلم والموهبة.. وللاهتمام بثقافة الابن الجديد أنشئ مركز لثقافة الطفل.

وهكذا تحقق حلم طه حسين فى وجود وزارة تعنى بشئون المثقفين.. وكل هذا طالب به طه حسين فى مشروعه الثقافى الذى نعرفه جميعا بكتاب "مستقبل الثقافة فى مصر"، منتهجا الأسلوب نفسه الذى سبقتنا إليه شعوب البحر المتوسط. ونظريته بأن مصر واحدة من أمم البحر المتوسط، وأنها ليست شرقية إذا كان هذا الشرق يعنى الهند والصين واليابان. بل الأقرب أن تكون غربية ضمن دول البحر المتوسط، ولا يبعدها ذلك عن عروبتها التى تقع بلدانها على شواطئ هذا البحر.. وهو ما عبّر عنه طه حسين بالشرق القريب الذى تربطنا به روابط عدة.

* * *

تاسعا : وجها لوجه مع طه حسين

هكذا تحدث طه حسين.

هكذا تحدث طه حسين

فى هذه الصفحات المتواضعة يتحدث فيها طه حسين فى موضوعات شتى، دون تدخل منى، وإذا حدث هذا التدخل فإنما بجهد النقل لا أكثر ولا أقل من أحاديث قمت بإجرائها معه فى الفترة من عام ١٩٦٥ إلى عام ١٩٧١، والقليل جدا منها أحالنى - رحمه الله - إلى صفحات من كتبه. ولهذا ولغيره من أسباب لا أجد نفسى فى هذه الصفحات مؤلفا بقدر ما أجد هذه النفس ناقلة لفكر عميد الأدب العربى منبها إلى أمرين:

أولهما: أننى حين شرعت فى اختيار مادة هذه الصفحات، رجعت إلى هذه الأحاديث التى أجريتها مع الدكتور طه حسين مستهدفا منها ما يلائم أفكار اليوم. و لم أجد فى ذلك صعوبة فكل أفكار العميد كانت مستقبلية متقدمة.

ثانيهما: أن ما أقدمه من موضوعات، جاءت مركزة كما تحدث بها العميد فى إجاباته. هذه الموضوعات لا تقف طويلا أمام التفاصيل، محاولا بذلك بلورة آرائه وأفكاره ونظرياته فى خلاصة مفيدة تقدم رأيا متكاملا فى القضايا التى تتعرض لها.

وعلى هذا فالصفحات التالية تحمل فيضا من الآراء الواعية ووجهات النظر الذكية. والأفكار السديدة للدكتور طه حسين فى كثير من الجوانب الثقافية والفكرية والسياسية والاجتماعية، تلك التى شغلت فكرنا المعاصر منذ بدء هذا القرن حتى سبعينياته. ومن هذه الموضوعات التى تناولها الدكتور طه حسين فى أحاديثه لكاتب هذه الصفحات: الحضارة، والفلسفة، والتفكير الاجتماعى، والشخصية المصرية، والقومية العربية، والعقيدة والدين، والعامية، والفصحى، والثقافة، والأدب، والنقد، والسينما، والمسرح، والموسيقى، والغناء، والإذاعة، والتليفزيون، والصحافة، واليمين،

واليسار، والسياسة، والتعليم، والشباب، والمرأة، والحب، وغزو الفضاء، والصراع العربى الإسرائيلى. وجائزة نوبل، والحياة وغيرها.

فى الحضارة

فى أثناء دراسته فى فرنسا وخلال تأملاته اللاحقة اكتشف الدكتور طه حسين إجابة لسؤال طالما تردد فى ذهنه عن أسباب سيطرة الغرب على شعوب الشرق، ومنها الشعب المصرى، والإجابة قربته بطريقة ما إلى دائرة البحث فى الحضارة.

لقد لمس أن جوهر الحضارة الأوربية - تلك التى أدت إلى سيطرة الغرب على شعوب الشرق - يقوم أساسا على العلم المشاع لأكثر أفراد الشعب.

لذلك سعى بكل ما ملكت قواه إلى الدعوة لامتلاك أدوات الحضارة، وفى مقدمتها العلم المكتسب بالوسائل الحديثة والطرق الحديثة فى سبيل تدعيم الاستقلال الناشئ بعد معاهدة ١٩٣٦، حتى تكون مصر أهلا لهذا الاستقلال.

والدكتور طه حسين يرى أن الإنسان الشرقى بصفة عامة، والمصرى بصفة خاصة - أحق الناس بامتلاك أدوات الحضارة، ويقرر أن الحضارة الأوربية الحديثة ما قامت إلا بعد الانتفاع بحضارة الشرق حين ترجم الكثير من الكتب العربية، وكانت هذه الترجمات من المؤثرات الأساسية فى نهضة أوربا وحضارتها.

لقد تمت عملية الإخصاب بين الفكر العربى البالغ كمال تطوره وبين العقل الأوربى وهو بسبيل يقظته وتلمس طريقه فى البداية فى منطقتين: الأولى إسبانيا وبالتحديد فى مدينة "طليطلة"، والأخرى فى إيطاليا وخاصة فى جنوبها.

وما نقلته أوربا عن العرب كان له دور واسع عميق الأثر شمل العلوم كما شمل الصناعات، ولم يقتصر على الفلسفة والعلوم الطبيعية، وإنما امتد كذلك إلى الأدب، الشعر منه والقصة، وإلى الفن، الموسيقى منه والمعمار.

وهنا يقول الدكتور طه حسين: "إننا لا نغلو ولا نكثر ولا نفاخر بالباطل إذا قلنا: إن الغرب الأوروبى والأمريكى الآن على تفوقه إنما هو مدين بتفوقه كله وبعلمه كله لهذه الأصول الحضارية الخصبة الدائمة التى نقلها العرب إلى أوروبا فى القرون

الوسطى، ولا ينبغى مطلقا أن نتحرج من أن نطالب الأوروبيين - وقد طالبتهم كثيرا - بأن يردوا إلى الشرق بعض دينه عليهم، ولا يكونوا ملتوين بما عليهم من الدين، وأن يشعروا بأن للشرق العربى جميلا يجب أن يقدروه، وأن يشكروه لا أن يسرفوا فى العزة والإثم، ولا يبغوا على الذين أحسنوا إليهم وعلموهم كيف يكون الإحسان! وكيف تكون الحضارة؟".

وحين كثر الحديث عن العلاقة بين الحضارتين الشرقية والغربية انقسمت وجهات النظر إلى اتجاهات كثيرة، أهمها اثنان:

اتجاه يرى أن الحضارة الغربية قد أخذت تتداعى وهى فى طريقها إلى السقوط، وأن إنقاذها لن يكون إلا بتغذيتها من روحانية الشرق، حتى يتعادل فيها الجانب المادى والجانب المعنوى!

واتجاه يرى أن الشرق هو جسم المأساة وليس الغرب، وأن ما يجب أن يتم هو نقل عملية الغرب وماديته إلى جسد الشرق العليل، حتى يفيق من غفلته!

هنا لا يوافق الدكتور طه حسين على أن الشرق هو جسم المأساة، فكيف يكون كذلك وقد انتفع الغرب منه فى العصور الوسطى، كما أنه لا يوافق أيضا على أن الحضارة الغربية مهددة بالانهيار والسقوط، اللهم إلا أن تبيدها حرب ذرية!

ويرى أنه يمكن تحقيق التبادل الحضارى بين الغرب والشرق، فينتفع الشرق بحضارة الغرب فى الحاضر، كما انتفع الغرب بحضارة الشرق فى الماضى!

وينبه إلى أن بالحضارة الغربية عيوبا، ولكن هذه العيوب يجب ألا تمنعنا من الأخذ منها خشية أن يتسرب إلينا شىء من عيوبها! فقد أقبل أجدادنا من المسلمين الأوائل على الحضارة الإغريقية والحضارة الفارسية يأخذون منهما دون أن يخشوا تسرب شىء من عيوبهما إليهم، فلا خوف على مصر أن تفقد شخصيتها إن هى أخذت عن الغرب حضارته، لأن شخصيتها مستمدة من تاريخها ودينها ولغتها وتراثها!

وحين يحدثنا عن علاقة الحضارة بالحياة يرى أن الشعوب لا تعيش بالتهريج، ولا ترقى باللعب، ولا تنهض بأعباء الحياة وهى نائمة كاليقظ ويقظة كالنائمة! والحضارة

التى تلائم الحياة الحديثة شىء كامل لا يمكن أن يؤخذ بعضه ويترك بعضه الآخر، وإنما يؤخذ كله أو يترك كله: "فالذين يأخذونه كله هم الذين يحيون ويرقون ويفرضون أنفسهم على الزمان وعلى غيرهم من الناس، والذى يتركونه كله أو يأخذون بعضه ويتركون بعضه الآخر هم الذين يموتون أو يخملون أو يتعرضون للاستذلال والاستغلال، ويطيعون الناس أنفسهم ووطنهم ومرافقهم كلها!".

وعن علاقة الحضارة بالفنون يذهب الدكتور طه حسين إلى أن: "فى الحضارة الحديثة كثيرا من النقائص وكثيرا من الآثام، ولكن الشعوب الجديرة بهذا الاسم تجد فى إصلاح هذه النقائص وهذه الآثام - تنقية الحياة الإنسانية من كل شائبة تنقص من قدرها، فإذا دعونا إلى الأخذ بأسباب الحضارة الحديثة كاملة فنحن لا ندعو إلى الأخذ بما فيها من النقائص والآثام، ولم نسمع قط أن الفن الجميل نقص أو إثم، وإنما سمعنا دائما وعرفنا دائما أن الفن الجميل كمال ونقاء، فيه تزكية القلوب وترقية العقول وتصفية الأذواق!".

فى الفلسفة

اختيار الدكتور طه حسين لكل من فيلسوف المعرة "أبى العلاء المعرى" والفيلسوف الاجتماعى "عبد الرحمن بن خلدون" لرسالتى الدكتوراه فى الجامعة المصرية وجامعة السربون لا يخلو من دلالة، إذ كان كل من الاثنين لهما فكرهما الخاص الذى يضاف على البنيان الفلسفى بوجه عام.

فها هو ذا يتأمل فكر "أبو العلاء" حين يسجل آراءه فى مصير النفس ومتاعب الحياة، فى السعادة والشقاء، فى اللذة والألم، فى الموت والبعث، فى الشك واليقين، فى الإيمان بالعقل الذى قاده إلى شتى المعضلات الفلسفية، تلك التى زادته حيرة وشكا، ولم تهده إلى نتيجة يطمئن إليها ضميره!

وها هو ذا يتأمل فكر ابن خلدون وآراءه وفلسفته ونظراته فى الحياة كعالم يدرس نظرية عالم آخر يناقشها وينقدها، دون أن يمنعه إعجابه بعبقريته من أن يكون

موضوعيا فى الحكم عليه، فهو يعرض لآراء ابن خلدون وفلسفته ويناقشها بتؤدة حينا وبصراحة حينا آخر..

ويستخلص الفكرة التى تبدو صحيحة فى ضوء مختلف المذاهب الفلسفية والقيم الأخلاقية.

كذلك فإن اختيار الدكتور طه حسين للمنهج الديكارتى فى الدراسة والبحث له أكثر من دلالة أيضا، فهذا المنهج - كما يقول صنعه صاحبه ديكارت - له قواعد مؤكدة تعصم ذهن الباحث من الوقوع فى الخطأ وتمكنه من بلوغ اليقين فى جميع ما يستطيع معرفته دون أن يستنفد قواه فى جهود شائعة!

وبالتأكيد فإن هذا المنهج يتمشى مع روح الدكتور طه حسين ونظرته إلى الأشياء، هذا إلى جانب إعجابه الشديد ببدايات ديكارت نفسه حين مثل بدوره تجسيدا حيا لقيم النهضة الفكرية الأوروبية، ومن هذه الزاوية يمكن التقريب بين الاثنين.

ويتضح ذلك مثلا فى ثورة كل من الاثنين على التعليم: ديكارت كان لا يخفى سخطه على التعليم السائد فى عصره سخطا وصل به إلى حد الثورة! كذلك نجد الدكتور طه حسين تمرد على العلم والتعليم منذ صباه المبكر حتى شيخوخته! لقد كان فى ثورته على التعليم شبيها كل الشبه بديكارت الذى تلقى علوم العصور الوسطى على يد أفضل معلميها، ولكن سرعان ما تمرد على أسلوبهم فى التلقين المباشر والحفظ الحرفى لآراء غيرهم، والتعاليم المشوهة التى لا يقوم عليها دليل!

كذلك هناك شبه آخر يجمع الاثنين - الدكتور طه حسين وديكارت - فى أن كلا من الاثنين كان يحارب جهالة العصور الوسطى متمثلة فى المتزمتين والمتعصبين، وهذا الاتجاه بعينه هو الذى تبدأ به الحياة الفكرية القائمة على العقل لدى أى قطب من أقطاب النهضة الفكرية فى أى مجتمع من المجتمعات.

والدكتور طه حسين فى كتاباته يؤكد أنه يجد متعة كبيرة فى قراءة أفلاطون

وأرسطو والتفتازانى وديكارت وسبنسر وبرجسون، وكذلك فى قراءة جيته وشيلر وهايني، أما كانط وهيجل ومعظم الفلاسفة فلا يستسيغهم.

وتأملات الدكتور طه حسين دون قراءاته. فها هو ذا يعرف الفيلسوف بأنه: "الإنسان الذى درس دراسة علمية عميقة العلوم الطبيعية واللاهوتية والأخلاقية، وطبقها على حياته العملية وسلوكه الشخصى بحيث لا يكون هناك تناقض بين هذه العلوم وما يصدر عنه من أفعال".

وواضح أن مثل هذا التعريف الذى أورده فى كتابه "تجديد ذكرى أبى العلاء" – إنما هو تعريف للحكيم لا للفيلسوف، وكلنا يعرف الفرق بين الفيلسوف والحكيم، لكنه على أى حال نوع من التأمل الفلسفى الذى ينسب إليه وليس لغيره.

ونقطة الانطلاق فى فلسفة الدكتور طه حسين هى الإيمان "بالحتمية التاريخية"، فكل ظاهرة سواء أكانت مادية أم أخلاقية يمكن ردها إلى قوى اجتماعية أو كونية.

ويرى أن التطور من طبيعة الأشياء، وقد لا ندرك هذا التطور فى حينه، وقد نكرهه، ونحاول مقاومته، ولكنه يستمر فى تقدمه كالجيش المنتصر، وهو نتيجة للصراع الدائم بين الخير والشر.

وإذا كان الدكتور طه حسين قد أكد أن التطور من طبيعة الأشياء فإنه لا يبين لنا كنه القوة الكامنة وراء هذا التطور وخاصة أن غرائز الإنسان تدفعه إلى الشر. والعقل هو النور الذى ينير الظُلمة، ولهذا كان يجب أن يكون العقل المرشد الوحيد للإنسان فى حياته، فمهما يكن الضوء ضعيفا والظلمة كثيفة فعلى العقل ألا يتخلى عن القيام بمسئولياته فى التنوير.

ينتج عن هذا أن تاريخ التقدم الإنسانى هو تاريخ "الدور" الذى قام به العقل فى الحياة الإنسانية، وقد استعرض فى كتابه "قادة الفكر" تطور العقل الإنسانى فى أربعة أدوار أو مراحل أو عصور هى: "عصر الشعر" و"عصر الفلسفة" و"عصر السياسة" و"عصر الشرق".

وعن سؤال "هل عندنا فلسفة تميزنا عن غيرنا"؟ - يجيب الدكتور طه حسين قائلا:

"إذا كانت الاتجاهات الفلسفية فى مصر تستوعبها الوجودية والوضعية المنطقية والجوانية والبراجماتية - فإننى أستطيع الإشارة ولو من بعيد إلى كل فلسفة من هذه الفلسفات وعلاقتها بنا:

فالوجودية مثلا فلسفة غربية نشأت فى ألمانيا واستوردها سارتر إلى فرنسا، ثم نقلها إلينا الدكتور عبد الرحمن بدوى حين وضع رسالته فى الدكتوراه عن الزمان الوجودى... ثم علمها لتلاميذه فى قسم الفلسفة بجامعة عين شمس، وعلى هذا فليست الوجودية مصرية، وإنما هى مأخوذة عن وجودية الغرب.

وأما عن الوضعية المنطقية فهى خليط بين الوضعية والمنطقية وما أرى أنها توطنت بعد فى مصر.. على الرغم من اجتهادات الدكتور زكى نجيب محمود.

والجوانية للدكتور عثمان أمين.. فلا أرى أنها تقوم على أساس فلسفى دقيق، وقد بادرت بإعلان هذه الرأى غداة صدور كتاب "الجوانية أصول عقيدة وفلسفة ثورة".

بقيت البراجماتية التى يمثلها الدكتور فتحى الشنيطى، فهى كانت اتجاها لبيرس ووليم جيمس، ولهذا فهى ليست مصرية ولن تكون مصرية فى يوم من الأيام.

ولهذا يمكن القول بأن فلسفتنا يمكن اعتبارها تأويلات وتفسيرات للفلسفات العالمية".

ويرى الدكتور طه حسين أن معظم أساتذة الفلسفة فى مصر يعتمدون فى تأملاتهم وتحليلاتهم الفلسفية على المنهج الديكارتى من حيث هو أصل من أصول البحث العلمى الدقيق.

فى التفكير الاجتماعى

تتفق آراء كثيرة على أن الدكتور طه حسين ليس أساسا بالشاعر، على الرغم من أن له الكثير من القصائد الشعرية، وأنه ليس أساسا بالأديب بالمعنى الحرفى لهذه

الكلمة على الرغم من دراساته وكتاباته وتجديده فى ميدان الأدب، وهو ليس أساسا بالفيلسوف التجريدى الباحث عن العلاقات المطلقة بين الأشياء. على الرغم من أن له إسهامات مشكورة فى هذا الميدان، وإنما هو فى جوهره مفكر اجتماعى بكل ما تعنى هذه الكلمة من معان ودلالات، وقيمته تحددت من كونه مفكرا له مواقفه الكثيرة مذ أن كان طالبا بالأزهر حتى تخرج فى الجامعة، وسافر مبعوثا منها ليعود إليها أستاذا فعميدا فوزيرا.

بل إن كتابات الدكتور طه حسين الأدبية والتاريخية والفنية والتربوية، إنما هى فى جوهرها فكر فى موقف، ورأى فى تطبيق.. وتلك سمة من سمات المفكر الاجتماعى.

إن عبارة واحدة من عبارات كتابه "المعذبون فى الأرض" الذى صدر قبل الثورة واتهم بسببه باتجاه سياسى معين - لتؤكد من قريب أو حتى من بعيد هويته هذه كمفكر اجتماعى، فهو يقول مثلا: "إنى راضٍ عن حياتنا التى نحياها كل الرضا. مطمئن إليها كل الاطمئنان، معجب بها كل الإعجاب. لا أريد أن أغيّر قليلا ولا كثيرًا ولا أحب أن يتغير منها قليل أو كثير. وأول هذا الحديث يدل - فيما أظن - دلالة واضحة على أنى من المحافظين المتشددين فى المحافظة، ومن أصحاب اليمين الذين لا يضيقون بأحد كما يضيقون بأصحاب الشمال!".

ولا شك أن هذه العبارة وغيرها من العبارات الساخنة فى كتابه "المعذبون فى الأرض" كانت قناعا يخفى وراءه آراءه السياسية فيما كان يحدث قبل الثورة فى مجتمعه، هى بمثابة الساتر الذى يحتمى خلفه من أعين الرقباء! ولكن على الرغم من أنه كان حذرا فيما يقول، فإن هذه الأعين أدركت ما وراء ما يقول وما يبشر به من فكر ثورى، ولذلك صادرت الكتاب واتهمت صاحبه بالشيوعية!

وحتى فى كتبه الإسلامية يتضح لنا هذا الاتجاه الاجتماعى فى تفكيره. استمع إليه مثلا فى كتابه "على هامش السيرة"، حيث يقول: "القديم لا ينبغى أن يهجر لأنه قديم، والجديد لا ينبغى أن يطلب لأنه جديد.. وإنما يهجر القديم إذا برئ من النفع وخلا من الفائدة.. فإذا كان نافعا مفيدا فليس الناس أقل حاجة إليه منهم إلى الجديد".

هذه العبارة التى أدلى بها فى صفحات كتابه "على هامش السيرة" يجعل فيها النفع أساسا للحكم على القيمة، وهو حكم يربط بين الفكر والواقع. بين الفعل والعمل.

والدكتور طه حسين فى عرضه للقضايا الاجتماعية الكبرى يتجلى موقفه كمفكر اجتماعى من الطراز الأول:

مثلا حين يحدثنا عن الحرية يؤكد أنها "جوهر الفن والفكر والعلم والأدب والحياة جميعها، ويقرر أن الفن أثر من آثار الأحرار لا من آثار العبيد، ولذلك يدعو بإخلاص إلى تحرير الشباب من العوز حتى يتوافر لديه إمكان الإبداع حيث يقول: حرر الشباب من البؤس والجوع وهمّ التفكير فيما يقيم الأود، وحررهم من الجهل، وأتاح لهم علما وأدبا وثقافة".

فالحرية إذن عند الدكتور طه حسين هى الخبز، وهى الهواء والنور والجمال، إنها ليست غاية فى حد ذاتها، بل وهى وسيلة إلى أغراض أرقى منها وأبقى وأشمل فائدة وأعم نفعا.

وحين يحدثنا عن التعليم فى كتابه "مستقبل الثقافة فى مصر" وغيره من الكتابات نراه يربطه بكل تقدم للحياة الاجتماعية فى مصر: فإذا أردنا الاستقلال فوسيلتنا التعليم، وإذا أردنا الحرية فلنلجأ إلى التعليم، وإذا أردنا الكسب المادى فلنستعين بالتعليم، وإذا أردنا الحياة نفسها فلابد لنا من واحدة لا أخرى لها وهى التعليم.

بل يربط الديمقراطية التى لا يحبها محافظة أو معتدلة بالتعليم حين يقول: "لن تستطيع الديمقراطية أن تكفل للناس حياة ولا حرية ولا سلما إلا إذا كفلت لهم تعليما يتيح لهم الحياة، ويبيح لهم الحرية. ويمكنهم من السلم".

وحتى فى حديثه عن الثورة نراه من خلال بصيرة مفكر اجتماعى، أنه يبشر الشعب بمستقبل (ثورة ٢٣ يوليو)، ولم يكن قد مضى عليها أكثر من ستة أشهر، فيؤكد أنه سيكون للثورة المصرية أثرها فى تطور الحياة العقلية ليس فى ذلك شك.. وبعد أن مضى وقت كاف تصل فيه الثورة إلى غايتها، ويشعر فيه

الشعب بحقائق هذه الغايات وتتأثر بها حياته تأثرا صادقا - يضرب لذلك مثلا حيث يقول:

"لقد قررت الثورة تحديد الملكية، وسيتبع هذا القرار توزيع جديد للأرض الزراعية على المصريين، فيجب أن يتم هذا التوزيع وأن يحس الفقير لذة الملك ولذة العمل فى الأرض التى يملكها هو، ويحس ابنه شيئا من لين الحياة لم يكن مألوفا من قبل، ويومئذ يشيع فى النفوس شعور جديد يكون له أثره فى أعمال الناس وآمالهم وتفكيرهم"!

ويحدد أهداف الثورة الإصلاحية من خلال نظرته المستقبلية فيقول: "وما أشك فى أن ثورتنا القائمة ثورة أصيلة لا يكفيها أن تسقط حكومة وينفى ملك، وإنما سقوط الحكومة ونفى الملك عندها وسيلة لإصلاح أعمق وأكمل وأشمل من هذه الأحداث الخطيرة الظاهرة التى يتحدث عنها الناس فى أقطار الأرض، والتى سيتحدث عنها التاريخ فيحسن الحديث"!

فى الشخصية المصرية

وللدكتور طه حسين آراء فى مكونات الشخصية المصرية كان قد سجلها، إما فى كتابه "مستقبل الثقافة فى مصر"، أو كتبها فى أبحاثه ودراسته وأحاديثه المتناثرة لصاحب هذه الصفحات:

فهو يرى أن العقل المصرى قد تأثر بحضارة الشرق، كما تأثر بحضارة الغرب، حيث يقول:

"إذا كان العقل المصرى قد اتصل بأقطار الشرق القريب اتصالا منظما ومؤثرا فى حياته متأثرا بها - فإنه اتصل أيضا من جهة أخرى بالعقل اليونانى منذ عصوره الأولى اتصالا وثيقا من تعاون وتوافق مستمر منظم للمنافع فى الفن والسياسة والاقتصاد".

بل يرى أكثر من ذلك حيث يقول: "إن العقل المصرى منذ عصوره الأولى عقلى إن تأثر بشىء فإنما يتأثر بالبحر الأبيض المتوسط، وإن تبادل المنافع على اختلافها فإنما يتبادلها شعوب البحر الأبيض المتوسط".

وعلى هذا فإنه يمكن التماس المؤثر الأساسى فى تكوين العقل المصرى من الأمم التى

عاشت حول البحر الأبيض المتوسط، وليس من أمم الشرق الأقصى كاليابان والهند والصين.. إن الدكتور طه حسين يوضح ذلك قائلا: "العقل المصرى القديم ليس عقلا شرقيا إذا فهم من الشرق الصين واليابان والهند وما يتصل بها من الأقطار، وقد نشأ هذا العقل المصرى فى مصر متأثرا بالظروف الطبيعية والإنسانية التى أحاطت بمصر، وعملت فى تكوينها، ثم نما وربا وأثّر فى غير الشعب المصرى من الشعوب المجاورة، وتأثر بها، وكان من أشد الشعوب تأثرا بهذا العقل المصرى أولا وتأثرا فيه بعد ذلك العقل اليونانى".

ويرى الدكتور طه حسين أننا إذا بحثنا عن أسرة ينضم تحت لوائها العقل، فلن تكون أسرة أفضل من الأسرة التى عاشت حول البحر الأبيض المتوسط (الروم)، وإذا كانت هذه الأسرة التى تعيش حول البحر الأبيض المتوسط فى حاجةإلى كبير لهذه الأسرة، فإن طه حسين يذهب إلى أن العقل المصرى هو المقصود: "وقد كان العقل المصرى أكبر العقول التى نشأت فى هذه الرقعة من الأرض سنا وأبلغها أثرا"!

لكن هل ذابت الشخصية المصرية بفعل اتصالها بأسرة البحر الأبيض المتوسط يجيب الدكتور طه حسين حيث يقول: "كانت مصر أسبق الدول الإسلامية إلى استرجاع شخصيتها القديمة التى لم تنسها فى يوم من الأيام، فالتاريخ يحدثنا بأنها قاومت الفرس أشد المقاومة، وبأنها لم تطمئن إلى المقدونيين حتى فنوا فيها، وأصبحوا من أبنائها واتخذوا تقاليدها وسننها لهم تقاليد وسننا"!

"والتاريخ يحدثنا بأن مصر قد خضعت لسلطات الإمبراطورية الرومانية الغربية والشرقية على كره مستمر ومقاومة متصلة، فاضطر القياصرة إلى أخذها بالعنف وإخضاعها للحكم العرفى".

"والتاريخ يحدثنا كذلك بأن رضا مصر عن السلطان العربى بعد الفتح لم يبرأ من السخط، ولم يخلص من المقاومة والثورة، وبأنها لم تهدأ إلا حين أخذت تسترد شخصيتها المستقلة فى ظل ابن طولون، وفى ظل الدول المختلفة التى قامت بعده".

ويؤكد الدكتور طه حسين عملية استقلال العقل المصرى والعقل اليونانى فى رأى

الدكتور طه حسين إلى الحد الذى جعل مدينة الإسكندرية لم تكن مدينة شرقية بالمعنى الذى يفهم الآن من هذه الكلمة، وإنما كانت مدينة يونانية بأدق معانى هذه الكلمة وأصدقها وأجلاها.

ولهذا فإن الدكتور طه حسين يقرر أنه لا ينبغى أن يفهم المصرى أن بينه وبين الأوربى فرقا عقليا قويا أو ضعيفا، ولا ينبغى أن يفهم أن الشرق الذى ذكره كيبلنج فى بيته المشهور "الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا" يصدق عليه أو على مصرا

كما يقرر أن مصر ثبتت لغارة الترك وحملت فيها الحضارة والعقل والتراث الإسلامى، وحفظت كل ذلك كنزا مدخرا حتى إذا أتيحت الفرصة أخذت ترد هذا الكنـــز إلى الشرق والغرب جميعا.. ولذلك فإنه يمكن القول بأن مصر حمت العقل الإنسانى مرتين: حمته حين آوت فلسفة اليونان وحضارته أكثر من عشرة قرون، وحمته حين آوت الحضارة الإسلامية وحمتها إلى هذا العصر الحديث.

والسبيل إلى نهضة الشخصية المصرية فى رأى الدكتور طه حسين هو أن نسير سيرة الأوروبيين، ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا، ولنكون لهم شركاء فى الحضارة خيرها وشرها، وخاصة أننا التزمنا أمام أوروبا أن نذهب مذهبها فى الحكم، ونسير سيرتها فى الإدارة، ونسلك طريقها فى التشريع.. وهل كان إمضاء معاهدة الاستقلال عام ١٩٣٦، ومعاهدة إلغاء الامتيازات - إلا التزاما صريحا قاطعا أمام العالم المتحضر بأننا سنسير سيرة الأوروبيين؟

هذه ملامح الشخصية المصرية وقسماتها كما رآها الدكتور طه حسين فى أحاديثه لكاتب هذه السطور.

فى القومية العربية

الحديث الذى أدلى به طه حسين حول الشخصية المصرية شبيه بحديثه عن القومية العربية، حيث تغير هذا الرأى الذى كتبه فى جريدة كوكب الشرق، والذى كان من جملة ما جاء فيه: "إن المصريين قد خضعوا لضروب من البغض وألوان من العدوان جاءتهم من الفرس واليونان، وجاءتهم من العرب والترك والفرنسيين"!

لقد هبت العاصفة بعد هذه العبارة واستمرت أكثر من ثلاثة أشهر، ووجدت الصحف فى مصر والبلاد العربية مادة خصبة واشترك فى هذه المعركة عدد كبير من الكتّاب والمفكرين والسياسيين، فى مقدمتهم عبد القادر حمزة والدكتور محمد كامل حسين وسلامة موسى والدكتور زكى مبارك وعلى الجندى وغيرهم. وأعلنت بعض الجمعيات الأدبية والثقافية المنتشرة فى البلاد العربية مقاطعة كتب الدكتور طه حسين لما فيها على حد تعبيرهم وقتئذٍ من روح الإكراه للوحدة والدعوة إلى التجزئة فى الوطن العربى.

فى الكتابات الأخيرة للدكتور طه حسين حاول قاصدا أن يعدل هذا الموقف من القومية العربية، وكثيرا ما قرأنا له أحاديث صحفية، أو سمعنا له أحاديث إذاعية تضمنت دفاعا مجيدا عن القومية العربية وعن الحضارة العربية بشكل عام، ومن هذه الكتابات ينبهنا إلى أن: "القومية العربية ليست طريقا مبهما غامضا، وإنما هى حقيقة ثابتة لها مقوماتها التى تتألف منها".

بل يوجه دعوة حارة إلى المفكرين والمثقفين والأدباء والفنانين لكى يعملوا على غرس روح القومية العربية فى النفوس، حيث يقول:

"وليس بد للذين يقومون على حماية هذا المثل الأعلى لهذه الجماعة التى نسميها الأمة العربية - ليس بد من الذين يقومون على حماية هذه القومية العربية من الضياع وهم رجال الفكر والثقافة والفن - ليس بد لهم عن أن يبينوا للشعب مقوماتها، ويبينوا لهم أن فى هذه القومية أشياء تصاحبهم فى كل لحظة من لحظات حياتهم، وتصاحبهم حيث يخلوا أحدهم إلى نفسه، وتصاحبهم حين يلقى بعضهم بعضا، تصاحبهم فى كل لحظات حياتهم وتصاحبهم أيقاظا ورقودا أيضا وهم حتى حين تمر بهم أحلام النوم إنما تمر بهم، فيشعرون بها مع شعورهم بأنفسهم على أنهم من أبناء العروبة".

ويرى الدكتور طه حسين أن من أبرز مقومات القومية العربية - الدين الذى جعل من الأمة العربية وحدة يتم بعضها بعضا، وأزال ما بين القبائل العربية القديمة من الفرقة، ومحا ما كان بين بعضها وبعض من الخصومات وجعلهم إخوانا بعد أن

كانوا أعداءً، وحذرهم من الفرقة والخصومة مستشهدا بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾[1].

ثم يقول: "على هذا الدين.. يلتقى هؤلاء الذين نسميهم الأمة العربية، ثم يلتقون بعد هذا فى كل ما ينشأ عن هذا التوحيد من الأخلاق ومن المثل العليا ومن الطاعة لله والتفكير فى عاقبة هذه الحياة ومن إيثار العدل العام، الذى يقوم على المساواة بين الناس جميعا فى الحقوق والواجبات، ومن بغض للظلم والجور، ومن إيثار للمحبة".

هكذا يتحدث الدكتور طه حسين عن القومية العربية، وهكذا كان يؤمن بها، ويرى من تحققها حل كل الأزمات والمشكلات التى تواجه العالم العربى، وفى مقدمة هذه الأزمات والمشاكل الوجود الإسرائيلى داخل أراضيه.

فى الفصحى والعامية

فى أحاديثه عن اللغة العربية - كان الدكتور طه حسين يحذر من خطر اللهجات العامية على اللغة العربية الفصحى، ويرى أنه لا ينبغى تشجيع الكتابة باللهجات العامية، فيمعن كل قطر فى لهجته، وتمعن هذه اللهجات فى التباعد والتنافر بين أقطار الوطن العربى الكبير، ويأتى يوم يحتاج فيه المصرى إلى من يترجم إلى لهجته كتب السوريين واللبنانيين والعراقيين، ويحتاج أهل سوريا ولبنان والعراق إلى مثل ما يحتاج إليه المصريون! كما يترجم الفرنسيون عن الإيطاليين والإسبانيين!

ويتساءل الدكتور طه حسين مستنكرا هذه اللهجات العامية: "أيهما خير؟ أن يكون للعالم العربى كله لغة واحدة هى الفصحى يفهمها أهل مراكش كما يفهمها أهل بغداد، أو أن تكون له لغات ولهجات بعدد الأقطار التى يتألف منها"؟ويرى الدكتور طه حسين أن وحدة اللغة فى الأقطار العربية يتبعها ولا شك وحدة الفكر، ولهذا يناشد كل من يؤمن بالوحدةالعربية وبالقومية العربية أن يجاهد فى سبيل وحدة اللغة العربية، وأن يضحى بكل ما يملك.

(١) آل عمران/ ١٠٣.

ويفند الدكتور طه حسين مزاعم البعض حين يعقدون موازنة بين اللاتينية والعربية الفصحى معلنين أن مصير العربية الفصحى هو مصير اللاتينية نفسها. وهو الموت فيقول: "إن اللاتينية لم تمت فجأة، و لم تمت إلا لأن الشباب من أبنائها قضوا عليها بالموت! وقد تعرضت الفصحى لخطوب كثيرة انتصرت عليها، وظلت حية قوية متطورة، وظلت اللهجات العامية ضعيفة لا تصلح للأداء الأدبي قليلا أو كثيرا. وليس يكفى أن نقرر أن لغة من اللغات ماتت لتموت، وخير من هذا العبث أن نحل مشكلات الفصحى وهى : أولا الكتابة العربية، وثانيا النحو العربي".

وقال الدكتور طه حسين موضحا وجهة نظره: "إن إصلاح الكتابة وتيسير النحو العربي كفيلان بإراحة الجيل الناشئ من هذا العناء الثقيل الذى أدى به إلى أن يجمع كتاب الشباب بين الجمال والقبح والجودة والرداءة فى وقت واحد، وإلى الشكوى من صعوبة الفصحى وإلى المطالبة بالالتجاء إلى العاميات وليذكروا أن العالم العربي وكثيرا من العالم الشرقى يفهم الفصحى ويتخذهاوسيلة للتعبير عن ذات نفسه".

ويبلغ إيمان الدكتور طه حسين باللغة الفصحى أنه قال ذات يوم:

"إنه لا أدب إلا أدب الفصحى! والذين يستخدمون العامية ليسوا واقعيين، وإنما هم عاجزون". وهنا سئل: أى اللغتين يحتاج إليها الشعب فى مخاطبته: الفصحى أم العامية؟ فأجاب على الفور: "من الإهانة للشعب أن تحدثه إلا باللهجة العامية، وأنا لا أحظر على أحد أن يكتب بالعامية كما يتكلم بها، ولكنى لا أرى أن ما يكتبه أدبا، وإنما هو كلام دارج.. ولن يزيد على ذلك".

ويؤكد الدكتور طه حسين اعتراضه هذا حيث يضيف: "الشعب يسمع القرآن، ويعجب بما يسمع ويفهمه حق الفهم: فهل القرآن مكتوب بالعامية؟..

هناك أدباء أو بعبارة أدق قصاصون يكتبون قصصا بالعربية، فيظلمون العربية حين يكتبون الحوار بالعامية! وإذا سألتهم عن ذلك يقولون: إنه تصوير للواقع ثم يشفعون قولهم بتبرير سخيف هو أن العامة لا يتكلمون الفصحى، مع أن الأولى بهؤلاء الأدباء

والكتّاب أن يجعلوا شخصياهم - حتى لو كانت من العامة - يتكلمون العربية، فماذا يمنع أن تنقل لغة بلغتنا العربية الفصحى؟".

وعن كون العامية أكثر ثراء فى الألفاظ من الفصحى، وأنها من حيث الحوار أكثر مرونة ووضوحا يرد الدكتور طه حسين محتدا:

"هذا سخف وادعاء غير صحيحين"!

وعن ضمان خلود اللغة الفصحى وبقائها يرى الدكتور طه حسين أنها باقية ما بقى القرآن، حيث قال سبحانه وتعالى فى سورة الحجر: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[1]. ويوضح وجهة نظره هذه بالقول بأنه ليس فى التراث الإنسانى كله ما يشبه القرآن الكريم فى تقويم الألسنة العربية. حين تلتوى باللهجات العامية المختلفة، فالذين يحفظون القرآن فى الصبا، ويكثرون قراءته وتجويده فى الكبر - أصح الناس نطقا بالعربية، وأقلهم تخليطا فيها، ومن أجل ذلك كانت الأجيال السابقة إلى عهد قريب تأخذ الصبية حين يتعلمون القراءة والكتابة بحفظ القرآن كله أو بعضه. والقرآن بعد ذلك كله هو الذى حفظ اللغة العربية من أن تذوب فى اللغات الأجنبية التى تغلبت على اللغة العربية بحكم السياسة وفى عصور كثيرة وظروف مختلفة.

ويقول:

"والقرآن عصم هذه اللغة من الضياع، وحال بين الخطوب الجسام وبين التأثير فيها".

فى الثقافة

ماذا يعنى الدكتور طه حسين بكلمة الثقافة؟ إنه يقصد بها عملية البناء والتنمية عن طريق التعليم والتربية وتنقية الطبيعة الأخلاقية والعقلية، كذلك ترقية الذوق وتنقيته عن طريق التدريب العقلى والجمالى وصقل الفكر والسلوك، ثم البراعة فى الفنون الجميلة والإنسانيات والجوانب العامة من العلم بعيدا عن المهارة المهنية.

---

(١) الآية ٩.

هذا ما يمكن استخلاصه من صفحات كتب وأحاديث للدكتور طه حسين لكن ما أصول الثقافة المصرية وجذورها؟ وما القيم الثقافية؟ وما الأمل فى الثقافة المصرية؟

يرى الدكتور طه حسين أنه إذا كانت ثقافةمصر شرقية فى أصولها، فإنها تمصرت فى وقت مبكر من التاريخ، وأصبحت وكأنها مصرية المنبت والمنشأ، فقد ضربت جذورها فى التربة المصرية منذ القرن الأول للهجرة وأتت أكلها فى أخريات القرن الثانى للهجرة، وأصبحت الفسطاط كالبصرة والكوفة واحدة من المراكز الثقافية فى‌الامبراطورية الإسلامية، وتكاد تنافس بغداد فى كل ضروب المعرفة.

ويصف لنا الدكتور طه حسين البيئة المصرية فى القرن الرابع الهجرى فيقول: "و لم تكن البيئة المصرية أقل من البيئة الحلبية خصبا ولا نشاطا ولا ثروة من العلم والفلسفة والأدب حين وفد المتنبى عن الفسطاط، بل قد يكون من الخطأ أن نسوى بين البيئتين فى ذلك، فقد كانت البيئة المصرية قديمة العهد بالحياة العقلية على اختلاف ألوانها أقدم عهدا بها من دار الخلافة نفسها. والناس جميعا يعلمون أن علوم الدين وفنون الأدب ازدهرت فى الفسطاط قبل وجود بغداد"!

ازدهرت فيها منذ أواخر القرن الأول للهجرة ثم سلكت سبيلها إلى الرقى هادئة مطمئنة طوال القرنين الثانى والثالث. لم تضعف و لم يدركها الخمود، وربما كانت تقوى حتى تتجاوز المألوف من النشاط أحيانا فى بعض فروع العلم أو فى بعض فروع الفن كالذى كان حين وفد الشافعى على مصر، وأنشأ بها مدرسته فى آخر القرن الثانى وأول القرن الثالث، فقد كان لهذا الحادث أثر عظيم فى تنشيط الحياة الثقافية فى مصر.

وقد شرح الدكتور طه حسين ركائز التجديد الثقافى الذى يريده، فجعل هذا التجديد قائما على ثلاثة أركان: أولها احتذاء الغرب، وثانيها إحياء التراث العربى الإسلامى، وثالثها إحياء الشخصية المصرية. ويبدو أن الدكتور طه حسين يتأثر فى تشخيصه هذا بفاليرى الذى رأى أن الفكر الأوروبى حصيلة أركان ثلاثة أيضا: هى

الحضارة الإغريقية كما تبدو فى الأدب والفلسفة والفن، والحضارة الرومانية البادية فى السياسة والشرائع والتفانين، والديانة المسيحية التى تبدو فى المحبة والسلام.

وكان لابد أن تصطدم آراء طه حسين التجديدية فى الثقافة بالقديم وهو نفسه يبرر وجود الصراع بين الجديد والقديم، ويؤكد أنه دليل حيوية، ويظهر أن هذه الخصومة بين الجديد والقديم ستستمر أبدا فى كل لغة وفى كل جيل وحول كل أدب.

ومن هنا مثل الدكتور طه حسين فى شخصه وثقافته وفكره تجسيدا حيا لقيم النهضة الثقافية، بل استطاع أن ينقل الصراع بين القديم والجديد إلى مستوى أوسع وأرحب، وأن يجعله جزءا من التكوين الفكرى لعصر كامل.

ولقد استطاع الدكتور طه حسين ورفاقه أن يوجدوا لعصرهم قيما ثقافية تخالف تلك القيم السابقة، وتتفوق على القيم التالية لهم.

ويرجع الدكتور طه حسين هذا التفوق إلى أن الجيل التالى لجيله ينحرف بعضه عن الطريق المستقيم. فيخلط ويهذى، ويمضى بعضه فيحقق ما يريد من الأغراض، ومن ثم تخالف قيمه الثقافية قيم الجيل الماضى.

ويقرر أن الانحراف إنما هو فى اللغة والتفكير، ولكن على الرغم من هذا، فهناك من تمسك بقيم الجيل الماضى، فامتاز وتفوق وأصبح لديه خيال خصب استطاع به أن يكون متفردا، وعلى سبيل المثال الدكتور عبد الرحمن بدوى فى البحث الفلسفى، ونجيب محفوظ فى الفن الروائى، ورشدى صالح فى الحس النقدى.

ويشير إلى أزمة الثقافة فيصفها بأنها عنيفة مستحكمة، وأنه ليس من بد للقائمين على تعليم الشعب وتثقيفه وإعداده لتحمل أعباء الحياة الوطنية أولا وأعباء الحياة الإنسانية بعد ذلك - ليس لهم بد من أن يفكروا فى هذه الأزمة ليستطيعوا تهيئة الأجيال الناشئة لما ينبغى أن ينهضوا به من أثقال الحياة.

لكن على الرغم من كل ذلك فإيمان الدكتور طه حسين بالمثقفين لم ينته بعد، بل إنه يرى أن المثقفين قادرون حين تتفتح عقولهم - على قيادة المجتمع إذا تم لهم أخذ ما ورثوه من تراث أصيل مع ما يأتيهم من تيارات جديدة يفتحون لها النوافذ.

لقد كان أمل الدكتور طه حسين أن ينتقل المثقفون بقيادة المجتمع إلى الاندفاع وسط تيار الحياة بما يملكون من أسلحة أولها الجدل العقلى والحوار الهادئ.

فى الأدب

ميدان الأدب – قدم الدكتور طه حسين أسلوبا جديدا كانت بدايته مع كتابه الأول "ذكرى أبو العلاء المعرى" الذى قرر من صفحاته الأولى أنه لن يسلم بكل ما ذكره المؤرخون، وإنما سيرفض كثيرا من الروايات التى أحصوها عن غير تحقق أو تيقن، كما رفض على صفحات هذا الكتاب فكرة تقسيم تاريخ الأدب إلى عصور تماثل العصور السياسية.. فوق هذا كله فقد بين – على صفحات هذا الكتاب – الأدوات التى يجب أن تتوافر لدى مؤرخ الأدب حيث قال فى مقدمته:

".. وإذا الباحث عن تاريخ الآداب ليس عليه أن يتقن علوم اللغة وآدابها فحسب. بل لابد له أن يلم إلماما بعلوم الفلسفة والدين، ولابد أن يدرس التاريخ القديم والحديث وتقويم البلدان درسا مفصلا، وإذا الباحث عن تاريخ الآداب لا يكفيه من درس اللغة وما فى المخصص والمحكم وما فى التكملة والعباب، بل لابد له مع ذلك من أن يدرس أصول اللغة القديمة ومصادرها الأولى، وإذا الباحث عن تاريخ الآداب لابد له أن يدرس علم النفس للأفراد والجماعات إذا أراد يتقن الفهم لما ترك الكاتب أو الشاعر من الآثار، وإذا اللغة العربية وحدها لا تكفى أن يكون أديبا ومؤرخا للآداب حقا، إذ لابد له من درس الأدوات الحديثة فى أوروبا ودرس ومناهج البحث عند الفرنج بلغة ما كتبه الأساتذة الأوروبيون فى لغاتهم المختلفة عما للعرب من أدب وفلسفة ومن حضارة ودين".

وكانت الخطوة التالية من خطوات منهج الدكتور طه حسين فى الأدب تلك التى تجسدت فى أجزاء كتابه (حديث الأربعاء) الذى صدر بعد عودته من أوروبا، ففى هذا الكتاب نجد تأكيدا لما سبق أن اتجه إليه طه حسين فى كتابه الأول "فى ذكرى أبو العلاء" هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى نجد إضافة جديدة تتجسد فى جنوحه إلى الشك والثورة على تقديس القديم والتمرد على التبعية والميل إلى استقلال الشخصية.

والحق أن الإضافة التى يلمسها القارئ فى هذا الكتاب أو المتتبع لمسار منهج الدكتور طه حسين كانت نتيجة لقراءته الأدب والنقد فى أوروبا.

تطورت هذه الخطوة والتى قبلها إلى ما هو أوضح وأكثر تقدما فى كتابه الأشهر "فى الشعر الجاهلى"، فهو (أولا) أكد فكرة ارتباط الأدب بالمجتمع وتفاعله معه وفهمه من خلاله، وهو (ثانيا) نبه إلى فكرة حرية الباحث وتجرده وبالغ فى هذا التنبيه أمدًا عرّضه لكثير من المتاعب. وهو (ثالثا) قدم طرق الغرب وأساليبه فى دراسة الأدب، فصوّر ما ذهب إليه "سانت بوف" من ترتيب شخصيات الأدباء للأمة فى فصائل وأنواع على نحو ما يرتب علماء النبات الفصائل النباتية، ورسم فى دقة ما ذهب إليه "تين" من أن الأديب إنما هو ثمرة حتمية لقوانين الجنس والزمان والمكان، وأوضح كيف أن "برونتير" طبق على فنون الأدب وأنواعه نظرية "داروين" فى التطور والنشوء والارتقاء!

لكن هذه الخطوات كلها تؤدى إلى مقياس علمى هو ما يبعده عن طبيعة الدراسة الأدبية، وهنا خلص إلى مقياس سماه بالمقياس الأدبى، وهو يقف بتاريخه ودراساته بين العلم والفن بحيث لا يغرق مؤرخ الأدب فى العلم إغراقا من شأنه أن يصيب بحوثه الأدبية بالجفاف وبحيث لا يغرق فى الفن إغراقا من شأنه أن يفنى شخصيات الشعراء والكتاب فى شخصيته بل يتخذ طريقا وسطا بين العلم والفن، طريقا يتقن فيه علوم اللغة والصرف والنحو والحقائق الأدبية مع ما ينبغى له من الحس الدقيق المرهف والذوق المصفى بحيث تتجلى شخصيته فيما ينثر من أحكام وآراء وفيما يصور من مواطن الجمال الفنى فى الآثار الأدبية المختلفة.

وهنا يذهب الدكتور شوقى ضيف إلى أن الدكتور طه حسين وضع لنفسه ولمدرسته أصولا ينبغى أن تبدو عليها دراساتهم، وهى أصول ترد إلى جانبين:

جانب علمى يتصل بفحص النصوص الأدبية وتحقيقها واستنباط دلالاتها مع دقة التفسير والتعليل والتحليل ومعرفة الظروف التى أحاطت بها والمؤثرات المختلفة التى أثرت فى منشئيها، وبيان الصلات بينهم وبين محيطهم وبيئاتهم وعصورهم.

وجانب فنى يتصل بنقد النصوص وتصوير شخصيات أصحابها وما تحدث فى نفس قارئها من لذة، وهو الجانب الذى يحيل التاريخ الأدبى إلى عمل ممتع يلذ العقل والشعور، إذ نرى من خلاله خصائص المؤرخ الأدبى العقلية وملكاته وقدرته على طرافة العرض والتصوير.

ويرجع الدكتور طه حسين تدهور الأدب فى النصف الأخير من القرن العشرين إلى عدة عوامل منها:

أولا: الظروف السياسية وما تأتى به من فرض الرقابة على النشر، وقد استغرقت هذه الرقابة أكثر من خمسة عشر عاما فى أقل من ربع قرن، ورأيه فى هذا الصدد أن الحرية هى قوام الحياة الأدبية الخصبة فإذا ما ذهبت أجدب الأدب وعقم الفكر.

ثانيا: مشكلة النشر: فكثير من الشباب يكتبون، ولا يجدون قبولا من الناشرين،ولا تشجيعا من شيوخ الأدب!

ثالثا: ضعف التعليم الأدبى فى مصر: فالأدب يدرس فى المدارس والمعاهد والجامعات على نحو يحزن أكثر مما يسر، وإنتاج الأساتذة ضعيف والمتخرجون فى أقسام اللغة العربية بالجامعات لا يعرفون كيف يبحثون فى كتاب الأغانى؟ لأنهم لم يسمعوا بفهرس الأغانى الذى وضعه جويدى!

وفى صدد مقارنة أدبنا بالأدب اليونانى أشار الدكتور طه حسين إلى أن الأدب اليونانى القديم قائم بذاته، حى بنفسه، فى حين أن أدبنا العربى ظل متفاعلا مع الأمة العربية فى عصور كفاحها الطويل.

ولكى يكون الأديب ممتازا فى رأى الدكتور طه حسين لابد أن يقرأ، ويقرأ كثيرا فى التراث العربى من جهة.. والتراث اليونانى واللاتينى.

فى النقد

يذكر مؤرخو الأدب والنقد - أن الدكتور طه حسين عاصر عدة أجيال أدبية تفاعل بأربعة منها:

جيل سبقه وهو جيل شوقى وحافظ، وجيل رافقه وهو جيل العقاد والمازنى والدكتور هيكل، وجيلين بعده أحدهما جيل الرومانسية ويمثله "أحمد أبو شادى" وجماعة أبولو، وجيل الواقعية يمثله نجيب محفوظ. وقد تابع بالنقد هذه الأجيال الأربعة.

والسمة البارزة التى حكمت موقف الدكتور طه حسين النقدى إزاء هذه الأجيال المتعاقبة منذ البداية حتى النهاية هى أنه كان دائما يقف إلى جانب الجديد الذى يلائم العصر ويستجيب لمطالب الحياة.

وموهبة الدكتور طه حسين النقدية وإحساسه بالعمل الفنى بشكل لم يسبق له مثيل، إنما هما فى حقيقة الأمر يطرحان سؤالا: كيف استطاع هذا الناقد الذى درس النقد الأدبى أول ما درسه على يد الشيخ الأزهرى سيد بن على المرصفى الذى كان يسير فى النقد الأدبى فى القرن العشرين على الطريقة التى كان يسير عليهاالنقاد فى القرنين السابع والثامن أن يحدث تطويرا وتجديدا فى النقد الأدبى؟! ثم كيف استطاع بهذه السرعة الفائقة أن يدخل النقد الأدبى الغربى الحديث من بابه العريض ويدرس الأدب العربى على أساس نظريات "سانت بوف" و"إيبوليت تين" و"جول ليميتر"؟ وأخيرا كيف توهب له هذه الملكة النقدية دون أن يظفر بنصيب من المعرفة بالمذاهب الإيطالية والألمانية مثلا؟

إن الإجابة عن هذه التساؤلات وغيرها تقدم لنا الجانب النقدى الفذ من شخصية عميد الأدب العربى، والذى يمكن تحديد خطوطه العامة بهذه الحقائق التى استخلصها الدكتور عز الدين إسماعيل فى دراسته لهذا الجانب عند الدكتور طه حسين من خلال عرضه لنماذج من النقد عنده. وهذه الحقائق هى:

- إن للفن الحرية فى أن يحقق الجمال بالوسائل التى يراها.
- تجنب المباحث النظرية فى النقد وفى فلسفة الفن بعامة والاهتمام بالنقد الفعلى.
- ليست هناك صورة واحدة للجمال، بل تتعدد صوره وأشكاله فى البيئات المختلفة والعصور المختلفة، ومن ثم فإن معيار القيمة الفنية لا يمكن أن يكون ثابتا، فما

يكون محققا للمثل الأعلى الفنى فى عصر من العصور قد لا يكون بالضرورة محققا له بالقدر نفسه وبالطريقة نفسها فى غيره من العصور!

- لأبناء العصر الواحد فى البيئة الواحدة ذوق عام مشترك هو ما يمثل الطابع الموضوعى للذوق، ثم يختلف الأفراد بعد ذلك فى أذواقهم باختلاف بيئاتهم المحلية وثقافاتهم وميولهم الخاصة، وعن هذا ينشأ ما يسمى بالذوق الذاتى، ويختلف خط النقد من هذين الذوقين وإن كان لا يستغنى عن واحد منهما.

- الوقوف دائما إلى جانب الجديد الذى يلائم روح العصر وتشجيعه والدفاع عنه مع الاهتمام بالقديم من تراثنا القومى الذى يمكن أن تتبلور فى إطاره شخصيتنا العصرية.

- العمل الفنى لا يكفى فيه الاستعداد والعاطفة الجياشة والخيال الخصيب، بل لابد أن يجتمع إلى هذا كله العقل القوى والخبرة والتحصيل.

- الكمال اللفظى فى الأدب بحيث تكون لغته موائمة للحياة.

- إن عملية النقد تقوم على أساس من تمثيل الناقد للأبعاد النفسية والعقلية التى تصاحب الأثر الأدبى، ثم مدى استجابة نفس الناقد لهذه الأبعاد، ثم لأبعاد الأثر الأدبى المعنوية.

- إن القواعد المعروفة للفنون المختلفة لاينبغى لها أن تحد من حرية الأديب المبدع، ولا أن يكون سيفا يشرعه الناقد فى وجوه الأدباء.

بهذا المنهج استحدث الدكتور طه حسين شرعة جديدة للنقد الأدبى.

لكن إلى جانب النقد الأدبى استحدث الدكتور طه حسين النقد الاجتماعى حين قام بتجربة نقد المجتمع ككل فى جريدة السياسة وفى صحف أخرى.

وعن امتدادات هذا النقد الاجتماعى يذكر الدكتور طه حسين أنه لا يجد فيما يقرأ فى الصحف أو فيما يصل إليه من الكتب شيئا من هذا النقد الاجتماعى.

فإن كان هذا هو رأيه فيما وصل إليه النقد الاجتماعى، فما رأيه فيما وصل إليه النقد الأدبى؟

الدكتور طه حسين يقرر أنه ليست هنا حركة فى النقد الأدبى، وإنما هناك فتور وجمود وهو الفتور والجمود نفسه فى الحياة الأدبية بوجه عام! ويذكر أنه بعد وفاة الدكتور مندور سكت النقاد أو كادوا.

ثم يعود: ليقول: وإن كنت أرى قليلا من النقد بين الحين والحين فى صحفنا وعلى الأخص فى جريدة الأخبار فى باب تحت عنوان: "للنقد فقط" الذى يكتبه البارودى، ولكنه نقد غير خطير كالأشياء التى تنقد.

فى الفنون

للدكتور طه حسين آراء فى هذه الفنون: المسرح والسينما والموسيقى والغناء:

ففى المسرح يرى أن ما يكتبه كتّاب المسرح الجدد "كلام فارغ"! حتى توفيق الحكيم يذكره حين كتب مسرحية "الأيدى الناعمة" باللغة العربية الصحفية، ثم اتفق مع يوسف وهبى على تحويلها إلى اللغة العامية، فكانت النتيجة عملا تافها!

ويضرب طه حسين مثلا بأنه يمكن استخدام الفصحى فى المسرح، وبأن هذا يؤدى إلى النجاح فيقول:

"إن كتّاب المسرح يظلمون الجمهور حين يقولون عنه: إنه لا يفهم اللغة الفصحى، لقد ترجمت بالفصحى رواية فرنسية ومثلت على مسرح الأوبرا واستمرت وقتا و لم يكن بالمسرح مقعد خال، ونجحت نجاحا كاملا، وكان الجمهور يتفهم كل أعماق مواقفها".

ويستغرب من كيفية استخدام العامية فى المسرح حيث يقول:

"أنا لا أفهم كيف تستخدم العامية فى المسرح ثم بعد ذلك نقول عن العمل إنه عمل فنى صالح؟ لقد كان محمود تيمور من المتحمسين للعامية، وأذكر أنه دافع دفاعا حارا عنها فى مؤتمر حضرناه معا عام ١٩٣١ فى مدينة ليزن بهولندا، ولكنه عاد أخيرا

وتمسك باللغة العربية الفصحى، وله فى اجتماعات المجمع اللغوى مواقف متحمسة دفاعا عن عودته إلى الرأى السليم. ثم كيف تفهم شعوب البلاد العربية لهجتنا العامية فى مسرحية نقدمها لهم؟ هل يمكن أن يفهم العراقى أو التونسى أو المغربى لهجتنا العامية؟ ونحن أيضا لو شاهدنا رواية باللهجة التونسية العامية لاستعصى علينا فهمها تمامًا! إننى لا أزال أذكر لقائى مع المرحوم محمد الخامس ملك المغرب.. عندما قال لى: "إننا نشكر لكم موقفكم ديالكم"، ثم عرفت بعد ذلك أنها تحوير لحرف الجر.. وأصلها "ذولكم".

ويتضح موقف الدكتور طه حسين من العامية فى المسرح صراحة حيث يقول:

"المسرح قد تقدم تقدما فنيا إلا أن اللغة العامية بكل أسف تسوده. وأنا لا أقبل الاستماع إلى الروايات التى تمثل بالعامية.. فالمعركة بينها وبين الفصحى على المسرح معركة قديمة ولى منها موقف معروف، وهذا التخلف فى رأيى يعود إلى بعض الشبان الذين يكثرون من العامية بالقدر الذى يهدد اللغة الأم، كما أن الذين يؤلفون للمسرح أو فى السينما. ويخيل إلى أن هذا راجع إلى أن مستوى التعليم فى الجامعات قد هبط بوجه عام".

ويقول:

"ثم كيف أشاهد مسرحية لكاتب شاب (يقصد نعمان عاشور) قرأت له مقالا عنوانه: (لغة المسرح من تانى..) من تانى هذه جعلتنى لا أقرأ المقال".

وبالمناسبة مع احترامى وتقديرى لرشدى صالح ككاتب مثقف أحب أن أقرأ له.. لا أوافقه عندما وصفه بأنه النسخة الشعبية لتوفيق الحكيم.. إن (نعمان عاشور) نسخة من توفيق الحكيم، ولكن بغير ثقافة توفيق الحكيم!

* وفى السينما نجد للدكتور طه حسين آراء وتجارب وهو أمر يخالف المسرح الذى لم يكن له فيه تجارب، لقد كان يقول عنها: "على الرغم من أننى لا أحب الحديث طويلا عن السينما.. فإننى أستطيع القول بأن السينما جهاز تعليمى إلى جانب أنها جهاز تثقيفى، وهى كجهاز تثقيفى وتعليمى تمثل حاجة ملحة يستطيع المجتمع

عن طريقها تحقيق المعجزات، وخاصة فى الريف.. فعن طريق جهازها المتنقل يمكن ربط القرية بالمدينة والفلاح بعجلة الحضارة، ويمكن أيضا أن تسهم فى مشروعات كثيرة فى مقدمتها محو الأمية وتحديد النسل".

وعن تجربته فى السينما والتزام القائمين عليها بالنص الأصلى يقول الدكتور طه حسين: "دعاء الكروان لم يكن به بأس، ولكنهم أضافوا إلى الكتاب جزءا سامحهم الله عليه، وهو قتل المهندس، وهذا شيء غير موجود فى النص الأصلى، و لم أفكر فيه. فأفسدوا بذلك القصة.. لأن القصة نهايتها: المهندس يتزوج الفتاة. فبدلا من أن يكون هناك إمكان للزواج – صنعوا بدلا منه إمكانا للقتل، فيبدوا أن القتل أيسر عند رجال السينما من استمرار الحياة والحب والزواج!.

"وبالنسبة لظهور الإسلام.. لقد أفسدوه أيضا.. أرجو أن تتاح فرصة لمشاهده قراءة الكتاب الأصلى "الوعد الحق" حتى يكون بى رحيما.

"وحتى "الحب الضائع" لم يفكر واحد من القائمين على إخراجه أن يرينى ماذا يفعل بقصتى مع أن الذى يخرجها هو المخرج بركات وهو الذى أخرج من قبل "دعاء الكروان".

ويقرر الدكتور طه حسين بعد ذلك أن السينما جهاز لإفساد الأعمال الأدبية.. على الأقل فى حدود أعماله.

* وعن الموسيقى والغناء يقول الدكتور طه حسين: الموسيقى العربية كما هى الآن لا تستطيع أن تقدم شيئا، وإنى لآسف أشد الأسف لأننا أضعنا موسيقانا العربية الأصيلة جريا وراء اتجاهات الغرب فى الموسيقى.

وكانت النتيجة أننا لم نواكب الغربيين فى تقدمهم، و لم نحافظ على تراثنا العربى الأصيل!

ويرى أنه بعد الراحل الفنان سيد درويش ليس هناك فنان عربى واحد يستطيع القيام بإنتاج موسيقى تبشير بالخير أو تسموا بالمشاعر أو توجد الحياة، لهذا أجد نفسى مضطرا إلى مقاطعة أغانينا وموسيقانا.. اللهم إلا بعضا من مقطوعات أبى بكر خيرت.

وفى رأيه أن الموسيقى يمكنها هى والغناء أن يكونا رفيقى نضال للجماهير إذا عبرا بصدق عن آمال وآلام الجماهير التى تستمعهما.. لا أن يكونا سبيلا إلى إيقاظ الغرائز الحيوانية.. الموسيقى ينبغى أن تعبر عن أعظم وأنبل ما فى النفوس من قيم بأسلوب جاد ورفيع.

أما كيف يمكن لأى شعب أن يربى وجدانه الاجتماعى عن طريق الموسيقى والغناء فيؤكد أنه يمكن إذا كانت هذه الموسيقى حية وكلمات الأغنية أصيلة.. أو الاثنان تنبعان من البيئة لا بعيدة عنها.

لكن ما فائدة الموسيقى بوجه عام؟ يقول الدكتور طه حسين لتلميذه فى جنة الشوك: "أغسل بها نفسى من أوضار الحياة الاجتماعية!"

فى الإذاعة والتليفزيون

والإذاعة هى فى مقدمة أجهزة الاتصال بالجماهير تأثيرا وانتشارا وعن طريق جهازها الشعبى المتداول "الترانزستور" يمكن ربط المواطنين فى القرى والنجوع والكفور بما يحدث هناك فى القطب الشمالى أو على خط الاستواء أو فى أروقة الأمم المتحدة! فإذا كانت للإذاعة مثل هذه المكانة فى حياتنا فإن الدكتور طه حسين يقول عنها: "لا شك أن الإذاعة يتأثر بها المتعلم وغير المتعلم، وهذا من شأنه يضع على عاتقها مسئولية أكبر، لكن الحق أننى لا أداوم على سماعها حتى أعطى اقتراحات لتطويرها.. إلا أننى أستطيع القول بأنه إذا كان للإذاعة هذا الدور العظيم فى حياتنا، فإننى أتمنى لها أن تكون على هذا المستوى فترقى ببرامجها حتى ترقى بمستمعيها. وما دمت فى صدد الحديث عن الإذاعة فإننى أذكر بالخير بعضا من البرنامج الموسيقى وخاصة فيما يقدمه من الموسيقى الكلاسيك".

ويكفى تكريما للإذاعة كجهاز إعلامى أن عميد الأدب العربى قد خصها دون غيرها فى استكمال أجزاء رائعته (الأيام). وقد سئل وقتها لماذا فضلها على الكتاب أو الصحيفة؟ هل لأنها أسهل وأفعل؟

فكان رد الدكتور طه حسين: "سمحت بإذاعة (الأيام) لأن إذاعة الشعب طلبت مني ذلك ودفعوا لى عنه أجرا.. وليس من سبب آخر..".

وحول ما يذاع فى البرامج من ثقافة وأدب يرفض الدكتور طه حسين تسميته بالأدب الإذاعى، ويفضل بالنسبة لنا.. تسميته "بالإذاعة الأدبية" تختار من الآداب ما تذيعه. أما الأدب فهذا شيء آخر. إنه مما يكتب خصيصا للإذاعة، فيذاع ولا يصلح لأن يخرج فى صورة مكتوبة أو مشاهدة.. وهذا غير منتشر فى إذاعتنا على الأقل فى هذه الفترة".

وللدكتور طه حسين تجارب كثيرة فى متابعة برامج الإذاعة وتقويمها. منها تقديم مجموعة، منها التمثيليات الإذاعية لكبار الأدباء فى فرنسا جمعت وخرجت فى كتاب عنوانه: "صوت باريس". وهذا بدوره يطرح سؤالا: هل معنى ذلك أن هناك ما يسمى بالنقد الإذاعى؟ وإن وجد هذا اللون من النقد فهل له أسسه ومقاييسه التى تخالف النقد العام".

ويرى أن ما كتبه من فصول تحت عنوان: "صوت باريس" لا يخرج عن كونه نوعا من الملاحظات.

وعلى الرغم من أن عميد الأدب العربى ينفى ما يسمى بالنقد الإذاعى فإن ما يبدو فى كتابه "صوت باريس" يقترب إلى حد كبير من مجال النقد والتقويم، فهو فى كل فصل من فصول هذا الكتاب يتناول عملا إذاعيا من أوله إلى آخره محللا شارحا مفسرا ما تعنيه كل فقرة فيه.. حتى إن العنوان مثلا كان يستغرق منه اهتماما يحتل عددا من الصفحات لا بأس به.. فيها يناقش العنوان وكيف يكون الفرق بينه وبين العنوان لو كان مكتوبا مقروءا، فالعمل المذاع المسموع غير المكتوب المقروء.

لكن برغم ذلك فالدكتور طه حسين يصر على رأيه فيقول: "صوت باريس لم يخرج عن كونه تحليلا لبعض الأعمال الإذاعية هناك. وكانت باريس فى ذلك الوقت تحت وطأة الاحتلال الألمانى. وحبا لباريس وحزنا على ما أصابها - سميت هذاالكتاب (صوت باريس)، ولا أرى أنه يدخل فى باب النقد الإذاعى. هو كما قلت نوع من

الملاحظات، وإن دخلت فى باب النقد فلا أستطيع أن أسميها نقدا إذاعيا وإنما قسم من أقسام النقد بمفهومه العام".

وقبل وفاة الدكتور طه حسين نشطت ظاهرة جديدة. هى تحويل بعض الأعمال الإذاعية الناجحة إلى أعمال تليفزيونية فى أن تحقق هذه الأعمال بعضا من النجاح الذى حققته فى الإذاعة. ويومها أعلن الدكتور طه حسين رأيه عن هذه الظاهرة قائلا: "هذا نوع من السخف، فللإذاعة أسلوبها الخاص وللتليفزيون أسلوبه أيضا، ولكل منهما أسلوب منهما وأسس ومقومات تخالف الآخر".

لكن هناك قضية مهمة يود الجميع أن يعرف رأى عميد الأدب العربى فيها.. والقضية تدور حول التزام الأديب تجاه ما يكتبه، وأن هذا الالتزام يفرض عليه ضمان وصول عمله للجمهور بالصورة التى يرجوها. لكن ما الموقف حين يفاجأ هذا الأديب أو الكاتب بأن الإذاعة أوالتليفزيون قد شوهت عمله؟ هل يصمت أو يطالب بالالتزام بما كتبه هو؟

ويرد الدكتور طه حسين: "الكاتب ليس مسئولا إلا عما يكتب، وأعنى بما يكتب - العمل الأدبى نفسه، وليس له دخل بما تفعله الإذاعة والتليفزيون. وشبيه بهذا الموقف موقفه أيضا من السينما.. حين تتناول عملا من أعماله فهو ليس مسئولا عن هذا العمل إلا حين يكون كتابا، والكاتب الأصيل لابد أنه معروف من خلال كتاباته، وليس من خلال الإذاعة أو التليفزيون أو حتى السينما".

فى الصحافة

والدكتور طه حسين وجيله أتيحت لهم الفرصة أن يعملوا فى الصحافة إلى جانب الأدب. فهل أفادت الصحافة الأدب أم هل أفاد الأدب الصحافة فى ذلك الحين؟ عن ذلك يرد الدكتور طه حسين: "أما عندما كانت الصحافة تلتقى هى والأدب فقد أفادته كل الفائدة، وأذكر أنى كنت أكتب فى الصحف وبنوع خاص فى جريدة السياسة أحاديث أدبية بعنوان: "حديث الأربعاء"، لأنها كانت تنشر فى يوم الأربعاء من كل أسبوع..

وقد اختلفت السياسة منذ وقت طويل، وتوفى كل أصحابها وحديث الأربعاء مازال ينشر وتتجدد طبعاته".

"وغيرى: كتب الأستاذ العقاد رحمه الله مقالات أدبية تحت عنوان: "ساعات بين الكتب" تناول فيها بالدراسة والبحث تاريخ الأدب والنقد، وما كتبه الأستاذ العقاد مازال يقرأ حتى الآن برغم أن هذه الصحف التى كانت تنشر هذه المقالات قد اختفت منذ فترة بعيدة".

وأذكر أن الكتابات الأدبية فى جريدة السياسة كانت تروج هذه الجريدة. مع أن سعد زغلول رحمه الله كثيرا ما نهى الناس عن قراءة السياسة إلى الأمر الذى قال فيه: "إنى أقرأ السياسة نيابة عنكم! فلم يخضع الناس لهذا النهى، وإنما أقبلوا على السياسة إقبالا شديدا، لأنها كانت تعنى بالأدب العربى القديم والحديث"!.

وعن رأيه فى الصحافة كصناعة يقول الدكتور طه حسين: "إنه على الرغم من التطور المذهل الذى دخل على صحافة اليوم – فهى تخضع لعدة مآخذ منها: كانت لدينا صحافة تهتم بتثقيف عقول القراء. أما اليوم فإن الصحف تهتم بالأخبار الداخلية والخارجية وكرة القدم وتفسح مكانا بارزا لأخبار الجرائم! وكأن الصحف لا تكتب إلا للعامة. إن الصحف اليوم نكبة على الأدب، بل وعلى الثقافة عامة. إنهاتشغل الناس عن قراءة الكتب، وتدعوهم إلى الاهتمام بسفاسف الأمور! إن الصحف تكتب بالألفاظ العامية! أين هذا من صحافة الأمس، تلك التى كانت تثقف العقول وتغذيها؟!".

وأبدى الدكتور طه حسين سخطه من هذا الأسلوب المتبع فى الصحافة حيث قال: "إنها تحللت من الوقار والجدية، وجنحت إلى الخفة والتفاهة، واهتمت بنشر أنباء لا تهم إلا أقليات من الشعب فماذا يهم الناس مثلا من أن الفنان الفلانى الذى ترك عشيقته، أو المطربة الفلانية التى طلبت الطلاق من زوجها؟ أو لاعب الكرة الذى يعمل تاجرا. وإذا كان هذا جائزا بالنسبة إلى صحافة الإثارة والخفة، فإنه لا يجوز بالنسبة إلى صحافة الرأى والوقار"!

وحتى حين سمع الدكتور طه حسين أحد الصحفيين يبرر مسألة الاهتمام بالأخبار الشخصية بأن هذه غريزة قال: "إن وظيفة الصحافة ليست أن تتملق الغرائز. ولكن وظيفتها تهذيب هذه الغرائز". والدكتور طه حسين خاض غمار أكبر المعارك الصحفية.. هو حين كان يفعل ذلك كان جريئا إلى أبعد الحدود. فكان يهاجم بعنف وبإسلوب أدبي لاذع ولا سيما حين يشعر أن الحق بجانبه وأن من يهاجمهم من خصومه قد تنكبوا نهج الصواب وسلكوا طريقا معوجة.

لقد كان يكفى أن تعلن الصحيفة أنها تنطوى على مقال للدكتور طه حسين ولا سيما فى الأزمات الحزبية العاصفة حتى يرتفع توزيعها ارتفاعا مذهلا. وكثيرا ما كانت النيابة تستدعيه لاستجوابه فيما كتب، فكان يذهب غير هياب ولا وجل، وما تنكر لما كتبه أو أذاعه!

لقد حدث أن هاجم القيسى باشا المسئول الأول فى وزارة الداخلية متهما إياه بتضليل بمجلس النواب وتزوير محضر جلسة المجلس، وهنا تستدعى النيابة رئيس تحرير الجريدة التى كتب فيها هذا المقال، فيعترف بأنه هو أى الزيات، لتسأله عن كاتب هذا المقال، فيعترف بأنه هو الأستاذ عبده حسين الزيات وتسأل النيابة طه حسين فيقول أنا كاتب المقال والزيات تلميذى، ويريد أن يضع أستاذه بمعزل عن المحكمة!

وتسأل المحكمة الزيات مرة أخرى فيؤكد أنه الكاتب وأن الدكتور طه حسين يريد أن يفتديه. وتعود النيابة لتسأل طه حسين الذى يأتى بالدليل على أنه وحده هوالمسئول، فتحكم عليه بغرامة خمسين جنيها يدفعها هو مبتسما، وقد أبت عليه نفسه وكرامته أن يلجأ إلى المداورة والكذب!

وإذا كان الصحفى مسئولا أمام ضميره ففى رأى الدكتور طه حسين أنه أيضًا مسئول أمام المجتمع وقوانينه وإن كانت هذه المسئولية خارجة عنه، ولقد تكون القوانين يسيرة هينة فيتسع للكاتب أن يؤدى عمله فى حرية، وقد تكون القوانين ثقيلة الوطأة، فيبذل الصحفى قصارى جهده لكى يحتفظ ببعض حريته.

ويقول:

"ومن ثم فالمشكلة هنا خلقية، والتضامن الحقيقى بين الصحفى والمجتمع يفرض على كل من ناحيته حقوقا وواجبات تجاه الآخر فواجب الصحفى أن يكون أمينا حرا، وواجب المجتمع أن يهيئ له ما يقيه شر الاستبداد والطغيان!".

فى السياسة

عند رصد آثار الدكتور طه حسين الفكرية نجد أنه مثل - الفكر التقدمى - فى فترة من أكثر فترات مصر ظلامًا، فقد فتح أذنيه على سماع أحاديث وحكايات حول هذه الثورة "العرابية" التى منيت بالهزيمة، وكيف أنها قامت فى الأصل، لتحقق للبلاد حريتها السياسية فإذا بها تنتهى إلى فقدان هذه الحرية تاركة البلاد فى وضع غريب، فهى إن كانت تابعة للسيادة العثمانية مستقلة استقلالا داخليا عن تركيا فقد أصبحت بعد هزيمة الثورة العرابية محرومة من هذا الاستقلال لوجود الإنجليز، ولم يكن إخفاق الثورة العرابية هو العامل الوحيد لسريان روح اليأس والقنوط فى نفوس المصريين جميعا، بل أضيف إليها من الأحداث الكثير، فالأمة بعد عشر سنوات من وجود المحتل تضعف فيها روح المقاومة، وتقترب من الاستكانة والخضوع، وتتعاقب على البلاد الأحداث، فلا تحرك الأمة معارضة ولا تستثير ساكنا والتعليم ينحط، ويرجع القهقرى، والأرض تزرع قطنًا يصدر إلى إنجلترا!

وتعلن الحرب العالمية الأولى وتتحمل مصر - دون ذنب - نصيبا من هذه الحرب، ولا تحقق ثورة الشعب عام ١٩١٩ أهدافها، وتسلم البلاد إلى حكومة الأقليات! وهكذا تخرج مصر من كارثة لتدخل أخرى، وهذا بطبيعة الحال يترك أثرا فى ذهن طه حسين وجيله فهم - وإن كانوا أدباء - فهم مواطنون قبل كل شىء، موظفون يعيشون أحداث وطنهم، ومن هنا كانت عقلية الدكتور طه حسين ترفض الاستبداد والطغيان والظلم، وتقبل على العدل والمساواة بين الناس، ولا عجب فقد خرج من بيئة متوسطة إن لم تكن فقيرة.. فلابد أن ينحاز إلى المعذبين فى الأرض ويكون من جملة ما يقوله: "إنى لا أحب الديمقراطية المحافظة ولا أقنع بالاشتراكية الفاترة"،

ويكون التساؤل هل أضير من جراء موقفه هذا من الديمقراطية المحافظة والاشتراكية الفاترة فيقول "قبل الثورة كتبت (المعذبون فى الأرض) و لم أستطع طبعها فى مصر، ولما استطعت طباعتها فى لبنان، ودخلت مصر - صادرتها حكومة صدقى باشا، وقالوا عنى وقتها: إننى شيوعى؟ وعلى الرغم من تلك التهمة وعلى الرغم من مصادرتها قرئ هذا الكتاب فى مصر أكثر من أى بدل آخرا".

وكتبت مقالا بعنوان: "القلب المغلق" وبعد نشره جاءنى الأستاذ إميل زيدان والأستاذ فكرى أباظة ليقولا لى: إن السراى فهمت أن الملك هو المقصود فى المقال، فقلت: معاذ الله أن أفعل هذا! وهل كنت ساذجًا لأسب الملك المعظم أو حتى أمس ذاته التى لا تمس؟ قلت: هذا والله يشهد أننى عندما كتبت المقال لم أفكر فى أحد إلا فى الملك، و لم أقصد أحدًا سوى ذاته الملكية التى لا تمس!

وعندما عين الدكتور طه حسين مديرًا للجامعة وكان القصر الملكى يكرهه عينوا معه (صادق جوهر) من رجال القصر - سكرتيرًا عامًا للجامعة حتى يراقب الدكتور طه حسين ويستفزه. فما إن استفز السكرتير العام مدير الجامعة حول بعض الإجراءات حتى ناداه الدكتور طه حسين قائلا فى حدة: ما أنت إلا كبير للكتبة!. وكان طه حسين يشعر بخطر البيروقراطية وهى تزحف إلى الجامعة.

والدكتور طه حسين يقر تقسيم المفكرين إلى يمين ويسار حيث يقول: هذا أمر طبيعى! ولماذا لا يكون فى المجتمع هذان النوعان من المفكرين؟ إنه على الأقل يوجد نوعًا من المناقشات التى يستفيد منها الشعب.

لكن هل ينطبق هذا التقسيم بالضرورة على الكاتب؟ ويرد الدكتور طه حسين: الكاتب يعرف بما يكتب فكاتب مثل "مورياك" تحس من كتاباته أنه يمينى محافظ وهكذا اختار لنفسه اتجاها وهكذا أراده قراؤه على حين أن كاتبا آخر مثل "جورج لوكاش" تحس من كتاباته أنه يساوى متطرف. وهكذا اختار لنفسه اتجاها أحبه الناس من خلاله وأحسوا من كتاباته أنه يسارى.

غير أنّ الدكتور طه حسين حين يجيب عن سؤال أيهما أفضل بالنسبة لمجتمعنا: يسارى مزيف أو يمينى مخلص؟

يرد: مع أن كلا الأمرين كريه: اليسارى المزيف واليمينى المخلص، إلا أن اليمينى المخلص خير وبركة، فهو يوجد تيارات من الجدل والمناقشة فإما أن ينتصر لرأيه أو يسقط، وفى هذه الحالة يصبح واضحًا أمره أمام الناس، ولكن المزيف يدمر ويخرب ويزيف، ثم بعد ذلك يحدثنا عن كيف تكون مصلحة الشعب؟ وكيف ندافع عنها، ونناضل من أجلها إلى آخر هذه الكلمات والشعارات المعروفة؟

قد تجوز المهادنة مع اليمينى المخلص، ولكنها لا تجوز على الإطلاق مع اليسارى المزيف.

فى التعليم

يرى الدكتور طه حسين أن التعليم ليس ترفا بل هو حاجة قومية لابد منها لبناء الوطن كحاجته إلى الجيش للدفاع عنه، ولهذا يجب أن ينفق المال عليه بسخاء، ولا يجوز أن يحرم أى مواطن من التعليم بسبب فقره.

بل إن التعليم هو سلاح مصر كلها الذى تدافع به عن نفسها، وهو الذى يحمينا من التعرض للمذلة والهوان، والتعليم ليس وسيلة لتحررنا من الاستعمار الذى يهاجمنا من الخارج فحسب، بل التعليم وسيلة لتحررنا من الداخل أيضا، إن الدكتور طه حسين يقول: أول وسيلة من وسائل الكسب التى يجب على الديمقراطية أن تضعها فىأيدى الأفراد إنما هو التعليم الذى يمكن الفرد أن يتزود من هذه المعرفة، وأن يلاءم بين حاجته وطاقته وما يحيط به من البيئات والظروف! وقد لا يكون من الميسور أن يطلب إلى الديمقراطية منح الأفراد حظًا يسيرا من هذه الوسيلة بالتعليم".

بل إن الدكتور طه حسين يربط فكرة الحرية كلها بالتعليم فيقول:

"إذا كانت الديمقراطية مكلفة بأن تضمن للأفراد الحرية كما تضمنت لهم الحياة فإن الحرية لا تستقيم على الجهل، ولا تعايش الغفلة والغباء، فالدعامة الصحيحة للحرية الصحيحة إنما هى التعليم الذى يشعر الفرد بواجبه وحقه"!

ولكن ما حقيقة الدعوة إلى العلم والتعليم عند الدكتور طه حسين؟ الإجابة نجدها عنده حيث يقول: "لا ينبغى أن يطلب للديمقراطية أن توزع على الناس أقواهم وتشيع فيهم اللذة والتعليم وهم هادئون مطمئنون. فهذا شيء لن يتاح لأى نظام إنسانى. إنما الذى يطلب إلى الديمقراطية ويفرض عليها أن تمنح أفراد الشعب وسائل الكسب التى يسعون بها فى الأرض وأن تزيل من طريقهم ما قد يقوم فيها من العقبات التى تنشأ عن الظلم والجور وعن التحكم والاستبداد. وأول وسيلة من وسائل الكسب التى يجب على الديمقراطية أن تضعها فى أيدى الأفراد. إنما هو التعليم. وقد لا يكون من المعقول أو من الميسور أن يطلب إلى الديمقراطية منح الأفراد كل ما يحتاجون إليه أو يقدرون عليه من هذه الوسيلة. ولكن الديمقراطية ملزمة أن تمنح الأفراد حظًا يسيرا من هذه الوسيلة (التعليم) الذى لا سبيل إلى العيش بدونه فى أية بيئة متحضرة"!

وكان الدكتور طه حسين يقدس العلم حتى إنه كان يضعه فوق كل شيء.. حتى فوق السياسة، فهو يبدى إعجابه بأستاذه لطفى السيد، لأنه ينصرف إلى العلم ويعتزل السياسة فى المناسبات حيث يقول: "لا أذكر (لطفى السيد) إلا ابتسمت ابتساما ملؤه الإعجاب والإكبار، لأنى أذكر هذا الرجل وقد اندفع فى الجهاد السياسى حتى إذا عصفت عواصف الحرب وأصبح الجهاد السياسى العلنى مستحيلاً أو كالمستحيل لجأ هذا الرجل إلى زاوية من الزوايا فى غرفة من الغرف، وأخذ يقرأ المعلم الأول (أرسطو) وإذا عصفت الشهوات السياسية وأحس العقل أن الخير له فى أن ينـــزوى ويترك الميدان للعاطفة والشهوة انزوى صاحبنا!

ويبرر كيف أن الحكام يفضلون أن يحكموا الجهلة على أن يحكموا المتعلمين حيث يقول بصورة عكسية: يجب أن يتعلم الشعب إلى أقصى حدود التعلم، ففى ذلك وحده الوسيلة إلى أن يعرف الشعب مواضع الظلم، وإلى أن يحاسب الشعب هؤلاء الذين يظلمونه ويذلونه ويستأثرون بثمرات عمله".

ولكن لكل شيء أساسا وأساس التعليم هو المعلم.. إنه العصب فى عملية التعليم حيث يقول: "لا يعرف شر على الحياة العقلية فى مصر من أن يكون المعلم الأولى

كما هو عندنا سيئ الحال منكر النفس محدود الأمل شاعرا بأنه يمثل أهون الطبقات فى وزارة المعارف"!

ويرى الدكتور طه حسين أن الجامعة إذا سارت فى طريقها الصحيح فإنها تصلح لأن تكون قيادة فكرية للمجتمع، وأن عليها أن تنشر العزة فى نفوس أبناء الشعب، وأن من واجبها أن تسهم فى هذه النهضة الخطيرة لهذا الوطن العزيز، وأن علينا أن تنهض بكل المرافق فى هذه البلاد وهى تقرر هذا الواجب حق قدره، وتضعه ضمن تخطيطها.

ويطالب الدكتور طه حسين بأن تفيد الجامعة تطوير المجتمع وتطوره فيدعو:

"بأن توزع كلياتها على حسب البيئات الإنتاجية: فالمشروعات الصناعية تقتضى أن تقترب منها الكليات المهتمة بالصناعة، والمشروعات الزراعية تقتضى اقتراب الكليات المهتمة بالزراعة، هذا إلى جانب الاهتمام بكليات العلوم الإنسانية، فما أحوج المجتمع النامى إلى مثل هذا الفرع من العلوم"!

فى الإسلام

حين يذكر الذين كتبوا فى الإسلام وأرخوا له - نجد فى مقدمتهم الدكتور طه حسين، ولا عجب فى ذلك حيث يرجع إليه الفضل فى مشروع إعادة كتابة التاريخ الإسلامى بشكل يحبب إليه القلوب مصداقا لقوله عز وجل: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[1] فدعا كلا من صديقيه الأستاذ أحمد أمين والأستاذ عبد الحميد العبادى، واقترح أن يقوم ثلاثتهم بالتأريخ للحياة الإسلامية بحيث يتناول هو الحياة الأدبية فى الإسلام، وأحمد أمين الحياة الفكرية، والعبادى الحياة السياسية.

والحق أن الدكتور طه حسين حين شرع فى التأريخ للإسلام فعل هذا عن عقيدة

(١) النحل /١٢٥.

ملأت روحه وكيانه، ورأيناه فيما كتب يملى العظمة مصغرة فى حديثه عن الفتنة الكبرى بين عثمان وعلى رضى الله عنهما، وفى حديثه عن الشيخين "أبو بكر وعمر" رضى الله عنهما أملاها مكبرة وفى حديثه عن الإسلام الذى عرض أمره كله فى أطواره المختلفة.

إنه يقدم كتابه الأول فى الإسلام "على هامش السيرة" بكلمات منها : "ورأيتنى أقرأ السيرة فتمتلئ بها نفسى، ويفيض بها قلبى، وينطلق بها لسانى. وإذا أنا أملى هذه الفصول وفصولا أخرى أرجو أن تنشر بعد حين، فليس فى هذا الكتاب إذًا تكلف ولا تصنع ولا محاولة للإجادة، ولا اجتناب للتعقيد، وإنما هو صورة لسيرة طبيعية صادقة لبعض ما أجد من الشعور حين أقرأ هذه الكتب التى لا أعدل بها كتبًا أخرى مهما تكن والتى لا أمل قراءتها والأنس إليها والتى لا ينقضى حبى لها وإعجابى بها وحرصى على أن يقرأها الناس".

ويحدثنا عن الإسلام فيقول: "فالدين الإسلامى كان وسيكون دائمًا أساس الحياة الخلقية للأمة الإسلامية، وقد كان فى عصر طويل أساس الحياة السياسية والعلمية لهذه الأمة أيضًا، وهو الآن سيكون دائمًا أساسًا لهذه الحياة السياسية والعلمية إلى حد بعيد، فلموقفه من الحرب والسلام أثر ظاهر فى تقويم موقف الأمم الإسلامية من الحرب والسلم، وموقف الإسلام من الحرب والسلم رائع حقًا فبين اسمه وبين السلم صلة لا تخلو من مغزى، والإسلام دين رحمة وبر، ودين أمر بالمعروف وترغيب فيه ودعوة متصلة إليه، وهو كذلك دين عطف وإحسان، وهو كذلك دين يأخذ العفو ويأمر بالمعروف، وهو من كل هذه النواحى دين السلام الخالص..".

كذلك يحدثنا عن تقديس الإسلام للحرية والعلم والمعرفة حيث يقول: لكن الإسلام فى الوقت نفسه دين كرامة وعزة مهمته الاعتراف بالشخصية الإنسانية: بشخصية الفرد وشخصية الجماعة، وفيه الاعتراف بأهم ما يقوم هذه الشخصية من الحرية فى الرأى والقول والعمل جميعا.

أخص ما يمتاز به الإسلام أنه دين الحرية والعلم والمعرفة كما تفهمها الأجيال على اختلافها، لا كما يفهمها جيل بعينه".

ويؤكد الدكتور طه حسين أن الإسلام دين سلام حيث يقول: "إن اسم الإسلام مشتق من السلم، وأن المسلم فى القرآن الكريم هو الذى يسلم قلبه ووجهه لله، وإن المسلم فى حديث النبى ﷺ هو من سلم الناس من لسانه ويده، وإن إبراهيم أبا الأنبياء قد جاء ربه بقلب سليم وقد أسلم وجهه لله فالمسلمون أهل السلام!".

ويصرح فى أكثر من حديث أو لقاء مع كاتب هذه الصفحات بأنه كثيرا ما يناجى ربه – سبحانه وتعالى – بالدعاء الذى روى عن سيدنا رسول الله ﷺ وهو: اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض، ولك الحمد أنت قيم السموات والأرض. ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن، أنت الحق: وعدك الحق، والجنة حق، والنار حق والموت حق، والساعة حق.

اللهم لك أسلمت وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أعلنت وما أسررت.. أنت إلهى.. لا إله إلا أنت..

وعن إعجاز القرآن الكريم يقول: "والقرآن كله من عند الله وهو وحده فى روحه وإعجازه مهما يختلف تنزيل سوره ومهما تختلف موضوعات السور ومذاهب القول فيها.. فالقرآن وحدته من حيث إنه يدعو دائما إلى أصول معينة: "إلى توحيد الله ونبذ الشرك على اختلاف صوره والإيمان بمحمد ﷺ وما جاء به القرآن، والإيمان بالرسل الذين جاءوا قبل محمد وما أنزل عليهم من الكتب، والإيمان بالبعث وبالحياة الآخرة بعد هذه الحياة الأولى. وما يكون فيها من ثواب ونعيم ومن عذاب وجحيم.. ثم هو يأمر الناس بأن يقيموا حياتهم فيما بينهم وبين نفوسهم بحيث يبرءون من الرذائل كلها كبارها وصغارها!".

وعندما قام الدكتور طه حسين بفريضة الحج قال بعد عودته: "لقد سبق أن عشت فكرى وقلبى بهذه الأماكن المقدسة زهاء عشرين عامًا منذ بدأت أكتب "على

هامش السيرة" حتى الآن. ولما زرت مكة والمدينة أحسست أنى أعيش بفكرى وقلبى وجسدى جميعًا، عشت بعقلى الباطن وعقلى الواعى، استعدت كل ذكرياتى القديمة، وكانت هذه الذكريات تختلط بواقعى فتبدو حقائق حينا ورموزا حينًا آخر، وكان الشعور بها يغمرنى ويملأ جوانب نفسى!".

وهكذا عاش الدكتور طه حسين حريصًا على دينه وفيًا لعقيدته الإسلامية برغم ما قيل عنه!

فى الشباب

شباب أربعة أجيال على الأقل مدينون للدكتور طه حسين بأشياء كثيرة، وهذا سر من أسرار الحياة التى تجعل الفكر يتسلسل فى الأجيال فيضىء العقول والقلوب كنور الفجر الذى يغمر الدنيا دون أن نرى مصدره! وصدق من قال: "إنه لولا الدكتور طه حسين ما كانت الجامعة روحًا ومنهجًا وفلسفة، وما حملت فتاة كتبها إلى مدرجات الجامعة، وما وجد الملايين من أبناء الفقراء طريقهم إلى العلم، وما بقيت للعقل وللثقافة هيبة ولا احترام!".

والحق أن الدكتور طه حسين كان يهتم بالشباب اهتماما بالغا حتى لو كان حكمه عليهم فى بعض الأحيان قاسيًا، فإن هذا الموقف كان يصدر من منطلق الحرص عليهم كعتاد وأمل للمستقبل بل إنه كان يرى أنه لا أمل فى جيل سابق لا يفيد منه جيل لاحق ولا قيمة لأستاذ إن لم يكن لهم تلاميذ ومريدون. ولا قيمة لفكر لا يتربى عليه أجيال وأجيال!

وإيمان الدكتور طه حسين بالشباب وصل إلى درجة أنه كان يتبنى الكثير من أعمالهم تشجيعا لهم، وكثيرًا ما كان يواجه من بعض أفراد جيله باللوم حين يضع اسمه مثلاً على عمل لشاب ليكون بمثابة بطاقة المرور إلى عقل القارئ، فكان يرد على من يلومه بأنه إن لم يفعل ذلك فلا قيمة إذن لما ينادى به هو وغيره من تواصل للأجيال وهنا لم يجد حرجًا مثلاً فى أن يقدم كتابًا للأستاذ واصف البارودى عن الحياة والشباب ويقول فى مقدمته بعد أن راجعه: أما بعد. فهذا

كتاب الشباب.. إليهم يتحدث، وعنهم يتحدث، فما أجدر أن يقرءوه ويفهموه ويذوقوه!".

ويواصل تقديمه للكتاب ومؤلفه وكل كلمة تنبض بهذا الحب وذاك الإيمان بالشباب وبقضيته فيقول: "والكتاب صورة للفن والعلم جميعا، لأنه وحى من شعور القلب وخلاصة من تفكير العقل، وهو يتعرض لمسائل كثيرة أهمها الجهل الذى فى ميادين الحياة!.

وربما كان الصدق والحب والإخلاص وسداد الرأى هى أرخص ما يمتاز به هذا الكتاب القيم الممتع من الخصال، وكم كنت أود أن تبرأ طبعته الأولى من بعض الخطأ المطبعى الذى يشينه شيئا ما، وأكبر الظن أن طبع الكتاب فى مصر ومؤلفه مستقر فى وطنه لبنان هو سبب هذا الخطأ القليل الضئيل!".

وفى رده على سؤال كان صدى للحركة العالمية للشباب وهو: كيف يستدل الشاب فى هذه الحركة العالمية على الاتجاهات الثورية والاتجاهات التى تدل على مجرد التمرد؟ يقول: "الثورة غير التمرد، فالعمل الثورى له فنه، والسؤال الآن هل أتقن هؤلاء الشباب فن العمل الثورى أم لا؟ وفى الإجابة عن هذا السؤال يمكن فرز الاتجاهات الثورية من مجرد التمرد".

وفى دفاعه عن شباب ما بعد ثورة ٢٣ يوليو حين اتهم بأنه منصرف عن العمل السياسى يقول: "ربما كان ما حققته الثورة من مكاسب كان يعمل من أجلها شباب ما قبل الثورة - جعل شباب ما بعد الثورة أقل اهتماما بالسياسة، ولكن الظروف الراهنة تجعل الشباب يهتمون من جديد بالسياسة، ويمكن قياس ذلك الاهتمام الآن بمقارنته مع مثله قبل ٥ يونيو ١٩٦٧،ولسوف نخرج من هذا بنتيجة لعلها تقول: إن الشباب الآن أكثر اهتماما بالأحداث..".

وهذا الدفاع المجيد نفسه نراه حين قيل: إن شباب مصر أقل اهتماما بالقضايا الوطنية من إخوتهم فى البلاد العربية حيث يقول: "البلاد التى لم تحقق نصيبا من العدالة

أو الحرية والرخاء لابد أن يكون الشباب فيها أكثر اهتماما بالقضايا الوطنية من غيرهم في البلاد التي حققت هذه المكاسب من قبل..".

ويدافع أيضا عن الشباب لانصرافهم عن الثقافة ويتهم أساتذتهم ويصفهم بالتقصير حيث يقول:

"الأساتذة اليوم لا يقرءون.. حتى أساتذة التعليم العالي لا يقرءون أيضا، لذلك كان من الطبيعي أن ينصرف الشباب إلى مجالات أخرى أقرب وأسهل: يتجه إلى السينما والتليفزيون والضياع!".

ويضع الحل أمام الأساتذة والشباب فيقول: "وصيتي للشباب وقد أوصيتهم مائة مرة - أن يقرأوا في الأدب العربي القديم والأدب اليوناني والآداب العربية والأجنبية الحديثة قدر ما يستطيعون".

بل يكون أكثر مباشرة في نصحه للشباب الذين شبوا مع ثورة ٢٣ يوليو، فيقول: "أنصح لهؤلاء الشباب أن يثقفوا أنفسهم تثقيفا حسنا وأن يحسنوا العلم بتراثهم، ومن عرف منهم لغة أجنبية أنصح له بأن يقرأ من آدابها ما استطاع، وقد قدمت هذه النصيحة إلى الشباب غير مرة، ولكن ما أكثر ما نقول! وما أقل ما يسمع القارئون!...".

عن المرأة

يكفي المرأة تشريفًا أن تجعل عميد أدبنا العربي يقول عنها في صورة رفيقة حياته: إنها (ملاك) بدله من البؤس نعيمًا، ومن اليأس أملا، ومن الفقر غنى، ومن الشقاء سعادة وصفوا.

وفي ثنايا رائعته (الأيام) يقص علينا الدكتور طه حسين كيف أنه بالتقائه بهذه المرأة تبدل كل شيء وتغيرا لقد ردت إليه إبصار عينيه المظلمتين، وأتاحت له أن يعيد صياغة علاقته بالعالم، فما تقوم على الخوف والتوجس، بل تقوم على قاعدة إنسانية من الأخذ والعطاء!.

ولم يكن غريبا بعد ذلك أن يؤمن الدكتور طه حسين بالمرأة، ويرى أنها نصف المجتمع الذى لا غنى عنه وأنها ينبغى أن تنال من الحقوق ما يناله الرجل.

وضمن هذه الحقوق أن تنال حقها فى التعليم: لقد حقق نظريته هذه حين كان عميدًا لكلية الآداب، يومها تقدمت المرأة لتكون طالبة فى الجامعة، وكانت أول سابقة من نوعها عندئذ، سأله مدير الجامعة أحمد لطفى السيد: هل هناك مادة فى قانون الجامعة تمنع المرأة عن الالتحاق بها؟ فرد الدكتور طه حسين بما يفيد النفى، وهنا وافق مدير الجامعة على طلب الدكتور طه حسين فى أن تنضم إلى أسرة الجامعة فتاة.. وتبع ذلك السماح بدخول عدد كبير من الفتيات فى كلية الآداب، وكان هذا الإجراء بمثابة الثورة الفكرية فى مجال التعليم، عندئذ هاجمته الصحف ووصفته بالانحلال مدعمة رأيها هذا بصورة له وقد التفت حوله الطالبات مع الطلبة، وقالت الصحف فى تعليقها على ذلك: "انظروا كيف ينشر الدكتور طه أفندى حسين الفسق والفجور فى محراب العلم؟"[1].

ولم ينته الامر عند هذا الحد بل تعداه حين خرجت المظاهرات من أصحاب العقول الضيقة تهتف بسقوطه، وتصل إلى غرفته فى مبنى الكلية وهو قابع فى زاوية من هذه الحجرة لا يتحرك! ويحطم المتظاهرون أثاث الحجرة وهو لا يحرك ساكنا أيضا، وينصرف المتظاهرون وتمضى الأيام والسنون وإذا بكلية الآداب وغيرها من كليات الجامعة تفخر بأنها ضمت إليها المرأة، وحققت بفضل قرار هذا الرجل الحرية والمساواة بين الرجل والمرأة!.

وإيمان الدكتور طه حسين بالمرأة لم يكن وليد ظرف معين هو كونه أصبح مسئولا فى الجامعة، فأراد أن يقوم بعمل غير عادى، أو لأنه يريد أن يرد جميل تلك التى بدلته من البؤس نعيما ومن اليأس أملا!

إن إيمانه بالمرأة كان مبكرا، فها هو ذات يوم يتحدث عنها عام ١٩١١، فيقول عنها بالحرف الواحد:

لا فرق بين المرأة والرجل فى الحرية وكلاهما مأمور بمكارم الأخلاق، منهى عن مساوئها، محظور عليه أن يتعرض لمظان الشبه:

فللمرأة أن تفعل ما تشاء فى غير إثم ولا لغو: لها أن ترفع الحجات وتتمتع بلذات الحياة كما يتمتع الرجل، وليس عليها إلا أن تقوم بما أخذت به من الواجب لنفسها وزوجها والنوع الإنسانى كافة.. هذا هو رأى الإسلام وهو رأينا الذى عنه لا نحيد".

والمرأة المتكاملة هى تلك المرأة التى تمتلك صفات بنات جنسها أمام الرجل، استمع إلى الدكتور طه حسين وهو يحدثنا عن تلك المرأة على لسان شهرزاد حيث تقول لشهريار، "أنا من تحب أن ترى فى أى ساعة من ساعات الليل: أنا أمك حين تحتاج إلى حنان الأم، وأنا أختك حين تحتاج إلى مودة الأخت، وأنا ابنتك حين تحتاج إلى بر البنت، وأنا زوجك حين تحتاج إلى عطف الزوج، وأنا خليلتك حين تحتاج إلى مرح الخليلة، أنا كل هذا!".

والمرأة المطلوبة فى مجتمع يبنى نفسه جاءت فى نتاج وجدان الدكتور طه حسين كامرأة طبيعية.. فيها كل خصائص الحياة الخصبة المتنوعة الآفاق فكريا واجتماعيا. والغريب أن هذه هى صورة المرأة عنده فى فترة من تاريخنا هى أشد حقبة ازدحاما بالتقلبات واندفاعا فى التطور بين قديم مسرف فى الجمود وجديد مسرف فى التحرر.. وهنا يكون السؤال مطروحا: من المرأة العصرية؟ فيرد قائلا: "لعلى أتفق مع من قال: إن المرأة العصرية هى المرأة التى تنضج جسمانيا وعقليا فى وقت واحد، وليست هى التى تطيع أحدث صرخات الموضة العالمية أو تتحدث بالتواء!".

ثم ماذا صنعت بحريتها بعد تحررها؟ يرد: "هى انتصرت بهذه الحرية، لكن عليها أن تعرف كيف تستفيد بهذه الحرية؟

وعن دور المرأة فى حياة الدكتور طه حسين يقول: "دور – قد لا أبالغ – إن قلت: إنه عظيم الأثر، إنه يجعلنى أقول دون تردد إننى أحترم زوجتى بعد الله وكتابه العزيز!".

في الحب

الناس جميعًا يذوقون الحب، ويبلون لذاته وآلامه، يتعرضون له كما يتعرضون لكثير من محن الحياة، بل يتعرضون له كما يتعرضون للموت، لا فرق في ذلك بين أصحاب الهذل، ولا بين الذين يفرغون للعلم والدين، والذين يفرغون للأدب والفن، والذين يفرغون للسياسة والحرب.

هكذا يتفق الدكتور طه حسين مع غيره في الحديث عن الحب، كما يتفق على أنه ليس هناك حب واحد، وإنما هناك أربعة أنواع من الحب:

أولها: الحب الجامع الذى يملك على النفس أهواءها وعواطفها وحسها وشعورها والذى يندفع كالسيل لا يلوى على شيء، ولا يترك لصاحبه حظا من أناة أو روية من تفكيرا.

والثاني: الحب المترف الذى ينشئه التكلف وما تقتضيه الحضارة الراقية المصفاة من إتراف في الذوق وتأنق في فنون المتاع، والذى لا يكاد يتصل بالنفس ولا بالقلب، ولا يكاد يؤثر في العاطفة أو في الشعور، وإنما هو لون من ألوان الذوق، وفن من فنون الترف قد وضعت له قواعده وأصوله، وأحاط الناس بأسراره ودقائقه، فهم يصعدون فيه عن علم وينهون إلى غايته عن بصيرة.

والثالث: الحب الجسدى الذى تدفع إليه الغرائز، والذى يشترك فيه الإنسان والحيوان.

والرابع: حب الغرور الذى ينشأ عن الكبرياء وإيثار النفس بهذه الظواهر الخداعة التى يكبر بها الإنسان أمام نفسه، وإن لم يكبر بها في أنفس الناس!.

وعندما يطرق الدكتور طه حسين موضوع الحب يسهله بالقول:

"بأن هناك من يبسم لهذا الموضوع، وهناك من يعبس وسيكون بين الباسمين من يبسم عن رضا، لأنه يريد أن يقرأ عن الحب شيئا، ومن يبسم عن سخرية لأنه لا يرضى أن يكون الحب موضوعا للحديث في مجلة ينتظر منها الجد الصارم، ولا يحب منها الإقبال على لغو الحديث، فأما العابسون فسيكون عبوسهم سخطا خالصا، لأن

حديث الحب لهو كُله، وما أكثر الصحف والمجلات التى تلهج باللهو وتغرق فيه!

ومع ذلك فقد كانت حياتنا فى العصر الأول أسمح من هذا كله وأكثر برا، وكانت أحاديث الحب لا تثير سخطا ولا عبوسا وإنما تثير رضا وابتهاجا، وتدعو إلى الروية والتفكير فى كثير من الأحيان".

وحين يجيب عن سؤال: هل هناك مكان للحب فى مجتمع جاد يبنى نفسه؟ يقول: نعم، وهل معنى الجدية فى حياتنا أن نوصد أبواب الحب ونوافذه فيما بلغنا؟ وهل يمكن أن تسير حياتنا هكذا فى ظل الجهامة والعبوس؟ إن حياتنا الجديدة، تلك التى نبنى فيها ونشيد لابد أن يكون من سماتها العمل. والعمل لا يتم إلا بشحنة من الحب!".

وهل الحب فى أيامنا هذه انحراف والوقوع فيه ضعف؟ ويجيب الدكتور طه حسين: "من قال: إن الحب فى أيامنا أو فى غير أيامنا انحراف؟ ومن يصدق أن الوقوع فيه ضعف؟ إن الحب حين يكون صادقا يغدو مثمرا ومفيدا، والوقوع فيه قوة وشموخ!".

لكن هل يختلف الحب فى عصر الفضاء والحب فى عصر قيس وليلى؟ ويرد: "قلت: الحب الحقيقى لا ينبغى له أن يختلف أو يتغير لا فى الزمان ولا فى المكان، الشرط الوحيد على ذلك أن يكون حقيقيا صادقا".

فى غزو الفضاء

حين هبط الإنسان الأمريكى على سطح القمر ترك عبارته المشهورة: جئت من أجل سلام البشرية! فسئل الدكتور طه حسين: أحقا ذهب هذا الإنسان من أجل سلام العالم؟ فكان رده: "كذب وادعاء! والدليل على ذلك ما تصنعه بلده الولايات المتحدة الأمريكية لشعب فيتنام، وما تصنعه روسيا فى غيرها من البلاد التى ترفض أن تدور فى فلكها! إن هذا الإنسان سواء فى أمريكا أو فى روسيا هبط على سطح القمر ليس لسلام العالم، ولكن لاستعراض القوة المدمرة التى يمكن أن تضع العالم على حافة الهاوية!".

إذن الوصول للقمر كان قفزة فوق السحب للدولتين العظميين، وليس قفزة

للبشرية! ربما كان قفزة للبشرية إذا كانت الدولة التى قامت به - دولة محايدة، وليس لها جرائم هنا أو هناك!. أما إذا كانت لهذه الدولة أو لتلك نوايا مشكوك فيها، فالأمر يختلف.

وهل تسمح ظروف عالم اليوم أن تشارك البشرية كلها فى جنى ثمار غزو الفضاء؟ يرد الدكتور طه حسين قائلا: "لم لا؟ وماذا يمنع دولة كبيرة مثل الصين أن تنـــزل على سطح القمر، أو دولة أخرى مثل اليابان من الاشتراك فى جنى هذه الثمار؟

ثم يقول:

"لى أن أقول فى إجابتى حول غزو الفضاء: "إن هناك أسبابا ومبررات تدفع الحكومة التى تقوم بذلك إلى التسابق على غزو الفضاء: من هذه الأسباب والمبررات ما يدخل فى باب اقتصادياتها وما يدخل فى سياستها المستقبلية وما يدخل حتى فى عقيدتها، وكلها أمور تفكر فيها الدولة وليس الشعب، فالشعوب تكره مثل هذه المشروعات كراهيتها لزيادة الضرائب من أجل الاستمرار فيه".

ويحدد الدكتور طه حسين رأيه فى هذا الموضوع فى هذه العبارة:

"غزو الفضاء تحقق، ولكن بقيت سعادة البشرية حلما من الأحلام، أو هى فقط فى أذهان الأدباء والشعراء والفنانين".

فى الصراع العربى الإسرائيلى

بعد ٥ يونيو ١٩٦٧ تستوقف الدكتور طه حسين كلمات مؤداها أن الصراع العربى الإسرائيلى صراع حضارى بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان، فيعلق قائلا: "هذا الصراع الحضارى لا منشأ له. الصراع الراهن بين العرب وإسرائيل سببه أن إسرائيل تريد أن تتوسع فى الأرض على حساب العرب! لماذا لا نضع هذه القضية فى حجمها الحقيقى؟ ورأيى أنه إذا كانت لإسرائيل حضارة فهى بالتأكيد ليست حضارتها هى، وإنما هى حضارة غيرها، حضارات تلك الدول التى تكونت فى الشرق وفى الغرب وفى الشمال والجنوب!".

وعن فهم ومعرفة عقلية إسرائيل ووجوب ذلك يقول الدكتور طه حسين:

"هذا ضرورى، ولكن السلاح هو المطلوب أولا.. بعد ذلك تحاول فهم عقليتهم بعرض وجهة نظرهم هم للأمور والأشياء، ثم طرحها للبحث والتحليل، لنرى من خلفياتها ماذا يريدون؟ وما تفكيرهم؟ مع ملاحظة ألا يتصدى لمثل هذا العمل إلا العقول الواعية، عندئذ نكون قد فهمنا نمطا من تفكيرهم".

ومن كلماته حول الصراع العربى الإسرائيلى: "اليهود يعلنون باستمرار أن فلسطين كانت وطنهم منذ آلاف السنين، ولقد مضت آلاف السنين على رحلة قصيرة خاطفة من وجودهم فى فلسطين، ثم إننى أتساءل: هل صحيح أن اليهود الذين يعيشون الآن هم بنو إسرائيل؟ الذى أستطيع أن أؤكده هو أن اليهود يتحدثون عن التوراة، ولا أعرف كتابا ذكر اليهود بالشر مثلما ذكرهم التوراة!".

وفى رأيى أن القضية العربية هى قضية كل الأحرار فى العالم، وإذا فشلت هذه القضية وخسرها العرب، فإن ذلك سيؤدى إلى نكسة رهيبة للحركات التحريرية فىالعالم كله. ولما كان من المتعذر أن يحدث شىء مثل هذا، فإننى متفائل بمستقبل مصر والقضية العربية.

جائزة نوبل

ويعلق بكلمة: "الله أعلم" حين قالوا فى جائزة نوبل: إنه حينما يرفضها مفكر فإنما يرفض بذلك صكوك الغفران، والتى تقررها أكاديمية العلوم السويدية التى تتعارض هى ومبادئ المفكر فى الحياة ولاسياسة. ويضيف قائلا لمحدثه: "وهل تعتقد أن من تختاره الجائزة يفكر بهذه العقلية، أو يتردد مثل هذا التردد؟".

إن جائزة نوبل فيها أشياء غريبة ولا شك أن عوامل سياسية تتحكم فى عمليتها.

ثم يسخر الدكتور طه حسين من منح جائزة نوبل فى الأدب فى يوم من الأيام إلى رجل السياسة البريطانى تشرشل، على حين أن هناك أكثر من أديب إنجليزى وفرنسى وأمريكى يستحقونها! ثم يقول: "إذا كان لابد من منح تشرشل جائزة نوبل، أفلم يكن أولى بهم أن يمنحوها له فى مجال آخر غير الأدب؟

والغريب العجيب فى الوقت نفسه أن تشرشل نفسه لم يتردد، وتسلم الجائزة سعيدا مع أنه كان يعلم أنهم به تخطوا كل أدباء العالم!".

وعن سؤال حول قبوله هذه الجائزة برغم كل شىء يجيب: "نعم أقبل الجائزة برغم ما تقدم من اعتبارات وأكون سعيدا بها".

ويضحك حين يُسأل عما يفعل بقيمتها المالية؟، ويقول: "لعل إجابتى تشبه قول "مورياك" حين أعطى الجائزة وسألوه السؤال نفسه فرد لعلنى أشترى بها (فريجيدير) لزوجتى!".

فى الحياة

يقول عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين فى الحياة بعد بلوغه الخامسة والسبعين: "كلما مر عام من حياتى واستقبلت عاما جديدا كان الشعور الذى أجده واحدا ولا سيما منذ بلغت الستين. وهو أن الحياة تمضى دون أن أشعر فى يوم من الأيام بالرضا عن نفسى والاطمئنان إلى أنى أديت ما كان ينبغى أن أؤدى من الواجبات لنفسى ولأسرتى ولوطنى بل للإنسانية آخر الأمر!".

وعن أسلوب الحياة الذى اتبعه حتى وصل إلى ما وصل إليه - يجيب الدكتور طه حسين وهو فى الثمانين من عمره قائلا: "أكاد أعتقد أنى لم أعرف أسلوبى فى الحياة إلا شيئا فشيئا، لأن هذا الأسلوب نفسه لم يتكون إلا قليلا قليلا. فرضته علىّ ظروف الحياة، وهى التى استخرجته من أعماق طبيعتى استخراجا بعد أن كان كامنا فيها، وأول ما اكتشفت من هذا الأسلوب خصالاً أرى أنها قد صحبتنى منذ الصبا حتى الشيخوخة، فكونت مذهبى فى الحياة وهو: ظمأ إلى المعرفة لا سبيل إلى تهدئته، وصبر على المكاره، ومغالبة للأحداث، وطموح إلى اقتحام المصاعب فى غير حساب للعواقب، وجهر بما أرى أنه الحق مهما يعرضنى له ذلك من الخطوب والمصائب، ثم شعور كأقوى ما يكون الشعور بالتضامن الاجتماعى يفرض علىّ أن أحب للناس من الخير ما أحب لنفسى!

لكن هل حقق هذا المذهب فى الحياة سعادة الدكتور طه حسين ورضاءه؟ إنه يجيب

قائلا: "إن هذه السعادة لم تقدر لمن هو مثلى فى الحياة، فكيف إلى السعادة لم تقدر لمن هو مثلى فى الحياة، فكيف إلى السعادة والغبطة والرضا وأنا لم أبلغ شيئا إلى طمحت إلى شىء آخر أبعد منه منالا، و لم أحقق فى الحياة أملا لنفسى أو للناس إلا دفعت إلى أمل أشق منه تحقيقا؟!

لهذا ولذلك أستطيع القول: إننى لم أذق طعم السعادة فى الحياة، وما أرى أنى سأذوقها إلا أن يأذن الله لى بها فيما وراء هذه الحياة!".

هكذا تحدث الدكتور طه حسين!

* * *

ختـــام

والآن.. بعد هذه الرحلة الممتعة التى عشت فيها، أياما وليالى، ومن قبلها سنوات طوال قد تصل إلى الخمسين عاما مع فكر الدكتور طه حسين، إما مستمعا عنه أو قارئا له، أو متحدثا معه، أو دارسا أو ناقدا أو كاتبا معبرا عن هذا الفكر المتجدد.. أقول إن هذه الصفحات التى انتهيت من كتابتها.. ليست سوى نتيجة لكل هذه جميعها مضافا إليها مجلدات وكتباً وقصاصات من الصحف، فى مقدمتها الأهرام، ومجلات الإذاعة والتليفزيون، والعربى الكويتية، والمنتدى الإماراتية، والمحيط الثقافى القاهرية، وغيرها من إصدارات أسهمت فيها بالكتابة عن طه حسين وفكره، إلى جانب الرجوع إلى مؤلفاتى من الكتب التى ألفت عنه، وما كتبه عن هذا الفكر غيرى.. فإليها جميعا يرجع الفضل فى إتمام هذه الصفحات المختلفة عن غيرها.

الآن.. بعد أن فرغت من رصد فكر طه حسين المتجدد، الذى أسهم فى تكوين العقل المصرى الحديث، وهو فى سبيل يقظته، وأضاء للأجيال الطريق بلوامع هذا الفكر المتجدد، لا أقول بأننى أودع هذا الفكر فى حدود ما انتهيت من كتابته فى هذه الصفحات السابقة، لأننى لا أشعر بأننى ابتعدت عن هذا الفكر فى السنوات الماضية، وكم كانت صحبته مباركة عظيمة.. والدليل على ذلك أن هذا الفكر يضاعف دائما من تعلقى بصاحبه الدكتور طه حسين يوما بعد يوم، حتى وإن كان فى رحاب الله - عز وجل منذ ما يقرب من الثلاثين عاما.

وقد لا أكتم سرا عليك عزيزى القارئ، إن قلت لك إننى أحيانا أسترجع لقاءاتى معه فى ستينيات القرن الماضى (العشرين) إلى بداية السبعينيات أو حتى قبل وفاته فى الثامن والعشرين من شهر أكتوبر ١٩٧٣ بأيام حيث كنت دائم السؤال عن صحته التى بدأت تغتل فى أيامه الأخيرة، والتى كانت لا تسمح إلا بالسؤال هاتفيا.. أقول لا

أكتم سرا حين أجد نفسى أناجيه، وربما أشكو إليه من محن ونكد هذا الزمان الصعب الذى نعيشه، وما فيه من حياة ثقافية فاسدة، فرضت علينا أن نتعامل معها شئنا أو أبينا، وضعف النفوس وصغرها فى طلب النفوذ والسلطان، وتغير وتبدل المواقف حسب توجيه بوصلة المصالح الشخصية... وكأنى بذلك أدير حوارا معه من طرف واحد حيث أناجيه أحيانا وأناديه هامسا: طه حسين يا من وفدت إلى دنيا الأدب والفكر والثقافة فى بدايات القرن العشرين، فاستحدثت نظريات جديدة رضى عنك بسببها قوم، وغضب منك آخرون.

ولكن يشهد الجميع مؤيدين ومعارضين بأنك كنت دائما تحرك الحياة الثقافية من سكون وموات، إلى حركة وحياة، ويشهد لك الجميع بأنك لم تنس يوما لسانك العربى، ولا أصالة ثقافتك، ولا عراقة حضارتك، فكم نبهت فى أعمالك ومواقفك ومحاضراتك لتلاميذك وطلاب علمك وأدبك، وأحاديثك مع أصدقائك ومريديك... إلى ضرورة التمسك باللسان العربى، والثقافة العربية، والحضارة الإسلامية، كما يشهد الجميع أنك ما أردت لأمتك إلا الخير، وأنك كنت دائم التمسك بهذا اللسان وتلك الثقافة وهذه الحضارة.

وترى أنها جميعا لا تقل عن نظائرها من الحضارات قديمها وحديثها.. إلى درجة أنك قلت يوما مخاطبا الذين يهرعون إلى الحضارة الأوروبية الحديثة قائلا: "الذين يظنون أن هذه الحضارة الحديثة حملت إلى عقولنا خيرا خالصا يخطئون، فقد حملت هذه الحضارة الأوروبية الحديثة إلى عقولنا شرا غير قليل..".

قلت ذلك منذ عشرات السنين، وكأنك تعيش معنا اليوم ويرى ببصيرتك التى كانت تخترق حجب الزمان شر أبناء هذه الحضارة من أوروبيين أو أمريكيين أو من شذاذ هذه الآفاق من الصهاينة الإسرائيليين، وكيف يتعاملون مع أبناء العراق وفلسطين بكل أسلحة الفتك والدمار دون رحمة أو هوادة ولسان حالهم يقول إنهم لا يقصدون سوى هذه الحضارة الإسلامية وخيراتها.. وهل يمثل هذا غير شر هذه الحضارة الحديثة وعدوانها الأثيم؟!.

ثم ألست أنت القائل عن أدب أمتك العربية: "ليس الأدب العربى بأقل حياة من الآداب الأجنبية مهما تكن، وليس الأدب العربى أقل صلاحا للبقاء واستحقاقا للعناية الخصبة، والدرس المنتج.. من الآداب الأجنبية مهما تكن، وكل عيب الأدب العربى أنه مجهول، لا يحسنه أصحابه ولا يتعمقونه..".

هل بعد ذلك يتهمك البعض من أبناء أمتك فى لسانك وثقافتك وحضارتك؟!

أقول كثيرا ما ألوذ إليك، معتصما بك، من سخف وزلل، ما أسمع وأرى وأقرأ اليوم".

وهذه الصفحات السابقة أرجو أن تجسد جانبا يسيرا من فكر طه حسين المتجدد، راجيا فى الوقت نفسه أن يأتى من بعدنا نفر من الأجيال التالية يكون أبعد بصيرة، وأشد عدلا، وأوسع ثقافة.. فيعطى طه حسين وفكره المتجدد ما يستحقه من التكريم، الذى قد يبخل به عليه ويضن غير المنصفين فى هذا الزمان!

والله الموفق

سامح كُريِّم

المعادى - إبريل ٢٠٠٣

* * *

المصادر

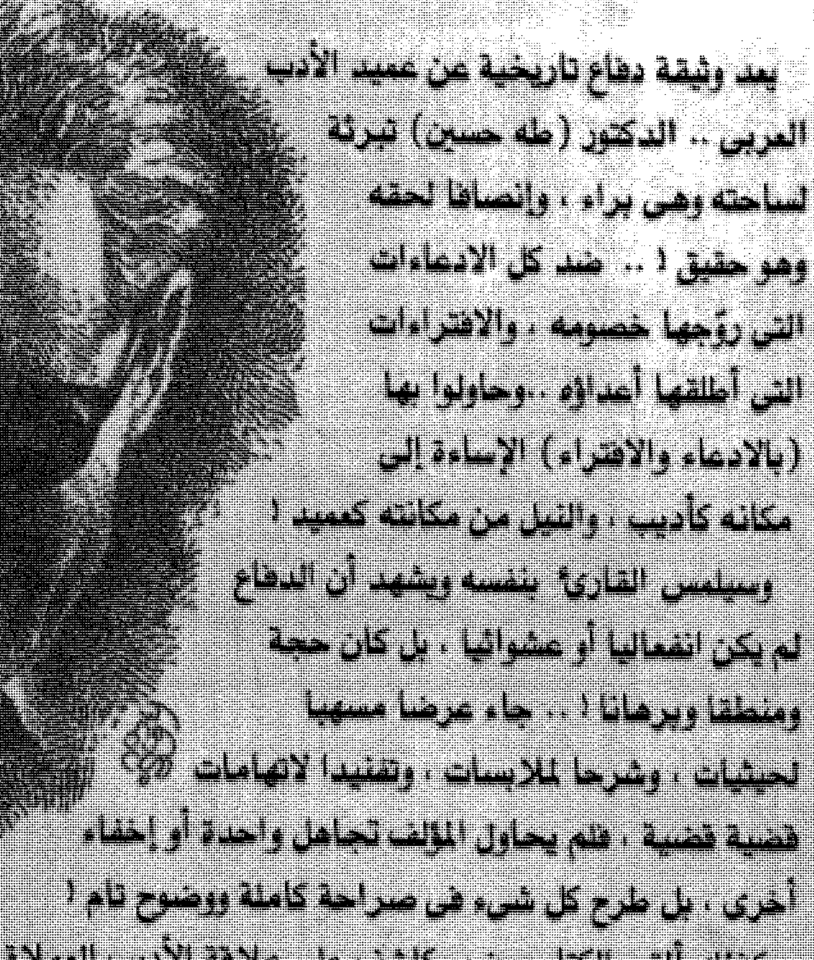
مؤلفات طه حسين
مع طه حسين - الكيلانى الكيالى.
المعارك الأدبية - أنور الجندى.
وحى الأدباء كتّاب وشعراء - اسماعيل موسى اليوسف.
قبض الريح - إبراهيم عبد القادر المازنى.
نقد كتاب فى الشعر الجاهلى - محمد فريد وجدى.
الشهاب الراصد - محمد لطفى جمعة.
تحت راية القرآن - مصطفى صادق الرافعى.
النقد التحليلى لكتاب فى الشعر الجاهلى - محمد أحمد الغمراوى.
نقض كتاب فى الشعر الجاهلى - محمد الخضر حسين.
الفن فى حياتنا - فتحى غانم.
الشخصيات العشرون - محمود تيمور.
سياسة التعليم فى مصر - إسماعيل القبانى.
طه حسين فى المغرب العربى - أبو القاسم محمد كرو.
زيارة طه حسين للمملكة المغربية - د. عبدالهادى التازى.
قضايا الشعر الجاهلى - د. محمد أبو الأنوار.
طه حسين قضايا ومواقف - حسن جيغام.
مع طه حسين فى أيامه - د. عطية عامر.
ما بعد الأيام - د. محمد حسن الزيات.
مؤلفات عن طه حسين - سامح كريم.

الهلال (عدد خاص عن طه حسين) - فبراير ١٩٦٦.
الثقافة (عدد خاص عن طه حسين) - ديسمبر ١٩٧٣.
الطليعة (عدد خاص عن طه حسين) - ديسمبر ١٩٧٣.
مجلة الإذاعة والتليفزيون أعداد مختلفة.
مجلة العربي الكويتية.
مجلة المنتدى الإماراتية.
صحيفة الأهرام (مقالات سامح كريم عن طه حسين)

* * *

المحتويـات

* * *



يعد وثيقة دفاع تاريخية عن عميد الأدب العربي .. الدكتور (طه حسين) تبرئة لساحته وهى براء ، وإنصافا لحقه وهو حقيق ! .. ضد كل الادعاءات التى روّجها خصومه ، والافتراءات التى أطلقها أعداؤه ..وحاولوا بها (بالادعاء والافتراء) الإساءة إلى مكانه كأديب ، والنيل من مكانته كعميد !

وسيلمس القارئ بنفسه ويشهد أن الدفاع لم يكن انفعاليا أو عشوائيا ، بل كان حجة ومنطقا وبرهانا ! .. جاء عرضا مسهبا لحيثيات ، وشرحا لملابسات ، وتفنيدا لاتهامات قضية قضية ، فلم يحاول المؤلف تجاهل واحدة أو إخفاء أخرى ، بل طرح كل شىء فى صراحة كاملة ووضوح تام !

كذلك ألقى الكتاب بضوء كاشف على علاقة الأديب العملاق بالمغرب العربي (تونس ـ المغرب ـ الجزائر) تأثرا وتأثيرا ! .. كما تحدث عن (طه حسين) وأعلام عصره من زعماء وسياسيين وأدباء وفلاسفة ، ورأى هؤلاء فى المطاعن ال... بها ومنافحتهم العقلانية عنه ! ، فضلا عن الإشادة به ، وتكريم اليونسك... بحوار الحضارات .

خلاصة القول : أن الكتاب كشف ـ ربما لأول مرة ـ عن حقائق جديدة ... وقائع مشوقة ومثيرة !

★ طه حسين فكر متجدد
سامح كريّم



6 222006 300555

الدار المصرية اللبنانية